لماذا سعاد الصباح؟

د. فاطمة يوسف العلي

دار سعاد الصباح
للنشر والتوزيع

دراسة

لماذا سعاد الصباح؟

د. فاطمة يوسف العلي

دار سعاد الصباح
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

2022

الناشر:

دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع

ص.ب: 27280 - الصفاة

الرمز البريدي: 13133

الترقيم الدولي I.S.B.N:

978-99906-2-120-4

لماذا سعاد الصباح؟

الإهداء

إلى التي لم تسمح بأن يحني الوطن رأسه

إلى التي نقشت اسم الوطن في الصدور قبل الصخور

إلى التي جعلت رائحة الأمومة مركزة في الأنوف

إلى التي حرست الوطن وحدها

وبكت الوطن وحدها

إلى سعاد الصباح

فاطمة

المقدمة

لماذا سعاد الصباح؟

كم هي الكتب والدراسات والأبحاث العلمية والنقدية التي صدرت عن سعاد الصباح كشاعرة وكاتبة، فقد كتبت قصائد الشعر والأغنية، كما كتبت النثر والدراسات العلمية، وكتبت في القومية والوطنية، وكم هي الأقلام التي تناولت البناء اللغوي في كتاباتها إلى جانب الظواهر الكثيرة التي قام عليها هذا البناء، كالحب والرومانسية وصورة المرأة والأمومة، وصورة الواقع والتمرد الأنثوي على القبيلة ذات القانون الذكوري الذي لا يجوز الخروج عليه، وكذلك ظواهر الزمن والممارسة الإبداعية والرثاء والوطن والانتماء، وغير ذلك من الظواهر والتجليات والتيمات التي سبحت في فلكها شعراً ونثراً.

وكم هي الكتابات التي تناولت المشاعر الإنسانية التي أحاطت بها، والقلوب التي تعلقت بها وهي تغمس قلمها في مداد من قلوبنا ومشاعرنا، وآمالنا وأحلامنا وطموحاتنا، ثم تعبر بإنسانيتها الرفيعة وموهبتها الحقيقية عن لحظاتنا الإنسانية السعيدة والتعيسة، وعن قضايانا المحلية والعربية، معبرة في الوقت نفسه عن مواقفها الإنسانية والوطنية والثقافية الثابتة، مكافحة ومناضلة بما تملك من حب الوطن ومن نبل وخير إنساني، لتعيد للمرأة احترامها وللوطن مجده وللإنسان في كل مكان روحه وإنسانيته.

وكم هي الكتابات التي عبرت عن اللحظات والأيام والليالي التي امتلأت

عبقاً وسحراً ونشوة ونحن نطالع قصيدة كتبتها سعاد الصباح، أو نستمع إلى أغنية غزلتها سعاد الصباح من نسيج وجدانها الألق، أو مقالة نثرية نثرت سعاد الصباح حبات لؤلؤتها، أو دراسة علمية تؤكد خبرتها في ميدان الاقتصاد أو مداخلة علا فيها صوت سعاد الصباح فكشفت عن معدنها الأصيل وثقافتها الواسعة ووطنيتها وولائها لوطنها العربي وهمومها بأوجاعه المتعددة، وكم وكم وكم هي التغريدات التي هزت أعماقنا وصوت سعاد الصباح يصدح بقصيدة وطنية أو ثورية أو قصيدة غزلية وعاطفية، مجسدة براءة ملامح وجهها ووداعته التي تنطق بما يسكن قلبها من رحمة وحنان للجميع.

وكم كان من الصعب أن ألبي رغبة ملحة داخلي في الإمساك بالقلم، لأكتب شيئاً جديداً عن سعاد الصباح، وقد تناولتها الأقلام كمفكرة ومثقفة، وكشاعرة فذة مناضلة، وكمبدعة متميزة وأصيلة، لتتشكل في النهاية عبر كل هذه الكتابات التي تزيد على الخمسين مؤلفاً، ملامح امرأة عربية استثنائية في قدراتها الإبداعية والفكرية والعاطفية، وفي مواقفها الوطنية، وفي إنسانيتها الرفيعة وأخلاقياتها النبيلة، لتتجسد أمامنا صورة لامرأة نموذج يزينها الخلق الحسن والتواضع الجم.

وكم ازدادت الصعوبة في الأمر وأنا أفكر أن أكتب عن شاعرة بحجم سعاد الصباح، وأنا لست متخصصة في الشعر، على الرغم من أن بدايتي مع القلم والكتابة كانت مع القصائد والشعر، ثم تحولت إلى السرد القصصي والروائي لأنفّس فيه عن مكنونات نفسي حين وجدته الأقدر على ذلك، ومن هنا لم يكن في نيتي أن أقدم -عبر هذا الكتاب- دراسة عن شعر

سعاد الصباح أو نثرها، ولم يكن في نيتي أن أكتب عن مواقفها الوطنية أو الإنسانية بشكل عام، ولم يكن في نيتي أن أكتب عن انتمائها الأسري وموقعها الاجتماعي، أو أن أكتب عن شعراء وكتّاب ومفكرين أصدقاء لها تحمل لهم الود وتحفظ لهم التقدير، ولا كان في نيتي أن أكتب عن آرائها في القضايا الفكرية والثقافية والمجتمعية التي اتسمت معها بالعفة والتعقل الخالي من التكلف، وإنما وددت أن أكتب -انطلاقاً من هذا كله- عن محبتي لها.

نعم، لقد أحببت سعاد الصباح، كإنسانة وكمثقفة وكمبدعة، وقبل هذا كله، كامرأة كويتية عربية تمثل نموذجاً مشرفاً لكل كويتي، وقدوة تحتذى لكل امرأة كويتية، وفي هذا الحب إجابة على السؤال الذي يحمله الكتاب عنواناً له: "لماذا سعاد الصباح؟".

وكلي يقين بأن سعاد الصباح الإنسانة هي الشجرة التي تتفرع منها سعاد الصباح الشاعرة والمفكرة والخبيرة بعلم الاقتصاد، وأن سعاد الصباح الإنسانة هي الوردة التي تورق ثمارها وتنشر شذاها في كل تلك التخصصات والاهتمامات، ولذا سيكون تركيزي واهتمامي وكتابي عن سعاد الصباح الإنسانة، بكل ما تحمله إنسانيتها من قيمة أدبية وإخلاص ووفاء لوطنها الكويت، ولمبادئها السامية ومواقفها التي لا تخشى فيها لومة لائم، وصدق كتاباتها وما يخطه قلمها، ورقّة شعرها وقوته وعمقه، وثورته على كل تقاليد القبيلة وقيودها ونظرتها التي لا ترى في المرأة إلا جسداً جميل التكوين أو وجهاً حلو الملامح ورائع القسمات.

وقد تضمن كتابي هذا أربعة فصول وخاتمة، هي على النحو التالي:

- الفصل الأول بعنوان "سعاد الصباح.. ثلاثة أوجه لعملة واحدة"، ويتضمن الإشارة إلى هويتها العائلية وهويتها الثقافية وهويتها الشعرية، ليتشكل من الهويات الثلاث هويتها كامرأة كويتية وخليجية وعربية استثنائية.

- الفصل الثاني بعنوان "سعاد الصباح.. الأمومة وطن"، ويتضمن الإشارة إلى الدور الذي لعبته سعاد الصباح كأم تحمل من معاني الأمومة السامية لأطفال الوطن العربي، ما يجعلها أمّاً لهذا الوطن.

- الفصل الثالث بعنوان "سعاد الصباح.. فدائية باحثة عن الحقيقة"، ويتضمن الإشارة إلى المواقف التي تشكل في حقيقتها مجموعة من المعارك التي خاضتها سعاد الصباح بحثاً عن الحرية، على المستوى الإنساني والثقافي والفكري، وغير ذلك من المعارك التي خاضتها من أجل حقوق الإنسان.

- الفصل الرابع بعنوان "سعاد الصباح.. ثروتنا الحضارية ومستقبل أمة"، ويتضمن الإشارة إلى المنجز القومي الذي قدمته سعاد الصباح في الدفاع عن البيت العربي، ثقافياً وفكرياً وحضارياً، وما قدّمته من أجل مستقبل الأمة العربية.

- الخاتمة.

الدكتورة فاطمة يوسف العلي

2021

الفصل الأول

سعاد الصباح.. ثلاثة أوجه لعملة واحدة

قيمة وقامة

«الكلمة لا تشيخ، ومن يمتهن الكلمة لا يشيخ، نحن -الكتّاب- كالأشجار الضخمة، لا تتوقف جذورها عن النمو، ولا أوراقها عن التفتح»، كلمات بليغة قالتها الشيخة الدكتورة سعاد الصباح ذات يوم، معبرة عن خلود الكلمة وصاحبها، وخلود الإبداع ومن يكتبه، وقد كانت تعبر في الوقت نفسه عن قيمتها وقامتها، كشجرة وارفة باسقة لا تتوقف جذورها عن النمو ولا تتوقف أوراقها عن التفتح.

وقد تفتحت أعين هذه الشجرة على الدنيا، بعيون تتطلع منذ اللحظة الأولى إلى المستقبل، فكان دأبها أن تثمر وأن تزهر من أجل الآخرين، إنساناً كان أو وطناً، ترفض أن تقيم كرنفالها الصغير وحيدة، أو يؤنسها كوب شاي مرسومة عليه صورة روميو وجولييت، أو تتكحل وتتعطر لتقرأ أبياتاً من الشعر العذري.

كانت في كل نفس تتنفسه، وفي كل خطوة تخطوها، وفي كل إنجاز تصنعه، تعبر عن هويتها كامرأة كويتية وخليجية وعربية، تضع لمساتها إنسانياً وفنياً، لتستكمل بعض المعاني الناقصة للعالم، وتدفع عن الحياة بعض قبحها، وترد عن الوجود بعض الغموض.

ولـدت الشـيخة د.سـعاد الصبـاح -كـما هـو معـروف- في 22 مايـو 1942م، وهـي الابنـة البكـر لوالدهـا الشـيخ محمـد صبـاح الصبـاح الذي حمل اسـم جـده الشـيخ محمـد الصبـاح حاكـم الكويـت في الفـترة مـن 1896-1892م، وقـد واكـب يـوم مولدهـا على مـر السـنين أحداثـاً عظيمـة واسـتثنائية، وكأن القـدر يخلّـد هـذا اليـوم الـذي ولـدت فيه، وقـد انطلقـت تلك الأحـداث من جعبـة واحـدة، مـن الظلمـة إلى النـور، ومـن القيـد والضغط والكبـت والقهر إلى الحريـة، وكأنـه ترتيـب قـدري لـه دلالـة تعـبر عـن الهـدف الأسـمى الذي سـعت إليه سـعاد الصبـاح وإلى تعميقه في كل ما قدمـت وأنتجت، ولن ينسى التاريـخ -في هـذا التوقيـت- إقامـة أول مؤتمـر نسـائي عربي لمسـاندة الشـعب الفلسـطيني، ودعـوة عميـد الأدب العـربي د.طـه حسـين في كتابـه «مسـتقبل الثقافـة في مـصر» إلى تواصـل الثقافـة العربية بثقافـات دول العالم، ولن ينسى التاريـخ كيـف كانـت الحيـاة بسـيطة بالكويـت، وأراد اللـه أن يبـدأ تطويـر هـذه الحياة.

انتمـت سـعاد الصبـاح كامـرأة عربيـة لزمنهـا، شـغلت حياتهـا بالعلـم والتحصيـل والعمـل، لا بـأن تطبـع الحنـاء عـلى كفهـا، سـافرت إلى مشـارق الأرض ومغاربهـا تدافـع عـن الإنسـان، والحـب والمـرأة والوطـن، تحلـم أن تعيـش في وطـن عـربي سـعيد، يتمتـع بصحـة جيـدة ويشـعر بالأمـان، تنـادي دائمـاً: لا تزرعـوا المـوت في عيونكـم وأنتـم تشـتهون الحيـاة.

ولـدت سـعاد الصبـاح فنسـجت بإحساسـها أجمـل الكلـمات وأبدعـت في وصفهـا الصـور والتعبـيرات، كانـت في كل أحلامهـا أكـثر رشـاقة، وهـي اسـم غنـي عـن التعريـف، لا يوجـد وصـف لامـرأة تركـت بصماتهـا في كل مـكان،

أبلغ من أنها المرأة المبدعة الكاملة الشاملة التي ارتبط اسمها بالشعر والنثر والآداب والعلوم، وهي المرأة التي عرفت بدعمها للمواهب الخلاقة والطاقات الشبابية في مختلف مجالات العلم والمعرفة، وهي المرأة التي ظل مشوارها مميزاً ونجاحاتها لا تغيب.

إن بعض لمحات من حياتها الحافلة بالعطاء، لتؤكد أنها ولدت طفلة تغفو على وجه الكتاب، وتصحو على هفهفات النخيل، وقد أزهرت الأرض بوجهها الطفولي، حين دبت بدايات التفتح على الحياة، والانتماء إلى الأماكن والناس، ترتب أوراق الذاكرة، وتتزود بوقود الإيمان، فتصبح هادئة كهدوء الصلوات، خاشعة في محرابها، ولم يكن ضرباً من اللعب بالنار، أن تختار تخصصاً علمياً حين كبرت، حين غابت عن أفكارها الحلوى والمراجيح، والعرائس القماش، وقطع اللعب البلاستيك، والأغطية الملونة والمفارش الحمراء، وخصلات الشعر المتساقطة أمام المرآة، أو ربما يكون التخصص هو الذي اختارها، ليصبح واقعاً جميلاً تعيشه، وقد كانت تحلم بمسار مختلف.

في جامعة القاهرة العريقة كنت أحلم بدراسة التاريخ -هكذا تقول- لكن القدر أخذ بيدي للاقتصاد، وكان لدراسة البكالوريوس نكهة فيها الكثير. كنت أدرس الاقتصاد، وفي الوقت ذاته أتعلم الحياة، وأنا أستند إلى كتف زوجي وصديق العمر رحمه الله.

ومع بداية المسيرة التعليمية، انتظمت أنفاسها وهدأت قسماتها، وكان والدها الشيخ محمد صباح الصباح هو أستاذها الأول، كان بهجة الحياة البكر، بينما زوجها الشيخ عبدالله المبارك كان هو الشخصية المحورية في

حياتها، وكان -في الوقت نفسه- الكوكب الذي يغفو على وقع أنفاسها، فقد ترك بصماته على جسد حياتها -كما تقول- وكان عطره ملتصقاً بذاكرتها، وسيظل.

مدرسة الخنساء في الكويت كانت من المحطات الفارقة في مشوارها لأنها تلقت علومها الأولية فيها، وفي ثانوية المرقاب للبنات في الكويت، وفي 15 سبتمبر 1960م، اقترنت بالشيخ عبدالله مبارك الصباح، نائب حاكم الكويت والقائد العام للجيش والقوات المسلحة وقتها، وبعدها بثلاثة عشر عاماً، في عام 1973م حصلت على البكالوريوس في الاقتصاد مع مرتبة الشرف، في كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة، ثم حصلت على درجة الدكتوراه في الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة ساري جلفورد بالمملكة المتحدة، وهي أول كويتية نالت شهادة الدكتوراه في الاقتصاد باللغة الإنجليزية، وكان عنوانها «التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي ودور المرأة»، وقد ترجمت إلى العربية.

أكدت هذه الدراسة ضرورة اعتماد منهج التخطيط طويل المدى، سعياً إلى تحقيق هدفين مرتبطين ببعضهما، الأول هو إعداد إطار عام للتخطيط الإنمائي في ظل اقتصاد يعتمد على النفط، ويستند إلى ضرورة إقامة قاعدة اقتصادية متوازنة، وقوى عاملة متوازنة أيضاً، والثاني يقدم تحليلاً إحصائياً تسجيلياً لموقف المرأة العاملة في مسألة الالتزام بالعمل.

وقد منحت درجة الزمالة من كلية سانت كاترين بجامعة أوكسفورد المتخصصة في العلوم السياسية والاقتصادية وشؤون الشرق الأوسط، وبذلك تعتبر أول امرأة عربية من الشرق الأوسط يتم انتخابها لدرجة الزمالة

بهذه الجامعة لأعمالها الإبداعية، ولمكانتها العلمية، وقد ظلت رغم انشغالها بتخصصها في الاقتصاد، تحمل الهم الوطني، والحزن العربي، تهتم بحقوق الإنسان وحرية الرأي، وتناضل من أجل الدفاع عن المرأة، ومن أجل المشاركة في بناء الحياة والمستقبل، ترسم قوساً ورد ياً لتخلو الأوطان من الخائنين والمهاجرين غير الشرعيين، إلى جانب دفاعها عن حق الإنسان في الحياة والحب ومخاطبة إنسانية الإنسان.

شاركت في معظم المؤتمرات الخاصة بالمرأة والطفولة، والمنتديات والمهرجانات الثقافية والشعرية في الكويت، وعلى امتداد الوطن العربي، كما ساهمت مساهمة فعالة في خدمة الحركة الثقافية والفكرية من خلال الدعم والمساندة من أجل واقع ثقافي أفضل، فهي تؤكد دائماً أن الثقافة والشعر رسالة إنسانية، وأن الشاعر والأديب هو مرآة صادقة لواقعه الاجتماعي والثقافي والإنساني.

وآمنت بأن إحياء التراث العربي الأدبي مهمة وطنية، فساهمت في ذلك عندما أعادت طبع مجلة الرسالة المصرية التي كان يرأس تحريرها الكاتب أحمد حسن الزيات، كما خصصت ثلاث جوائز للشباب، لدعمهم واكتشاف مواهبهم وتقديمهم إلى الساحة الإبداعية، الأولى جائزة الشيخ عبدالله المبارك الصباح للإبداع العلمي بفروعه المختلفة، والثانية جائزة سعاد الصباح للإبداع الفكري بفروعه المختلفة، والثالثة جائزة لشباب الأرض المحتلة.

كما أسست دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع بفرعيها في الكويت والقاهرة، لتشجيع الإبداع بين الموهوبين العرب، ولفتح الطريق أمام

المواهب لتأخذ حظها في الظهور في عالم الكلمة، وتنظم الدار مسابقات أدبية ووطنية، وتمنح الجوائز في مجال الشعر والقصة للأدباء الشباب، وتتابع الدار نشاطها من مقرها الرئيسي في الكويت.

كما تواصل الدار تكريم رواد الثقافة في الكويت وخارجها، ومن أبرز هؤلاء المكرمين عبد العزيز حسين، أحد رموز الثقافة والمعرفة في الكويت، وقد قدمت له نسخة من كتاب أصدرته بعنوان «عبد العزيز حسين وحلم التنوير»، وشاعر البحرين إبراهيم العريّض والمفكر التونسي د.الحبيب الجنحاني ونزار قباني وثروت عكاشة وعبدالله الفيصل وغيرهم.

وقد تناولت مختلف المشكلات المعاصرة، والقضايا الوطنية على المستويين الإقليمي والعالمي في العديد من المقالات الأدبية، والسياسية، والاقتصادية، والقصائد الشعرية، التي نشرت في العديد من الصحف والمجلات المحلية والعربية، داخل العالم العربي وخارجه.

بدا عالمها زاخراً بالعطاء وبدا منجزها العلمي ثرياً بالفكر، ولعلنا إن أسلمنا أنفسنا إلى تأمل مشوار مبدعتنا بما فيه من إنجازات، فلن تكفينا المئات من الصفحات، غير أن الحب وحده هو ما يدفعنا إلى البحث عن كنوز هذا المشوار الإبداعي.

الوجه الأول.. الإنسانة

سعاد الصباح امرأة مهذبة للغاية، هكذا نشأت وكبرت وترعرعت، ولأنها امرأة مهذبة كأجمل ما يكون، فهي تحتفظ داخلها دائماً بشحنات الغضب والرضا، غضبها شفيف، وخيالات الحلم والأمل، حلمها شفيف، ونوبات

الحـزن والفـرح، فرحهـا شـفيف، وحـالات الوجـد الشـجن، وجدهـا شـفيف، دأبـت عـلى أن يكـون لبوحهـا بمخـزون مشـاعرها مواسـم وطقـوس، لا تبـادر بالإبحـار إلا في هـدوء يماثل هدوء نسـمة خجلى، أو شـهيق لصـدر ارتاح لتوه، وتنتـصر لغضبهـا بابتسـامة، فتشـم عبـير دماثتهـا وتستنشـق هـواء رقتها، فلا تجـد مفـراً مـن أن تبادلهـا رقيَّهـا، حتـى وإن كانـت تسـير عـلى مـوج الإبحار ضـد التيار.

ظلـت الابتسـامة طـوال تاريخها هـي عنوانهـا، لا تعرف التصنـع أو التكلف أو المجاملـة، ظلـت الابتسـامة عنوانهـا في أحلـك اللحظـات، كانت هـي المرأة الجميلـة ذات الهيبـة والأنوثـة والحسـب والنسـب والمال، كانـت هي المبدعة التـي ظـل زوجهـا في حياتهـا، هـو الملهـم الـذي تخاطبـه وتحاكيـه وتعاتبـه وتشـكو لـه تقلبـات زماننا، كانت هي الحـماة والأم والابنـة والزوجة والأخت، كانـت هـي المبدعـة التـي تهمس لنفسـها كل لحظـة: لا شيء يسـتحق النزاع، ولا شيء يسـتحق الأنـين، ولا شيء يبقـى إلا القصيـدة.

سـعاد الصبـاح امـرأة اختلـط بعظمهـا ولحمهـا دم القصيدة وزيـت اللوحة ونفـط الاقتصـاد، امـرأة صاغتهـا الأقـدار عـبر تجـارب حياتهـا، فبـدت امـرأة قويـة تخفي ضعفها، لا تستسـلم لقسـوة الحيـاة، وإن فرضـت عليها الوحدة، عاشـت حياتهـا ترتـدي عبـاءة امـرأة قويـة تترفـع عـن ضعفهـا، وترتـدي رداء المحـارب المرابـط دائمـاً عـلى بوابـات الرؤى.

سـعاد الصبـاح امـرأة ظلـت مستمسـكة بعروتهـا الوثقـى، حريصـة على أن تكـون قصيدتهـا هـي الأقـوى في كيانهـا وفي حياتها، تحفـظ تاريخ أبياتهـا، بيتاً بيتـاً، وكلمـة كلمة، فعاشـت وكأنها تاريـخ القصيدة الـذي لا ينسى، ترفض من

يعبث بقصاصات أوراقها الممزقة على أرضية المكتب، وتستنكر الاعتداء على المعنى بالتأويل والتحوير، تحفظ جهازها العصبي من التعصب لكل ما هو غير القصيدة، والكلمة المبدعة، والمزامير التي لم يكتبها الأولون.

سعاد الصباح امرأة بلا تفاهات، ولهذا ظلت في الذاكرة، ذاكرة الناس والوطن، وفي القلب، وفي الوجدان، تعشش كطائر يبني عشه ولا يتوقف عن التغريد، شعراً ونثراً وعلماً، في كل وقت وحين، تنسج قصائدها مطرزة بالإحساس ومغزولة بالمشاعر، فتجذب نحوها العقول، وتعلق حولها القلوب، وحين تقرأ البسملة، تكتب تفاصيل الوطن، وترسم حبكة انفعالاته دون نهاية.

سعاد الصباح امرأة مسافرة دائماً، ليس بقطار أو طائرة، إنما في الكلمات والمعاني الإنسانية، في الانتماء الحميم لأسرتها ووطنها، هي شيخة كويتية من الأسرة الحاكمة، لكنها امرأة بسيطة متواضعة، لا تشعر بالفرق بينها وبين الناس، تعيش حياتهم بلا تعالٍ، وكأي إنسان تفرح حيناً وتتألم حيناً.

تستقر في وجدانها فلسفات الحياة، فترى أن السفر مدرسة للعقل والروح، حين يسمو عن كونه مجرد تسلية، ولهذا سافرت كثيراً، وقد منحها السفر ثروة كبيرة في فهم الطبيعة ومكنها من التعرف على نفسيات الشعوب وتواريخها، وفي اكتناز معرفة واسعة بالإنسان وثقافاته متعددة الوجوه والسبل، كان السفر بالنسبة لها ولا يزال معيناً من المعرفة لا ينضب، وقد أغنى تجربتها الإنسانية، كما أغنى مخيلتها الشعرية، وعمّق إحساسها الإنساني وجعلها تحس قرابة روحية مع الإنسان الآخر.

سعاد الصباح امرأة تتحرك في خفة غزال، عاشقة للأسفار، تدب خطوتها

عـلى الأرض هويـداً رويداً، ولا يحبسـها في مكان سـوى كتابـة قصيدة جديدة، ربمـا تجلـس يومـاً، يومـين، أسـبوعاً، شـهراً، لا تبرح مكانهـا ولا ترى الشـارع أو تخالـط أحـداً، إلا بعـد أن تنتهي مـن بوحها.

وتقـول: لقـد كانـت رحلاتنـا دائماً غنيـة بأهدافها الإنسـانية في طلـب العلم أو حضـور المؤتمـرات والمشـاركة في المنتديـات الثقافيـة، ولا أنـسى أن معظـم رحلاتنـا في السـنوات الأخـيرة، كانـت لهـذه الأغـراض، وتلبية لدعوات رسـمية أو للمشـاركة في الأمسـيات الشـعرية.

سـعاد الصبـاح الآن، لا تـزال تقـف سـيدة تجيـد فـن الإصغـاء والإنصـات في بحـر متلاطـم مـن الأفـكار والثقافـات وتنـوع التجـارب والبيئـات، لا تـزال تفكـر في قصيـدة جديـدة وفي كتابـة جديـدة وفي ديـوان جديد، لا تـزال امرأة مقتحمـة، تقتحـم بإنسـانيتها قبـل قصيدتها العقول والقلوب، لكنها لا تسـمح لأحـد باقتحـام نواياهـا، هـي ليسـت إعصـاراً مـن مطـر وكحـل، إنما تسـبيحة عـلى لسـان التائبـين وتمتمـة عـلى لسـان العارفـين، علّمهـا الزهـدُ أن تعلـن الصيـام عـن التغـزل في وطـن، لا يـبرح مكانه كل ليـل، ولا يرتكب العشـق إلا سراً، ولا يـرى في الملكـوت إلا حجابـاً قديمـاً يعلقـه درويش في رقبتـه، ولا يجيد سـوى البـكاء عـلى اللبن المسـكوب.

ليـس هـذا ثنـاء خالصـاً، كـما يقـول د.طه حسـين: «الثنـاء الخالـص الذي لا يشـوبه النقـد، إنمـا هـو كالمـاء الـذي أذيب فيـه كثير من السـكر، وتوشـك إن أسرفـت في شربـه أن يأخـذك الغثيـان»، إنما هـو تعبير عن قلـب مبدعة أحب قلـب مبدعـة هي سـعاد الصبـاح الطفلـة والزوجـة والأم والجدة.

سعاد الطفلة

المحددات التي ترسم هوية الإنسان، ما هي إلا اسمه واسم عائلته ومكان ولادته وتاريخ ولادته وعنوان سكنه ومهنته التي يمارسها، إلى غير ذلك من المحددات التي على نحو ما، تعبر عن طبيعة وملامح الفرد وسلوكه وبيئته التي نشأ فيها، وتطلعاته الكبرى والصغرى وانتماءاته وأحلامه المستقبلية، بما يسهم بقسط وافر في النهاية بتكوين شخصيته وسهولة التعرف عليه[1].

والمعروف أن سعاد الصباح كانت قد ولدت في بيئة كويتية تقليدية، وكان لوالدها تأثير عميق في نشأتها، ولهذا ورثت عنه جزءاً كبيراً من اهتماماتها، أبرزها حبها للقراءة والكتابة[2]، وتتطاير في الذاكرة كلماتها: «الانتماء إلى آل الصباح يشرفني ولكنه لا يعطيني أي امتياز، ولا يجعلني كما يتصور البعض من أصحاب الدم الأزرق، والدم لا يكون أزرق ولا أخضر ولا أصفر وإنما يكون دماً إنسانياً، ودم الإنسان هو هو في كل زمان ومكان، وهو في إنجلترا كما في بنجلاديش وفي استوكهولم كما هو في الكونغو، وفي نيويورك، وباريس كما هو في السالمية والفحيحيل في الكويت. كانت طفولتي مرسومة باللون الأخضر وعرفت اللون الأسود حين فقدت الوالدين، أبي كان رفيق المشاوير، عاشقاً للطبيعة، منه تعلمت ثقافة الأرض بورودها وعشبها وأشجارها وأمطارها وعصافيرها وقمرها ونجومها، علمتني أمي أن أكون سيدة نفسي، مسؤولة عن إدارة البيت منذ أن كنت في العاشرة من عمري».

سعاد الصباح التي يراها البعض تلك الطفلة المدللة بكرية الشيخ محمد

1- فاطمة الجامعي الحبابي ـ إلى سعاد الصباح المرأة بين فواصل الكلمات ـ منشورات دار النور ـ بيروت ـ ط1 2005م ـ ص43.

2- من السيرة الذاتية المعتمدة للشاعرة.

الصباح، لم تكن كذلك، ولم يكن الدلال يوماً سبيلاً للاستكانة أو الهدوء والراحة عندها، لأن النفوس الكبيرة تتعب بالراحة وترتاح بالتعب، فتقول: «وقد عرفت ذاتي منذ مطالع الوعي، وأدركت أن علي واجباً يتجاوز هذه الذات، لتكون جسر خير ومحبة وصوت علم وثقافة، وقد جاهدت في سبيل ذلك كله، وسرت الطريق من أوله الى آخره، أدركت أن السلم لا يتكون من درجة واحدة، مهما علا، بل هو سلسلة من الدرجات على الإنسان أن يجتازها الواحدة بعد الأخرى حتى يحقق ذاته، فيكون بذلك قادراً على تثبيت القدمين في الموقع الذي يصل إليه. إن الأيام والليالي التي قضيتها في الدراسة وفي التأليف كانت كل شيء غير الراحة أو الدلال، لقد مشيت مسافة طويلة، بالحزم والمثابرة والإصرار، حتى تحقق لي ما تحقق بفضل الله، لم تكن الطرق مفروشة بالورود، فالورود هي أيضاً توءم الأشواك، وقد عشت بين جدران بيئات مختلفة أكسبتني الخبرة، ومنحتني القوة والثقة، علمني البحر المتلاطم الأمواج أن الأفكار تولد، وأن الإصرار والعزيمة يشق الإنسان بهما الصخر ويتحدى المجتمع».

نعم، كانت الطريق وعرة، لكنها على خشونتها وقسوتها أكسبتها سمواً وتواضعاً وخضوعاً للخالق سبحانه، وتقديراً لعباده، ولم يكن تعاملها مع الناس على اختلاف مشاربهم، مبنياً على قناعتها بأنها تنتمي إلى فصيلة آدمية من صنف مميز، أو مقدس، تسمو على فصيلة الدم الذي يجري في عروق سواها، بل كان مبنياً على قناعة بأن عناصر النبل والفضيلة لا تكون متوارثة بقدر ما تكون مكتسبة في شخصية الإنسان، يكتسبها من الواقع الذي يعيشه، ومن الأشياء التي تحيط به، ومن السنن الكونية.

ومـن فضيلـة القدر أن نشـأت سـعاد الطفلـة في حضن عائلة مثقفـة، متزنة وعاقلـة، محترمـة، محافظـة عـلى تقاليدهـا ومكانتهـا التـي حباهـا اللـه بهـا، خاليـة مـن الهـزات والمطبـات التـي تزيل الاسـتقرار، وتشـتت الأمـن والأمان، كان الوالـد معلمهـا الأول الـذي علمهـا القـراءة والكتابة، وبـذل جهده لينمي ثقافتهـا العامـة، يحمـل لهـا كل حين، ما صـدر من دواوين شـعر ومن مجلات ثقافيـة، لتـزداد رونقـاً وتألقاً بالعلـم والقراءة.

وكانـت الأم ينبـوع المعـارف التاريخيـة، أفادتهـا مـن قراءاتهـا للكثـير مـن الدوريـات والمؤلفـات، وفي مقدمتهـا كتـب جورجـي زيـدان، دون أن تقصر في التنشـئة السـليمة لتكـون سـيدة في دارهـا، وامـرأة لا يشـتمُّ منهـا إلا عبيرهـا المعجـون بالخلـق الحسـن والشـيم الجميلـة.

البيـت الـذي نشـأت فيـه كان عشـاً مـن أعشـاش المحبـة، وحديقـة مـن الحنـان والرحمـة، ولم يكـن للاضطهـاد بـه مـكان، ولا للخـوف والإرهـاب بـه نافـذة، تسـوده المعاملـة العادلـة بينهـا وبـين أخيهـا الذكـر، لا فـرق بينهـما، فكانـت النشـأة بـلا عقـد أو تشـوهات نفسـية، كانت نشـأة رصينـة متزنة، في وسـط يعلـم القـاصي والـداني كيـف يحـب الإنسـان وكيف يكـون صديقـاً له، عـلى اتسـاع الأرض في مـدى مشـارقها ومغاربهـا.

لقـد تـرك الوالـد والأم والأخ والبيـت شـذى في مسـيرة حياتهـا، وبصمـة على جسـدها وروحهـا، وجوهـرة في القلـب تـضيء في الأعـماق كمنـارة بحريـة، وتتذكـر ذلـك فتقـول: «كانـت طفولتـي لوحـة مرسـومة باللـون الأخـضر، وكانـت أحلامـي تتراقـص مع شـجرة الصفصاف، وتغتسـل بمياه البحـر، وتبحر مـع السـفن المبحـرة، هـذه المحطة الأولى هـي محطة الفـرح الحقيقي، حيث

كان كل شيء إما أزرق وإما أخضر، وإما بنفسجياً، أما بقية الألوان الداكنة من أسود ورمادي وكحلي وبني وغامق فلم تكن موجودة في علبة ألواني».

وتذوق الطفلة سعاد مرارة اليتم في سن مبكرة، لتطل من وقتها على عالم المحطات القاسية، كان ذلك عام 1959م، حين ماتت أمها ولحقها والدها في عام 1960م، فتدخل الدروب الوعرة، وقد اختطف الموت الصدر الحنون، ثم يختطف سقف البيت، وهي في السابعة عشرة من عمرها، تقول: «لم أكن أعرف على وجه التحديد ماذا يعني اللون الأسود، اللون الأسود عرفته أول مرة في عام 1960-1959م، حين ماتت أمي ثم لحقها أبي، إنها سنة الحياة».

ربما يكون هذا الفقد في مقدمة الأسباب التي صنعت سعاد الصباح الشاعرة الإنسانة، ذلك أن أجمل الإبداع ما ولد من رحم المعاناة، وأن عناصر الخطوب والشقاء التي تنزل بالمجتمع، وتسبب اضطرابه من العوامل التي تخلق الأدباء، لأن الذين يعانون أشد شعوراً بها من سواهم، فهم ينسحبون بعد ذلك إلى تصويرها ورسم خطوطها، والأحداث تجمع المشاعر والعواطف في الصدور، والأدباء هم الذين يعبرون عنها لينفسوا عن النفوس عناءها، وما بالنا إن كان هذا العناء من جراء أحداث خاصة، وليست عامة[1].

إن من يفرد شراعه للإبحار في موج الطفلة سعاد، أو يفرد مجدافه للسباحة في مياهها، لن يجد إلا طفلة تصافح العيون كنخلة عربية شامخة،

1- سالم عباس خدادة ـ التيار التجديدي في الشعر الكويتي ـ المركز العربي للإعلام ـ الكويت ـ 1989م ـ ص 161.

ترمـي بتمرهـا للقريـب والبعيـد، وعطاؤهـا هـو وسـيلتها للدفـاع عن نفسـها مـن الـزوال والانقـراض، وعطاؤهـا هو الملح الـذي يعطي للحيـاة مذاقاً، فترى مـن عطائهـا أحـلى مائـدة في رحلـة الحياة.

لقـد احتفظـت سـعاد الصبـاح منـذ طفولتهـا بالكثـير مـن الشـيم، بدايـة مـن عـدم السـقوط في فـخ الحريـم الـلاتي يحتمـين في نـون النسـوة، ومـروراً بعـدم السـير في مظاهـر النسـاء، وانتهـاء باحتفاظها بعذوبـة الإخلاص وحلاوة الصـدق وكبريـاء المـرأة التـي يحركهـا عقلهـا الأبي المتمـرد في جـمال ورُقِـيّ وشـجن نبيـل[1].

تقـول: «وُلـدت وفي أعماقـي امـرأة لا تعرف الحـذر أو الخوف أو السـكينة، والتمـرد كان سـمة روحـي، وهـل يـا تُرى خمـد هذا التمـرد الآن؟».

الطفلـة سـعاد سرعـان ما كـبرت لتصبح شـيخة كويتيـة، تشـعر بالفخر لأنها بنـت الكويـت، وتختـال بوصفهـا بدويـة، تتغنـى دائمـاً بالصداقـة وتؤمن بأن الرجـل مهـما سـافر أو رحـل، فهـو يعـود ليسـتريح عـلى صـدر المـرأة، والمـرأة داخلهـا تعلـم جيـداً مفـردات الزمن، ومتى تشـتاق ومتى تحجـم ومتى تقبل ومتـى تتلهـف، كـما تـدرك تماماً في الوقت نفسـه أنـه لا يوجد توقيت شـتوي للمشـاعر أو توقيـت صيفـي للأشـواق، وتـدرك أن الحـب انقـلاب في كيميـاء الجسـد ورفـض شـجاع لروتـين الحياة.

كـبرت سـعاد لتتعلـم كيـف تعامـل الرجـل باحـترام، ولتتعلـم كيـف ومتـى تعلـن ضعفهـا الأنثوي بقـوة، ولتتعلم كيـف تحصن قلبها مـن الإصابة بضربة

1- مفيـد فـوزي ـ سـعاد الصبـاح مفاتيح قلب شـاعرة ـ الهيئـة المصرية العامة للكتـاب ـ القاهرة ـ 2000م ـ ص15.

حـب، وتحصـن جسـدها مـن طعـم الغربـة، وتحصـن ثوبهـا مـن الانشـغال بخيـوط اللهفـة، وكيـف تظـل زهـرة برتقـال، تنـزع مـن معصمهـا أسـاور الخـوف، وتتخطـى بجـرأة تقاليـد العشـيرة، مؤمنـة بـأن الرجـل يعـاني أحيانـاً مـن عقـدة تفـوق المـرأة، وتناديـه: «فيـا مـن تعقّـدك انتصـاراتي، وتكـره أن تـرى حـولي ألـوف المعجبـين، يـا من تخـاف تفوّقـي وتألّقي وتخـاف من عطر الياسـمين، هـل ممكـن أن يكـره الإنسـان عطـر الياسـمين؟».

وتحفـل صـورة سـعاد الشـابة بمفـردات أنوثتهـا وأدواتهـا الخاصـة التـي تسـتخدمها الفتـاة والمـرأة في الزينـة، كالحـلي والدبابيس والأمشـاط والكحل، والقـرط والسـوار، فتنـادي فارسـها: «أيهـا السـيد اخـرج من مـلاءات سريري، مـن رذاذ المـاء ينسـاب عـلى جسـمي صباحاً، مـن دبابيسي وأمشـاطي وكحلي العربي».

سعاد الزوجة

هـي زوجـة الشـيخ عبداللـه المبـارك الصباح رفيقهـا في كل الأزمنـة وحضنها الدافـئ، وهـو الحبيـب الـذي تعلقت بأن يكـون دائماً ملازماً لهـا، وقد أنجبت منـه مـن الذكـور: مبارك الأول (1961 – 1973) ومحمـد ومبارك، ومن الإناث: أمنيـة وشـيماء، والأبنـاء هم حكاية العمـر كله، لا تكفـي الأوراق لكتابتها، ولا تكفـي مسـبحة من ألـف حبة أن تحـصي لحظاتها.

جسّـد الشـيخ عبداللـه المبـارك الصبـاح ديـوان حياتهـا وقصيدتهـا الخاصـة، كان رفيـق العمـر وسـمير الـدرب وزوجها الفـارس، كان فـارس أحلامها وفارس واقعهـا، لم يكـن يفارقهـا أو تفارقـه، فكيـف إذا فارقهـا مـن غير عـودة، ورحل

من غير ردة؟ كان ذلك في عام 1991م، ألا يستحق أن تبكيه وتخاطبه وترثيه: «هـا أنـت ترجـع مثل سـيف متعـب، لتنام في قلـب الكويت أخـيراً»؟[1].

كثـيراً مـا كانـت تفـر إلى صلـوات عينيـه، إلى ذكرياتهـا معـه المنقوشـة في القلـب، تقـف أمـام المـرآة فتتجـلى ملامحـه بـدلاً مـن ملامحهـا، تتمتـم كلاماً كان يردده، ومسـاحات الشـغف به تزداد اتسـاعاً، تدور أفكارها حول رأسـها، كتنـورة حـول خـصر راقـص تـدور معـه كلـما دار، فـلا تجـد حيلـة إلا أن تمـلأ فراغـات الحيـاة بعـده، بالزهـد والتمني.

في الخامـس عـشر مـن سـبتمبر 1960م، توجّت الفتاة سـعاد الصبـاح زوجة لابـن عمهـا الشـيخ عبدالله المبـارك، نائـب حاكـم الكويـت والقائـد العـام للجيـش، وهـي في الصـف الثـاني الثانـوي، كانت صغـيرة، فدخلـت داره بقلب يملـؤه الرضـا، ووجـدت بـين أحضانـه الحنـان والـدفء والسـعادة والوئـام والتفاهـم، والتشـجيع عـلى مواصلـة مسـيرتها العلميـة ونشـاطاتها الثقافيـة، فتحققـت أول أحـلام الصبـا في أن ترتبط برجل فارس شـجاع يشـاركها مسـيرة الحيـاة، بقناعـات هـي قناعاتهـا، وبتحـضّر هـو تحضرهـا، ورقـيّ هـو رقيّهـا، وبأُلفـة ومحبّـة صادقـة تماثـل ألفتهـا ومحبتهـا، إنـه صقـر الخليـج وفـارس الجزيـرة ومصـدر هيبتهـا والوقـار في أرجائهـا.

لم تكـن تنظـر إليـه إلا إكبـاراً وإجـلالاً، وكان في عيونهـا رجلاً مثاليـاً متحضراً، يؤمـن بالعلـم والمعرفـة، وبحـق المـرأة في أن تشـق طريقهـا في الحيـاة عـلى

1- د.أشرف أحمـد حافـظ ـ توظيـف الظواهـر الأسـلوبي ـ مـن رثـاء الزوجـات إلى قصيـدة آخر السـيوف ـ دراسـة مـن كتـاب «يوم الأديـب الكويتي ـ تكريم الشـاعرة الدكتورة سـعاد الصباح تحت شـعار الإبداع في مواكـب الثقافـة العربيـة» ـ جامعـة الكويت ـ كليـة الآداب ـ بـدون تاريخ ـ ص 292.

قدم المساواة مع الرجل، فكان دأبه الوقوف بجانبها من الثانوية العامة إلى البكالوريوس إلى الدكتوراه، ولم يتلصص يوماً على كتاباتها أو يضع خطوطاً حمراء على أفكارها ونشاطاتها وتحركاتها بين الأمسيات والندوات والمؤتمرات، ولا بين الكتب والمقالات والأشعار والقصائد.

كان السند الدافع، والكف الرحيم، والحضن المحتوي، وكان الصديق والزوج والمعلم والسيد والأب الخلوق، وكان النبتة الطيبة التي اجتمعت بها شتى الفضائل، وكان له الدور الأول والأعمق والأكبر في حياتها، والنبراس الذي أضاء لها الآفاق، وكان الدليل والمقام والرحلة، وكان مستقرها حين تقرر الاستواء فوق عرش الراحة والأمان.

كان عاشقاً للشعر بحكم بيئته وحياته، تقول: «لا ننسى أنه قد تربى في الصحراء أولى سنوات عمره، وصحراؤنا غنية بالخيل والشعر، اقتناعه بي ترسخ بعد رثائي لولدنا البِكر مبارك رحمه الله، فقد وجد في قصائدي الذبيحة بعض عزاء روحه المذبوحة، رعاني وحماني وغمرني ببحر من فروسيته ومروءته، ولولا فكره الحر والليبرالي لما أمكنني أن أغرف من بحار المعرفة وأواصل رحلتي الثقافية، إنني أعتبر نفسي محظوظة به، لأنه فارس أصيل ورجل نادر في رجولته والرجال قليل. زوجي الشيخ عبدالله المبارك الصباح كان ولا يزال المنارة التي أضاءت لي الطريق، والصدر الرحيم الذي حماني، والذراع القوية التي شدت أزري، إنه رجل حضاري بكل معنى الكلمة، يؤمن بالعلم والمعرفة وبحق المرأة بأن تشق طريقها على قدم المساواة مع الرجل، وإذا كنت قد وصلت إلى ما وصلت إليه في عالم المعرفة، فلأن عبدالله المبارك الصباح كان وراء مجدي وانتصاري. وجاء

الخنجر الثاني، ليفتح في عمري بوابة عميقة للحزن، في وقت الفرح بالتحرير هاجمني غول الغياب من جديد برحيل صديقي وزوجي ومعلمي الشيخ عبدالله، وترك حياتي شرياناً مفتوحاً لنزف الأحزان، حزني الخاص وحزني العام، حتى إنني لا أعرف الحدود بيني وبين وطني لأنها متداخلة».

وأنشدت مشاعرها الجياشة «آخر السيوف» بكائية ومرثية لحبيب العمر، ورفيق الطريق والفارس البطل، وكأنها صرخة روحين، روح الشيخ الراحل ممزوجة بروحها، ليصبح الشعر شاهداً على هذا الامتزاج الروحي الذي كان له صوت ينطق من الأعماق: «يا أيها النسر المضرج بالأسى، كم كنت في الزمن الرديء صبورا».

تقول: «قصيدة آخر السيوف التي كتبتها رثاء لرفيق العمر الراحل الشيخ عبدالله المبارك الصباح، خصوصية يعرفها كل من اطلع على تجربتي الشعرية بشكل عام، اخترت أن أكتبها وفقاً للنسق العمودي الكلاسيكي، ولم يكن لي اختيار، الشاعر قبل سواه يعرف بالتجربة كيف يهطل مطر القصيدة على الروح، وإذا كان لي أن أفسر، وأنا أعترف بأنني لا أحب تفسير شعري حتى لا أسرق دور الناقد، فربما أن نظرتي إلى عبدالله المبارك كسيف كويتي كانت هي السبب، لقد كان بالنسبة لي جملة من عيون التراث، السيف والخيمة ونار الليل المضيفة للعابرين والمنيرة دروبهم، لذلك ربما ارتدى الحزن عليه عباءة الشعر المعتقة بالطيب. وإذا كان الشعر يستطيع أن يرد بعض الجميل، فإن هذا الديوان هو هديتي إلى الرجل الذي كان خيمتي، ونخلتي وعرّابي على طريق العلم والمعرفة، وقد افتقدت بغيابه جبلاً من الشهامة والفروسية والكرم والحنان الأبوي والمروءات واحترام

المرأة».

ولم تكتف سعاد الزوجة الثكلى بهديتها الأولى، بل قدمت هدية أخرى هي كتاب «صقر الخليج» لتؤكد وفاءها لزوجها الراحل الذي كان له الحضور الأول في معاصرة أحداث جسام من تاريخ الكويت السياسي والاقتصادي والعسكري، وكانت له بصمات بارزة في تشكيلها، إيماناً منها بحق الأجيال المتعاقبة في معرفة تلك الأحداث التي مهّدت لاستقلال الكويت، ولتجعل من رحيله حضوراً دائماً، ولأنها الإنسانة التي تحمل حباً طاهراً مباركاً، لم تخلع من عنقها آية الكرسي واسم الجلالة، تلك الآية التي طوقها بها الشيخ عبدالله منذ ثلاثين عاماً، ولا تزال تحتفظ بها في جيدها كأثمن هدية، لتقوي إيمانها بقضاء الله وقدره.

وبمثل هذه المعاني عاشت سعاد الزوجة على ذكرى زوجها، ولم تفكر مطلقاً في غيره، تقول: «من كان زوجها عبدالله المبارك الصباح وكواكب عمرها فرسانه وصباياه، وبعدما رفلت فيه من إشراقة النور في الظل، وإطلالة المعرفة واحتضان أسرة متماسكة كشجرة، لا يملأ عقلها ولا قلبها الرجال، ولا يليق بها إلا أن تحمل اسمه وحده، إنه الأول والأخير».

وظل الشيخ عبدالله رغم الفراق الطويل ملهمها، تقول: «نعم، هو قلب محتشد بحب قديم، يتجدد بالرؤى وبالانفعال وبالتذكر، كان أول حب لي وسيبقى الوحيد، ولو كان صاحبه قد تركني ذات فجر حزيراني كئيب».

وتصف كلماتها العميقة هذه المرحلة المهمة من عمرها وكيف عاشت بها نبعاً فياضاً لا ينضب، تقول: «بعد زواجي بعام أو أقل من العام، كان علي مرافقة الزوج إلى لبنان، عندما قرر التخلي عن جميع مناصبه

الحكومية، وكان اختياره لبنان طبيعياً، لأن لبنان كان ولا يزال البلد العربي الأقرب إلى روحنا ومزاجنا، والذي تتوافر لنا فيه كل أسباب الراحة، فضلاً عن أن صداقات غالية كانت تربط الشيخ عبدالله المبارك رحمه الله بزعماء لبنان السياسيين وأهل الفكر والقلم، بحيث كانت دارنا على الرملة البيضاء، ديوان الكويت اليومي لكل هؤلاء. زواجي من الصقر عبدالله المبارك كان تحولاً كبيراً في الحياة، فتح لي أبواب الحب والحنان، وشرّع لي أبواب العلم وأطلقني في فضاء الثقافة والمعرفة، مغادرة الكويت إلى لبنان بعد قرار الشيخ عبدالله المبارك اعتزال العمل السياسي كان تحولاً كبيراً، ثم الانتقال إلى القاهرة ولندن بعد ذلك. كلها مراحل حياة، وكل منها كان له لون خاص، ويمكنني أن أسمي كلاً منها بفصل من فصول السنة، فمرحلة تشبه الصيف ومرحلة فيها من تفاصيل الخريف، وأخرى تشبه مفاجآت الشتاء، وذلك لم يكن مفاجئاً في حياتي، فأنا منذ البدء كنت أرتدي معطف العواصف، بيروت وباريس وجنيف، زرت دولاً ومدناً كثيرة، سواء عن رغبة أو إرضاءً وتلبية لدعوة. بيروت التي ذهبت إليها، تعاملت معي كوردة، فتعاملت معها كقصيدة كتبتها شعراً، ورسمتني قوس قزح، باريس تلك المرأة الجميلة التي لا تشيخ، وتجلس تنتظر قدومك دوماً، جنيف مدينة وديعة، وهادئة تشبهني كثيراً، وعلى صفحات بحيرة الليمان كتبت وجعي وأحزاني، وتبقى للكويت نكهتها، فهي الأم والمعطف والملجأ. في صيف 1964م، كنا نقضي الإجازة في باريس حين اتصل الزعيم جمال عبد الناصر بأبي مبارك ودعاه للإقامة في مصر (لأن إقامتك في مصر هي المكان الطبيعي لك يا بو مبارك)، كما قال له عبد الناصر، فانتقلنا بعدها إلى القاهرة، كانت صداقة الشيخ عبدالله مع الرئيس جمال عبد الناصر

والرئيس أنور السادات رحمهما الله، عنصر جذب واستقرار لنا، وكانت هذه العلاقة الخاصة والمتميزة عنصر تشجيع لنا على اختيار جامعتها للدراسة، منصرفة إلى الاقتصاد والعلوم السياسية، بعدما قررت أن الاقتصاد هو حقل العلم الذي يمكن أن يفيد بلدي. بعد القاهرة قررنا الذهاب إلى لندن، كانت الدراسة هي الحافز فالتحقت بجامعة «ساري» حيث تابعت دراستي لنيل شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، وفي هذا الانتقال أضاء عبدالله المبارك عمري بموقفه من رغبتي في متابعة الدراسة، إذ إنه لم يكتف بالموافقة، بل قرر أن يترك القاهرة التي أحب إلى لندن، ليكون عوناً لي وسنداً خلال سنوات الدراسة الجديدة. بعد التخرج عدت إلى الكويت مع زوجي، وعاد الأولاد للدراسة قبل أن يضطروا للسفر من جديد، طلباً للتعليم العالي في الجامعات البريطانية، لقد كان طلب العلم وراء الترحال المستمر، وفي جانب منه كنت حريصة على الوجود مع الأولاد لفترات خلال دراستهم، وهذا ما حملني إلى بريطانيا للإقامة شبه الدائمة، حين كانت كريمتاي أمنية والشيماء تتابعان الدراسة الجامعية، حتى إذا تخرجتا عدت إلى الوطن ممتلئة بفرح القلب، لأن أغراضنا العلمية قد تكللت بالنجاح والحمد لله».

سعاد الأم

لقب أم مبارك هو الاسم المحفور في شرايين العمر، فلا لقب الدكتورة ولا لقب الشاعرة ولا الشيخة ولا الأميرة أحب إليها أو يسمو إلى مقام ما يمثله لقب الأمومة التي تحمل أعظم معاني حياة المرأة في قلبها[1]، كان

1- تقول د.سعاد الصباح ضمن أحد حواراتها: «أعتز بلقب الشيخة في كل وقت لأنه يرمز لنسبي

ابنها البكر مبارك هو فرحتها الأولى، وتاج رأسها الذي انكسر، ولدته في بيتها في عاليه لبنان، في غرفة أعدّت خصيصاً لذلك الحدث الجميل الذي تحول إلى فجيعة، وكان مبارك قصيدتها الأولى، مثل تلك التي سقطت على كتاب الهندسة كأمطار تشرين، فاعشوشبت الأوراق وفاح عطر الكلمات، واستسلم قلبها لدوران الفصول الأربعة وهي تراه أمام عينيها ينمو ويكبر، وتكبر مع الأيام نقرات أنامله، وبين الولادة الأولى على سطح الورق، والولادة البيولوجية مسافة 4 سنوات، هي مدة حمل القصيدة.

عاشت سعاد الأم المحنة الكبرى حين اختطف الموت ولدها مبارك وهو في الصبا، في عام 1973م، في الثالثة عشرة من عمره[1]، وتجسدت مشاعر الأم الثكلى في ديوان «إليك يا ولدي»، وقد صدَّرت هذا الديوان الذي صرفت فيه معظم القصائد إلى رثاء ولدها، بقولها مجسدة مأساتها مع الموت: «إليك يا ولدي، إلى من كان رجلاً رغم طفولة العمر، إلى من كان الأنيس والرفيق والصديق في زمن ندر فيه هؤلاء، إلى من كان مباركاً، وستظل كذلك ذكراه، إلى ولدي وإلى الأمهات اللواتي شابت في عيونهن الدموع، أهدي كلماتي»[2].

وتنبت صور الأمومة لدى سعاد الأم كاستجابة طبيعية لاعتزازها بكينونتها، وممارسة حقها الأصيل في التعبير الصادق عن أحاسيسها ومشاعرها، فنراها

العائلي، وإن لم يكن اللقب الذي أطلبه في تعاملي مع الناس، إذن للآخر أن يختار المناداة ضمن حدود ما يربطني به من وشيجة».

1- د.فوزي عيسى ـ القصيدة أنثى والأنثى قصيدة ـ قراءة في شعر سعاد الصباح ـ دار الجمل للنشر والتوزيع والإعلام ـ القاهرة ـ 2003م ـ ص 138.

2- ديوان إلى ولدي ـ ص 7.

تستجيب لتلك النوازع والمشاعر الدافئة الحارة كأم، بصورة تلقائية دون تكلف أو تصنع، وتستمد قوتها من شعورها بكيانها ووجودها، وتلك مشاعر حقيقية وطبيعية في صدر كل أم وكل امرأة، وتتجلى هذه المشاعر الخالصة على نحو خاص، حين تصف سعاد الأم نفسها في بعض الأبيات، بصورة بالغة الدلالة على نفسية المرأة وطبيعتها التي تتعامل بها كأم مع طفلها.

ومن وقت أن أصبحت سعاد الزوجة أمّاً، ظلت واقفة شامخة بجانب الأبناء تدعمهم وتشد من أزرهم، خاصة بعد رحيل السند والعضد، فبرغم فاجعتها الأسرية برحيل سيفها، حرصت على أن تستمر في حياتها كما كانت محكومة بعلاقات المحبة العميقة والاحترام المزروع في الصدور.

تقول: «نتعامل كمجموعة حضارية إنسانية، نتبادل الرأي والمشورة ونناقش خواطرنا وتصوراتنا في أجواء من الحرية والالتزام الأخلاقي بالقيم التي كانت أساس علاقاتنا الأسرية ولا تزال، أستمع إلى آراء الأولاد والبنات بكل احترام، ويقبلون مني النصيحة كأم وكصديقة حقيقية مسكونة بهمومهم وأحلامهم، ترصد الحياة بمفهوم إنساني».

آمنت سعاد منذ طفولتها بما للأنثى من حقوق وما عليها من واجبات، إذ كان لتربية والدتها أثر كبير في توعيتها كزوجة وأمّ بمسؤوليات بيتها وأسرتها، ولم يكن حرص والديها على تثقيفها حائلاً دون تنشئتها تنشئة متزنة تجمع بين الحنكة والخبرة والمقدرة على العمل والنجاح في إدارة شؤون البيت، وممارسة دور الأمومة وتربية الأولاد وإعدادهم ليخوضوا بدورهم معركة الحياة، مؤمنة بأهمية أن تستند هذه التربية على أسس

ثلاثة: تعاليم الدين الإسلامي، والجيّد من التقاليد والأعراف، والملائم مع ما تقتضيه حضارة العصر وتطوراته.

وتطغى عاطفة الأمومة بداخل سعاد الأم على جميع العواطف الأخرى، وقد ظلت أكثر العلاقات سمواً وعمقاً وعاطفة، وليست هناك عاطفة أخرى داخلها تعادل عاطفة الأمومة، وهي التي تمنح لكل المخلوقات من حولها الحب والسمو والديمومة، وقد انتبهت سعاد الأم مبكراً إلى خطورة الاعتماد على مربية، فلم تعتمد في رعاية شؤون أبنائها الصغيرة والكبيرة على مربية، ولم تستكن إلى ذلك رغم انتشار ظاهرة الاعتماد على المربيات والخادمات في البيوتات الكويتية، موقنة بأن لمسة الأم ونظرة الأم وحنان الأم واهتمام الأم لا يوازيه ما قد تقدمه آلاف الخادمات أو المربيات، كما أن إخلاص الأم في تربية أبنائها لا يساويه إخلاص غيرها من النساء.

وتصرخ سعاد الأم في وجه النساء المترفات اللاتي يتباهين على اختلاف طبقاتهن الاجتماعية في عمى تام عن النفق المظلم الذي يزجّون فيه بأبنائهن، حين يلقين بهم في أحضان المربيات الآسيويات، تقول: «إن استعمار الخادمات المربيات القادمات من جنوب شرق آسيا هو الاستعمار الجديد، الذي لا يقل شراً عن الاستعمار القديم، وليس عمل المرأة وحده هو المسؤول، فالمرأة العاملة لا يسمح لها مرتبها باستخدام مربية، ولكن القضية قضية كسل واسترخاء، من قبل الهامشيات من نسائنا اللائي لا تسمح لهن مواعيدهن مع الكوافير والشوبنج وشاي الضحى وزيارة الصديقات برؤية أولادهن، ولو لمدة خمس دقائق قبل أن ينمن، ليس كل من تضع حملها من بنات حواء تستحق لقب أم، حين تترك أطفالها في

أحضـان العاملات. إن الاسـتعمار كله واحد، سـواء كان جيشـاً مـن المقاتلين أو جيشـاً مـن الخادمـات، والنتيجـة أن اللغـة العربيـة سـتنقرض بعد عقـود، إذا اسـتمر الحـال عـلى مـا هو عليـه، لتحل محلهـا لغة الهنـد أو لغة سـيرلانكا أو لغـة الفليبـين، وكل لغـة وأنتـم طيبـون».

الأمومـة في نظـر سـعاد تعبـير عـن كـمال المـرأة، وعـما يغمـر وجدانهـا من إحسـاس، ومـن هنا يأتي الشـعور بالمسـؤولية تجـاه هؤلاء الأطفـال الذين أراد اللـه أن يكـون رحـم المـرأة مقـر تكوينهم، وإحسـاس الأمومة لدى سـعاد الأم يدفـع دائمـاً إلى الخـوف عـلى أبنائهـا، ويجعـل منهـا نبعـاً متفجراً مـن الحنان والعطـاء والتضحيـة، وقـد تجسـدت هـذه المعـاني في علاقتهـا بأبنائهـا، فـكل منهـم الطفـل المدلـل الـذي تخـاف عليـه، وتضحـي مـن أجلـه، وتسـهر عـلى راحتـه، وتسـقيه مـن حنانها.

وتربـط سـعاد الأم بـين الأمومـة والحـب لأبنائهـا ربطـاً مدهشـاً، مثلها مثل كل أم تفيـض مشـاعرها حبـاً وخوفـاً عـلى طفلهـا، فالحبيـب هـو طفلها الذي تخـاف عليـه فتمـد يدهـا بتلقائيـة، لتضـع شـال الصـوف على رقبتـه وتحرص عـلى إقفـال أزرار معطفـه الجلدي، قبـل أن يخرج إلى الشـارع خوفاً عليه من بـرد الشـتاء، بـل يدفعهـا إحسـاس الأمومة إلى مـا هو أبعد من ذلـك، فتحرص عـلى أن تقـص أظفـاره وتجفـف لـه شـعره وتحمـل له زجاجـة الشـامبو وهو يتحمم .

ثـم إنهـا بهذا الإحسـاس تتغاضى عن ممارسـات طفلها الفوضـوي وأخطائه، فـلا تعاقبـه عـلى الأواني التـي يكسرها، أو السـتائر التي يمزقهـا، أو قطة البيت التـي يناوشـها، أو غـير ذلـك من ألـوان الخراب الجميـل الذي يصنعـه، والذي

يحدثه، فالأمومة تغفر كل أخطاء الطفولة، إن إحساس الأمومة يجعل من سعاد الأم راضية عن طفلها بعاداته وطبائعه، حتى وإن كانت وحشية، وسلوكه الفوضوي المشاغب، وراضية عن كل تصرفاته مهما كانت غرابة أطواره.

تقول: «أنا لا أرسم لأولادي سكة حديد يعبرها قطار حياتهم، كما أشاء، هذا خطأ، أربي الأبناء على احترام أنفسهم، يتمتعون بحرية لا إسراف فيها ولا إمساك، لا أضع على القلوب أقفالاً ولا على الأفكار نقاباً، ارتضيت لها حدوداً يمليها التراث والإيمان».

من هنا لم يكن أحدهم خليفة لها في قرض الشعر أو الاهتمام بأي جنس أدبي آخر، رغم ما يتميز به البيت من مستوى رفيع من الأدب، فمنهم من اختار التخصص في العلوم السياسية والاقتصادية، ومنهم من شق طريقه في العلوم الإدارية والتدبير، وكانوا جميعاً صورة لها تعكس ملمحاً من ملامحها.

تقول: «لقد ربينا أولادنا على احترام النفس، وعلى ضرورة الاختيار لمنحى حياتهم، فهل يعقل أن نفرض عليهم أن يكونوا شعراء، لا أذكر من بين جميع شعراء وشاعرات العالم العربي، من كان أبوه أو أمه من أهل الشعر، إن كل شيء قابل للتوريث إلا الشعر، إن الاهتمام عموماً مسألة شخصية جداً، لا يستطيع أحد أن يفرضها على سواه، ولا يجوز له أن يحاول».

كم هو كلام منطقي وعملي في وقت واحد، إن هندسة عمارة الإحساس والقيم والمبادئ والكلام لدى سعاد كلّ متكامل، لا انفصال بين أجزائها، هي باب واحد وليست عدة أبواب، تتحدث وتفكر وتتعامل بلون أشجار

الـروح وتقنيـة السـلم الموسـيقي، وهـي في حالة صيـد دائمة للمعـاني المبتكرة والاسـتعارات الجديـدة، لا تعبـأ بالحصون التي تسـتر الجنود عن أعين المسـاء، فنشـعر معهـا بأننـا أمـام نزيـف روح عاشـقة، تراهـن عـلى المبـدأ والقناعات الفكريـة السـليمة، وعـلى مـدن الأفـكار التـي سـقطت بفعـل الخيانـة، حتـى وإن تعـددت الـرؤى، أو كـما يقـول بورخيـس: «تتعـدد رؤاهـا وموضوعاتهـا لكنهـا تظـل دائمـاً كعملـة ذات وجهـين لا تصـدأ، لترتيـب تفاصيل تلـك الرؤى وتلـك الموضوعـات، إذ تنطلـق في النهايـة مـن كيـان عضوي وحيـد حي ومثير للدهشـة وشهي».

تقـول عـن حياتهـا كأم: «شـأن كل أم مسـؤولة عـن بيـت وأبنـاء وبنـات وحفـدة، شـأن كل إنسـانة حملتهـا أقدارهـا مسـؤولية التصـدي للشـأن العام والإسـهام في تخفيـف عذابات الآخرين، شـأن كل صاحبـة حلم، تحمل همومه أمـلاً في أن يتحقـق، في غـير ذلـك أنـا امـرأة عادية مثـل كل امرأة، وليسـت في حيـاتي زخرفـات ولا وقـت للضيـاع أو اللهـو، برنامـج حيـاتي اليومـي طبيعـي ويتـوزع بـين متابعـة دراسـة الأولاد، أيـام كانـوا يتابعـون التحصيـل العلمـي، وانتقلـت هـذه المتابعـة إلى الأحفـاد الذيـن تشـغلني دائمـاً أحوالهـم الصحية وحاجاتهـم اليوميـة. أيضـاً هنـاك الواجبـات الاجتماعيـة التـي أتحملها بحكم واقعـي الاجتماعـي، ولكننـي لا أتـرك لـكل هـذه أن تشـغلني عـن الاهتـمام اليومـي بشـؤون الديـرة، وبالشـأن الثقـافي ومـا يـدور على سـاحته».

وهكـذا ظلـت الأمومـة لـدى سـعاد الصبـاح وثيقـة التأمـين ضـد شـيخوخة الحيـاة وجفـاف الشـجر والبـشر، والصحيفـة التـي تقرؤهـا يوميـاً لتطالع عبر سـطورها سـكنات وحركات أولادها وفلـذات أكبادها، والخريطـة التي تتحرك

ضمـن حدودهـا، والأمـل في أن تـرى تلاً صغـيراً من الحياة ينمـو ويكبر، فتزهر الـورود وتنبـت الأشـجار ويـزداد الكون إعـماراً وضياء وشمسـاً وقمـراً منيراً.

سعاد الحماة

جميعنـا حـين نصـل إلى تلـك المرحلـة مـن العمـر، يصبـح قصرنـا كالبيـت الأبيـض الـذي ينطلق منه الحكـم، بناء أنيق داخلي مطـلي باللون الأبيض يقع في قلـب حديقـة، يـروق لنا أن نتمشى فيـه كلما أخذتنا الذكريـات وعادت بنا إلى مناطـق العمـر الجميـل، حيـث المقعـد الذي نشـعر فيـه بالراحـة والألفة مـع مـن حولنـا، وحيـث علاقتنا بالأشـياء قائمـة على العِـشْرة، وحيـث الهاتف المحمـول الـذي لا يفـارق يدنا، والنظـارة الطبية التي لا تفـارق أعيننا، وحزمة الأوراق والأقـلام التـي تسـتريح بـين أصابعنـا، حـين نكتـب، وحيـث رومـوت كنـترول المحطـات الفضائيـة المضبوطـة عـلى نـشرات الأخبـار دائمـاً، وحيـث دقـة المواعيـد المدونـة في دفـتر الأعـمال والمقابـلات، وحيث فنجـان القهوة أو الشـاي الـذي رشـفنا منه رشـفة أو رشـفتين ثم نسـيناه.

إنهـا صـورة الحكمـة وخـبرة العمـر لـدى سـعاد الحـماة والجـدة، تحيطهـا هالـة مـن الوقـار، وبداخلهـا رتـوش تعـبر عـن التفاصيـل الصغـيرة، فهـي لا تهـرب مـن الـرد عـلى أي مكالمـة هاتفيـة، ولديهـا طريقـة هادئـة للاعتـذار، ولا تبـذل جهـداً عصبيـاً في إقنـاع أحـد، ذلـك لأنهـا آمنـت أن المنطـق الهـادئ يحمـل بـين جوانبـه الصـدق، بينـما الانفعـال عـالي النـبرة يخفي بـين جوانحه فـراغ المصداقيـة.

وبعـد أن كانـت أمومـة سـعاد لوحة فنيـة نصفها قلق، حيث تتصـل بأبنائها

المسافرين لتطمئن عليهم وتتابع أخبارهم وتوجههم لما فيه صلاح الحال، وتظل أجمل أعيادها حين يجتمعون بين يديها ثانية، فإن لوحتها الفنية وهي حماة وجدة، ترسم ظلالها الوحدة أحياناً، وتباغتها أحياناً أخرى، الأخبار والصراعات والمشاحنات عبر الشاشات، فها هي أسلحة الدمار الشامل، وها هي منشآت النواة النشطة، وها هي السيارات المفخخة في كل مكان، وها هي الطوائف والأشياع، وها هي جثث القتلى من الأبرياء، تقول: «أكره ذلك الصمت الذي يمشي في جنبات البيت حين أعود بعد أن أودع أولادي وأحفادي في المطار، أود لو يأخذني اهتمام ما، ينتشلني ويأخذ انتباهي ويلتهم ذلك الصمت الموحش».

وتأخذ سعاد الجدة بيد الصبر على ما تأتي به الأيام، من ملامح حياة تغيرت كثيراً عما مضى من العمر، وحين تتحدث في موضوع ما، تفضل أن تُخْرِس رنين الهاتف، وحين تعمل عملاً ما، فهي من ذلك النوع الذي يعمل عملاً واحداً في وقت واحد، ولا تحب التشتيت، ذلك يشعرها بنوع من السكينة مع الحياة.

ومثلما كانت لها لغة أنيقة في النثر، ولغة في الشعر أكثر أناقة، كانت لها لغة في الحياة لا تقل أناقة، خاصة حين البوح والفضفضة مع القهوة المرة والصراحة والقلب المفتوح، هي دائماً قائمة في محرابها تصلي بالكلمات الناطقة حكمة وعلماً، وهي دائماً تقف على أرض الحقيقة، دون مواربة ودون مجاملة، لا تخشى أن تتحول كلماتها إلى نقوش على وجه الماء، ولا تخشى أن يضبطوها متلبسة بقراءة صحف هوميروس، ولا تخشى أن تحس التعب، حين تعلن أنها سئمت الحكايات، وسئمت قراءة الروايات، عن

الحسناوات الواقعات في غرام المناضلين من مختلف الجنسيات.

تقول: «إنني أعيش بما أعتقد أنه الحقيقة، ولا أتوقع أن يكون كل الناس متشابهين كأسنان المشط، فلكل إنسان تكوينه العقلي والثقافي ومستواه الذهني وجذوره العائلية، إننا حين نكتب لا نعرف من سيكون معنا ومن سيكون ضدنا، ومن سيرمينا بالورد ومن سيرمينا بالحجارة، وقد علمتني الحياة أن نستمر حتى يأتي الموت على أوراق الدفاتر. لقد تعرض جميع الأنبياء للأذى لأنهم قالوا الحقيقة، وتعرّض كثير من الفلاسفة والمفكرين للتعذيب والتصفية، لأنهم وقفوا إلى جانب الإنسان، هذه هي الضريبة، دفعها ألوف قبلي وأنا أسددها اليوم بمنتهى الرضا والسعادة وراحة النفس، ولا أفكر مطلقاً بمن يزرعون في طريقي المسامير، أو بمن يغرزون أسنانهم في لحمي، فالطبائع البشرية مختلفة، وإرضاء الناس، كل الناس، مهمة مستحيلة».

تخلصت سعاد الحماة من كل التقاليد البالية التي أرست العديد من السلبيات التي تشوب علاقة الأم بزوجة الابن، وفي مقدمتها الشنآن بين الاثنتين وكأنهما تتنافسان على تملك الابن الزوج، حيث تعمل كل واحدة منهما على أن تنتصر على الأخرى في حرب باردة أحياناً، وحامية أحياناً أخرى، لتفوز به.

وحين تمردت على تلك التقاليد كرست الحب الحقيقي بينها وبين زوجة الابن، وقد سلكت في ذلك نهج جدتها من أبيها في معاملتها لوالدتها، حيث كانت تعاملها كابنة من أبنائها، وليست زوجة لابنها بالمعنى التقليدي الذي يسود المجتمع، وتؤكد ذلك: «لم تكن جدتي حماة لأمي، وإنما كانت

أمّاً لها، وكذلك أنا، فزوجة ابني هي ابنتي الثالثة، مع أمنية وشيماء».

سعاد الحماة كانت تحيا حبها الحقيقي لزوجة ابنها، في أنفاسها وفي حركاتها وسكناتها، تشاركها كل مشاهد الحياة، وكيف لا تكون كذلك وهي الشاعرة الرقيقة التي تتنفس الحب، مؤمنة بأن الحب في الكون وفي الوجود -كما يرى عالم النفس فرويد- نواة كل نشاط إنساني، بل هو كل شيء في كيمياء النفس والجسد، وهو فتنة الكون وعنوان الاكتمال.

ظلت علاقة سعاد الحماة بزوجة ابنها علاقة مثالية تجتاز كل العوائق، تنتصر على الزمن، تلغي كل علامات الاستفهام والتعجب المرسومة على وجوه الآخرين، حين يرون تصرفاتها المثالية مع زوجة ابنها، كانت تلك العلاقة تؤسس قواعد جديدة بين الحماة وزوجة الابن، وتفيض بأبجدية جديدة، وبعاطفة يراها الآخرون عاطفة العاطفة، وخيال الخيال، وحقيقة الحقيقة، إذ لا تصنُّع في شيء، ولا مجاملة ولا مبالغة، ولا عساكر ولا قضاة ولا شهداء ولا محاصرين، لا شيء ينبت كل صباح سوى زهر الياسمين.

ورثّت سعاد الحماة أيضاً لزوجة الابن تقاليد تلك العلاقة المثالية، لتُعلِّمها لأحفادها، وقد ورثت بذلك الباب الذهبي لتلك العمارة التي تتوارثها فتيات العائلة جيلاً بعد جيل، لتصبح تقاليد معبرة عن علاقة مثالية عابرة للأزمان، لا يمكن للزمن أن يمحوها، أو تندثر مع الأحداث الجسام، ولتظل ساكنة في دم الإنسان، في أفكاره وقناعاته.

إنه الحب الساكن في الوجدان، وجدان سعاد منذ أن صافحت وجه الحياة، وقد ظلت تعبر عنه مع كل نفَس في الحياة، في القصيدة حين تهتز بإيقاع الحياة، وقد كانت كل قصيدة لحظة حب، ولحن حب، ونزيف حب،

حتى لو كانت مرثية تحفر أنفاس المنتحبين، أو ترسم وجع الموجوعين، كانت القصيدة وتراً حين يتوهج القلب بالحنين، كانت القصيدة موجاً عظيماً حين تغرورق العيون بالدموع، كانت القصيدة جسراً إلى النجاة حين يحيا الفكر لحظات الغموض أو الانكشاف أو البعد والقرب أو العتامة أو الشفافية.

إنه الحب الذي ظل يعشش داخلها، يعيد لها ذكرى فرح استقرت في قلب مرتجف، أو يعيد لها ذكرى جرح نام في صدر ملتاع، أو يعيد لها لحظة خشوع لصلاة الروح، المتماهية مع المتخيل في عوالم السر المقدس، أو يعيد لها يقيناً وجد ليبين مدى قوتها على المعاناة والاحتمال[1]، ولا نهاية للحب في قلب سعاد الحماة، هي تنطلق منه وتبني عليه، وتستمد منه قوتها، وتغالب به ضعفها، وهو الأساس الذي تستقيم فوقه كل الأشياء، الحب وشم على جبهتها، زورق للنجاة من العذاب، من أجل الآخرين، ألم يقل فورنييه: «من يحب كثيراً، يعذب كثيراً»؟ تقول: «إن أحزان الآخرين هي حزن شخصي لي، وقد تحملت وسوف أتحمل العذاب من أجل الآخرين، لأشعر بالسعادة فقط حين أستطيع تقديم عون ما يخفف شقاء هؤلاء»، وظلت سعاد متمسكة بهدفها الأسمى، أن تزرع بذرة الحب في كل مكان، وأن تقتسم الدمعة والضحكة مع الناس، فما أجمل أن يعيش الإنسان من أجل إسعاد الآخرين.

1- تعبير للمفكر هيرمان هسه.

سعاد الجدة

وتفتحت بذرة الأبناء عن البراعم وأصبحت سعاد جدة، واحتل الأحفاد في قلبها مكاناً متميزاً، فدبّت في الكون حياة جديدة تحفها الأفراح وتحيطها السعادة والآمال، كما ولدت في سعاد شخصية جديدة تجعل منها امرأة أخرى، لا تعرف الرصانة والوقار فقط، بل تعرف المرح لتدخل السعادة على نفوس أحفادها، وتعود معهم كأنها طفلة، فتتحرر من عالمها الذي يقتضيه وضعها كأميرة ومثقفة وشاعرة ومفكرة وسيدة أعمال وعالمة اقتصاد وباحثة وربّة أسرة.

تطير مع أحفادها إلى عالم الطفولة البريئة وترفرف بجناحين خفيفين، كريشة تداعب الريح، تميل معه حيث مال، وتحط به حيث أراد، تمارس براءة طفولتها من جديد، كما في الشعر والفن والإبداع والكلمات، تهرب من الصيغ والقواميس، فتصبح بعودتها إلى طفولتها كالكلمات، زاخرة بأكثر مما تعد، وتشير إلى أكثر مما نقول[1]، تقول: «مع أحفادي أعلق رصانتي وهدوئي وشخصيتي على الباب قبل أن أدخل عليهم».

وما أقسى أن تحيا سعاد الجدة في قلق، خوفاً على فلذات أكبادها، فتذرف الدموع حين تسمع صوت أحد أبنائها أو أحفادها عبر الهاتف وهم على سفر، يتهدج صوتها بالشجن، ولا تحتمل البقاء في مكانها حين تعرف أن مرضاً قد أصاب أحدهم، ولا يفارقها الإحساس بأن أبناءها وأحفادها امتداد لزوجها الراحل، وقد ظل الشيخ عبدالله المبارك رحمه الله موجوداً في ولديه: محمد الذي أخذ الكثير من طباع والده، ومبارك

1- كما يقول أدونيس.

الـذي يـكاد يكـون هـو حـين يقبـل أو يتحـرك، تقـول: «حـين يقبـل أو يتحرك تحسـبونه عبدالله المبـارك».

وتتعـدد المواقـف وتمـر الأحـداث وتسـتمر الحيـاة، وتظـل سـعاد الحـماة والجـدة هـي ربـان السـفينة، تحتكـم إلى العقـل والحكمـة في إدارة البيـت، وتسـتند إلى المنطـق واليقظـة الكاملـة في إدارة الأسرة، تتحمـل عـبء القيـام بـدور الأب والأم معـاً، في آن واحـد، تصنـع من البيت برلمانـاً مصغراً لا يتجاوز التقاليـد التـي اسـتقرت، حيـث المشـورة في اتخـاذ القـرار الصحيـح، وحيـث تصـان حريـة كل فـرد، وحيـث احترام الـرأي والرأي الآخر، وحيـث احترام كبير السـن، والاسـتفادة مـن تجربتـه الحياتيـة التـي تتجـلى بهـا صـواب الرؤية.

وبهـذا حافظـت سـعاد عـلى كيـان أسرتهـا مـن السـقوط والانهيـار، تقـف ثابتـة القدمـين في صمـود وشـموخ، مؤمنـة بأنـه: «في وقـت الشـدائد تنهـار الحـدود بـين الرجولـة والأنوثـة، فتصبـح المـرأة رجـلاً، ويصبـح الرجـل امـرأة، دفاعـاً عـن غريـزة حفـظ البقـاء، حتـى تصل السـفينة إلى شـاطئ السـلام»[1].

ومـا أجملهـا أمنيـة، وقـد ظلـت سـعاد الصبـاح متعلقـة بـأن تـرى سـنابل البيـت تعطـي قمحـاً وتتكاثـر، يكـبر أحفادهـا يومـاً بعـد يـوم أمـام ناظريها، كأنهـم أغصـان تنمـو، وهـي ترويهـم كل يـوم، تهتـز لهـم أوتار المشـاعر وهم ينافسـون آباءهـم في إبـداء الـرأي، وفي اتخـاذ القـرار، وفي التطلـع إلى تحقيـق الطموحـات والآمـال، في جـد وصـبر وعزيمة وإصرار، تقول: «مع سـعاد الجدة، هـذه الكلمـة التـي تشـقي كثـيرات ويتهربـن منهـا، لله كـم رائعة هـي لفظاً وحيـاة، ليسـت عنـدي الكلـمات التـي تكفـي للتعبير عـن صباح يبـدأ بالتأكد

1- من كلمات الدكتورة سعاد الصباح.

مـن أن هـذا الحفيـد أو تلـك الحفيـدة قـد أكملـت هندامهـا للذهـاب إلى المدرسـة، هـل مشـطت شـعرها؟ هـل تناولـت الفطـور؟ كل واحـد يسـتكمل اسـتعداده وأنـا أحمـل قلبـي وأهـرول مسـتحثة التعجيـل حتى يكـون الأولاد في المدرسـة، في الوقـت المحـدد لهـم. وحـين يجـيء موعـد العودة يبـدأ يومي الحقيقـي إذ أتفـرغ لمتابعتهـم ومـن بعدها كتابـة الوظائف المدرسـية ويحين بعدهـا موعد الراحة، ليليه موسـم التسـلية والركض في البيـت، وأكون صادقة عندمـا أقـول إننـي اسـتعدت ثلاثين عاماً مـن العمر، ومن يـزورني ويرى كيف يدخـل عـلي هـذا الحفيـد أو هـذه الحفيـدة ليشـكو أمـراً أو ليطلبـه، يعـرف كيـف تسـتطيع الأحـرف المتناثـرة كالكلـمات المتقاطعـة أن تجـدد العمـر، الأم يتقلـص دورهـا في هـذه المرحلـة فـالأولاد قـد كـبروا والحمـد للـه، ولـكل منهـم، الشـباب والصبايـا، عالمه واهتماماتـه، وعندما يستشـعرون الحاجة إلى النصيحـة أعطيهـا دون أمر».

الوجه الثاني.. الشاعرة

الشـعر نبـع فيـاض من تجارب الإنسـان، بلغة سـامية، يعرض حياة الإنسـان ومنجزاتـه برقـي إبداعـي خـلاق وسـمو خالـد، ويظـل دومـاً مـرآة تعكـس ما يمـر بـه الإنسـان مـن نجـاح وفشـل، وتطـور وتعـثر، وتقـدم وتوقـف، واصفـاً المجتمـع الإنسـاني برمّتـه في كل زمـان ومـكان، من بـداوة وحضـارة، ومن قوة وضعـف، وقـد امتـدت حركـة البحـث عـن أصـول الشـعر وتقنياتـه ومـا آل إليـه، لتصبـح مـن أهـم الموضوعـات في أدبنـا الحديـث، وقـد تعـددت أنـواع تلـك الدراسـات، فمنهـا ما يبحـث في أصول البحور الشـعرية وعلـم العروض، ومنهـا مـا يتنـاول المعالجات الشـعرية والموضوعـات التي يـدور حولها، ومنها

مـا يناقـش المسرح الشـعري بمـا يتضمنه من عـالم زاخر بالقضايـا والمعالجات، إلى غـير ذلـك مـن الدراسـات التـي تثبـت كل يـوم أن الشـعر يسـير في طريق التطـور مـع كـثرة الشـعراء الذيـن يكتبـون بـه ويتفاعلـون معـه، الأمـر الـذي يؤكـد مـن بـاب آخر، أن الشـعر لن يندثر كـما يظن هؤلاء الذيـن يرددون إن الروايـة هـي ديـوان العـرب الآن، بعد أن سـحبت البسـاط من الشـعر.

وتعد سعاد الصباح من أبرز الأصوات الشعرية النسائية في عصرنا، وأكثرها بريقاً وتوهجاً، وهي صوت شعري متفرد يختلف عما عهدناه في الشعر النسائي، صوت نضالي يتسم بالجرأة واختراق المألوف من المضامين والأساليب والصور واللغة الشعرية، ولم يختلف أحد حول أن شعر سعاد الصباح يمثل لوناً جديداً من الشعر لم يألفه القارئ من قبل، يحمل نكهة جديدة لم نتذوقها في شعرنا العربي المعاصر، وتأتي هذه النكهة من أنه يقوم على السرد والغنائية، حيث إن السرد يدخل عالم الحكاية في البناء الشعري، والغنائية تجعل الشعر هو المسيطر الأول على الموضوع وليس بناؤه الفني، نعم لقد كتبت القصة في كل قصيدة وتناولت مختلف قضايا الحياة والإنسان والمرأة، والقوانين سواء قوانين الأحوال الشخصية وتعدد الزوجات وحقوق المرأة والطفل والأقليات وهموم الوطن وكل الأوطان وكل قضايا المجتمع.

وقد أجمعت الكتابات والدراسات النقدية التي تناولت سعاد الصباح كشاعرة -على كثرتها- أنها بكل المقاييس تمثل ظاهرة شعرية تغري بالبحث والقراءة، وتجتذب القارئ والناقد معاً، فهي لم تستغرق تجربتها الشعرية في تهويمات رومانسية شأن معظم الشاعرات، بل اختارت أن تسبح ضد التيار وتواجه العواصف، فانطلقت بشعرها كالشلال الهادر أو السيل العرم، لتجرف

عالماً غريباً من العادات المتحجرة، وتقوض الأنساق الاجتماعية الهشة، وتجاهر بما لم تستطع شاعرة عربية أخرى أن تجاهر به.

هي المرأة المناضلة الأبية وهي شاعرة الثورة والحكمة والفن وهي الشاعرة المهمومة بالوطن، كان بوسعها مثل جميع نساء الأرض مغازلة المرأة، وأن ترسم كحل البنات في القصائد، كان بوسعها أن تتجمل وأن تتكحل وأن تتدلل بالكلمات، وأن تتمدد تحت الشمس وأن ترقص فوق الموج، وكان بوسعها أن تظل فوق فراشها الوثير تتصفح المجلات التافهة، وتثرثر في الهاتف دون أن تعير وطنها أي اهتمام، أو تتعرض لمشكلات الأقوام، وتتمتع بالراحة على مدى تعاقب الليالي والأيام، لكنها لم تكن كذلك.

فرضت سعاد الصباح وجودها كشاعرة بقوة وموهبة حقيقية، ومازجت بانسجام بين روحها وإبداعها الشعري المتميز وبين مقدرتها الاقتصادية والسياسية، أي بين الفعل الثقافي والإبداعي والمشاركة الاجتماعية والسياسية، ولم تتوقف في نسجها الشعري والإبداعي عند حدود القديم، بل أنتجت بمشاعرها وحروفها الإبداعية على مذاهب الأدب الحديث، ما يواكب عصر السرعة والتكنولوجيا، وعصر العبارات الموجزة السريعة، والكلمات المحدودة غزيرة المعنى، وقد حفلت كلماتها بالتنوع وتعدد المضامين والقضايا، وتميز طرحها بالنفَس الهادئ الذي تعودنا عليه في كل إنتاجها الشعري ومنجزها الإبداعي، تقول: «كان الشعر منّة الله عليّ، ولم أطارده بقدر ما كانت حياتي ضحية رائعة لعطائه، كان الشعر وسيبقى نافذة روحي على الدنيا، ومنتشلي من غبار العذاب»[1].

1- علي المسعودي ـ سعاد الصباح ـ حمامة السلام ـ حوارات معها ـ المختلف للطباعة والنشر ـ

رحلة نشر القصائد

بـدأت سـعاد الصبـاح النشر -كما هو معـروف- في عـام 1964م، ومنذ ذلك الحـين وهـي مهمومـة بـكل ما قدمتـه مـن دواوين إبداعيـة، أو كتـب بحثية ودراسـية، بمـا يعكـس انشـغالها بقضايـا وطنهـا وأمتها والإنسـان والإنسـانية، في كل زمـان ومـكان، دون أن تهمـل الحديـث عـن محيطهـا القريـب كالابـن والـزوج والحبيـب، معـبرة عن بنات جنسـها ومـا يعانيه عالمهن مـن إخفاقات ونجاحـات، كأم وزوجـة وابنـة وأخـت، وكانـت في كل مـا طرحتـه مـن قضايـا واضحـة صاحبـة موقـف، ولم تكـن تـدور حول الأسـئلة بـلا إجابـات، أو تفجر براكـين الأسـئلة مـن أجـل حفنـة كلـمات من مـدح وإطـراء، أو تزيـن الأماكن بالأغنيـات، بـل كانت ترسـم الفـردوس للمتعبين والبائسـين والعابثـين، وتفتح السـجون داخلهم بالحنـين والورود والأمنيات، وتلون النفـوس بأجمل الألوان.

كتبـت سـعاد الصبـاح قصائدها على نسـق شـعر التفعيلة الـذي اعتادت أن تكتـب بـه، وبخاصـة في السـنوات الأخـيرة مـن عمـر إنتاجها الشـعري، ليكون شـعرها يسـيراً، بـل وربمـا وصلـت في يـسر الكتابـة إلى مـا هـو أبعد مـن ذلك، حـين جعلـت مقطوعاتها الشـعرية تحاكي طريقـة مواقع التواصـل الاجتماعي في الكتابـة الحديثـة، القائمـة عـلى الكلـمات المقتضبة، لكنها بـين الحين والآخر كانـت تنتقـل بـين الشـعر العمـودي التقليـدي والشـعر الحـر الحديـث بـكل سـهولة ويـسر، وحرصـت عـلى أن تبـث رؤيتهـا التـي تؤمـن بهـا، وأفكارهـا التـي تشـعر بإيجابيتهـا عـبر القصائـد، تقول: «للـماء لون واحد هو لـون الماء، للـماء طعـم واحـد هـو طعـم المـاء، وللـماء رائحـة واحـدة هـي رائحـة الماء،

الكويت ـ 2000م ـ ص 19.

مـن قـال إنـه لا لـون ولا طعـم ولا رائحـة للـماء؟ المـاء مولـود في بحـر، أما أنا فقـد ولـدت في وطـن يشـكل المـاء فيـه أمنيـة ونشـيد حلـم، لذلك فـإن للماء عنـدي، لونـاً وطعـماً ورائحـة واحـدة هـي للشـعر وحـده، قـد تتغـير الـكأس التـي تلـم حبـات الماء، وتتغـير الصيغة التي تلـم كلماتي، ولكن المـاء يبقى هو المـاء والشـعر هـو الشـعر، لعل مـن الطيب أن أذكـر أن واحدة مـن أجمل ما كتبـت مـن القصائـد، كانـت (آخـر السـيوف)، بعـد (في البـدء كانـت الأنثى)، وكانـت قصيـدة عموديـة، دعونـا من النهايـات، المهم الشـعر».

وقـد اسـتوعبت سـعاد الصبـاح عـلى هـذا النحـو قصيـدة التفعيلـة حـين بـدت الأكـثر قـدرة عـلى التعبـير عـن الهواجـس الشـعرية، جعلـت سـفنها ترسـو بشـكل نهـائي عـلى شـواطئها واختارتهـا عـن سـابق إصرار، بعدمـا مرت بالقصيـدة العموديـة وجربت قصيـدة النثر، وتقول: «ذلـك بالتأكيد هو التأثر بالعـام وبالخـاص، لقـد طفـت قصيـدة التفعيلة شـكلاً مثـيراً وجديـداً للكلمة الشـعرية، متناسـبة مـع حركـة الثقافة الذاتيـة، ومع التحوّل الـذي لا مفرّ منه لمـن يعايـش تجـارب الآخريـن، فيأخـذ منهـا ويأخذون منـه، إن هـذا التفاعل كان حتميـاً في تجربـة مئـات الشـعراء العرب ولايزال فاعـلاً في غالبية مبدعيه، لاتّسـاقه مـع التمـوّج الداخلي للشـاعر».

وكانـت سـعاد الصبـاح تنظـر في الوقـت نفسـه لإنجـازات قصيـدة النثر على الصعيـد العـربي، خاصـة أنهـا صـارت الخيـار المفضـل لأكـثر الشـعراء العـرب في السـنوات الأخـيرة، بأنهـا ليسـت الإنجـاز الأكـبر، في الوقـت الـذي كـثر فيـه التسـاؤل حـول قـدرة قصيـدة النثر عـلى إلغاء بقية الأشـكال الأخـرى، وتقول: «فلنتفـق عـلى الاختـلاف لأننـي لا أرى أن قصيـدة النـثر قـد صـارت الخيـار

المفضل لأكثر الشعراء العرب في السنوات الأخيرة، وطبيعي القول إنها قد حققت موقفاً متقدماً جداً عمّا كانت عليه في بداياتها في الستينيات، ولكن قصيدة التفعيلة والقصيدة العمودية لا تزالان خياراً عريضاً فيما نقرؤه، أقول ذلك وأنا واحدة من صاحبات الصوت الشعري في قصيدة النثر، وديواني (قصائد حب)، وفيه أودعت دفقات غالية من الشعر، ولكنها لم تكن التزاماً نهائياً».

لقد تربى وجدان سعاد الصباح على أشعار شيللي وكيتس وردروث وكولوروج وعلى السياب وأدونيس والبياتي وغيرهم، كما اقتطفت من بساتين صلاح عبد الصبور ونزار قباني وأحمد حسن الزيات وأحمد زكي أبو شادي وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي، مؤمنة بأن الشعر لا يحيا معزولاً عن المجتمع، بل هو كائن معجون بالسياسة والمجتمع والاقتصاد والعلم والمعرفة والتكنولوجيا، وعبر إيمانها بهذا جمعت بين يديها الشعر والاقتصاد والسياسة، وجمعت في مخزونها الفكري والإبداعي العديد من المعاني التي ترى أن الشعر يجب أن تكون له وظيفة اجتماعية، وليس فقط للتسلية والإطراب خلال جلسات الديوانيات أو الأمسيات، ولذلك كان شعرها ثمرة جهد كبير في معالجة الموضوعات والقضايا، ويمثل نجاحاً فنياً بقدر ما يمثل نجاحاً شعرياً مواكباً لطبيعة العصر الذي تعيشه، ونسمعها تقول: «أريد أن أعيش عصري، لا عصر لامارتين ودموسيه ومصطفى لطفي المنفلوطي».

ويظل الهدف من كتابتها للشعر هو التغيير، وإعلاء قيمة التطوير الإيجابي للمجتمع بالكلمة، مرددة دائماً: «إن الشاعر الحقيقي لا يحسب

حساب الأرصاد الجوية، ولا يسمع نشرات الطقس التي يذيعها التليفزيون، بل يمشي في الغابة تحت المطر والبرق وعويل العاصفة، ولا يخاف على وجهه وأصابعه من الاحتراق».

الشعر هو مواجهة بالسلاح الأبيض، ومعركة من أجل التغيير، وأقدام تسير على سطح من الصفيح الساخن، تقول: «إن كل كلمة جديدة وشُجاعة تكسر عادة من العادات البالية، أو قناعة مضلِّلة من القناعات، أو خرافة من الخرافات، فإذا صرخ المتضررون في وجهي، فإنني أعطيهم العذر، لأن كل الأشياء المكسورة تتوجع. وفي العالم الثالث الذي ولدنا فيه وسنموت فيه، تصبح كتابة الشعر جنوناً وعملاً انتحارياً، لأن الشاعر لكي يقطع النهر الكبير، عليه أن يواجه ألوف التماسيح المتربصة، وألوف التيارات المائية، التي تبتلع الإنسان، وتشده إلى القاع، ولو أن الشاعر فكّر بالمعارضة والمعارضين قبل أن يكتب قصيدة، فلن يكتب شيئاً أبداً طوال حياته. وأحسن شيء يفعله الشاعر هو أن يكتب شعراً، هذه هي مهمته الأساسية، وليس من مهمته أن يشرح مضامين أو أهداف ما يكتب، وليس من مهمته أن يفسر أو يعلل أو ينظر، لذلك فإن كل الأسئلة وكل الأجوبة حول الشعر تبدو هوامش على جوهر الشعر».

وآمنت سعاد الصباح أيضاً بأنه إذا كان النقاد قد اتخذوا من تحليل الشعر وتنظيره حرفة يرتزقون منها، فإن الشاعر ليس مضطراً أن يدخل طرفاً في أي جدل يقوم حول الشعر، ذلك لأن الشاعر عصفور يغني، وليس من مهمة العصافير أن تشرح كيف تكتب النوتة الموسيقية، وتكتب سعاد الصباح كلمتها المبدعة، فتشعر أنها تصاحب إلفة اللغة، ولا تتنازل عن

الحـزن العميـق، وتقـول: «هنـاك رابط بـين الجانبـين، الحزن والمعانـاة والقلق هـي المـواد الأوليـة لأي شـاعر عـربي، فالمـرأة في العـالم الثالث تولـد في قارورة الأحـزان، وتكتـب في قـارورة الأحـزان وتمـوت في قـارورة الأحـزان، وأنـا لسـت اسـتثناء بـين نسـاء المنطقـة. فكل الآفـاق مسـدودة، وكل النوافـذ مقفلة وكل الامتيـازات ذكوريـة، فـإذا كتبـت المـرأة قلقهـا وحزنهـا وصراخهـا، فهـي شيء بمنتهـى البداهـة، وأنـا منذ أول مجموعة شـعرية (أمنية) حتـى آخر مجموعة أسـكن عـلى ضفـاف جـرح، وأعتقـد أن هـذا مـكان الشـاعرة الطبيعـي منـذ الخنسـاء إلى اليوم».

والشـاعرة سـعاد الصبـاح امـرأة لا تعـرف الحـذر ولا السـكون، هـي امـرأة تكتـب بـإصرار يشـبه السـكين في رهافتـه وحدّتـه، كانـت لهـا رحلـة شـعرية صعبـة، رغـم أنهـا تملك أداتهـا الأولى، وهي الموهبـة، والموهبة قرار الممارسـة، وقـد مارسـت الوعـي بهـذه الموهبة وخطـت خطوتهـا الأولى، وراحـت تجمع الآفـاق بـين عينيها، وتسـتخرج من قـشرة الأرض كنوزها، وتسـتخرج من قشرة السـماء مجراتهـا العظيمـة، وتسـتخرج من قـشرة البحـار لؤلؤتهـا الوديعة.

وكانـت لهـا رحلـة إنسـانية أصعب، رغـم أن الجميع ينظرون إليهـا على أنها تسـير عـلى طريـق مفروشـة بالمجـد العائـلي المطـرز بزهـو السـلطة الموروثـة ورفاهيـة الـثراء المـوروث، لكنهـا كانـت -في الحقيقـة- تسـير كمـن يسـير على الأشـواك، أو كمـن يسـير فوق رقرقة المـاء في النهر والينبـوع، فأدركت أن الدم المتخـثر في الـتراب لـن يصير ياقوتة حمـراء، ولن يتحول حـزن الزيتون إلى فرح سـماوي، ولم تجـد مفـراً من أن تجعـل الرحلة الصعبة عنـوان الطريق، وحلقة مـن حلقـات ثورتهـا، عـلى كل ما هـو جاهلي وعشـوائي ومتخلف.

تقـول: «إذا كنـت امـرأة غنيـة، فهنـاك ملايـين مـن الرجـال والنسـاء أغنياء، وإذا كنـت مـن عائلـة معروفة، فـإن العائلة لا تعطي جواز السـفر حتى يطير الإنسـان بجناحـي الإبـداع ليدخـل كل بيـت، ولـو كان الإبـداع يصنعـه المـال، لأصبحت كارولين موناكو شـاعرة الشـاعرات، ولأصبح الأمير تشـارلز من أشـهر الكتّـاب والشـعراء، وكان بوسـعي أن أظـل في الفراش أتصفح المجـلات التافهة وأثرثـر في الهاتـف دون أن أشـعر بالأيـام، ولا أتعـرض لـكل هذه المشـاكل، ولا أسـبح ضـد التيـار، وإذا أردت الشـهرة والصحـف والمجـلات، أسـتطيع تنظيـم حفـلات اجتماعيـة وولائـم لهـو فـارغ، أدخل من خلالهـا دائرة الضـوء، لكنني لسـت امرأة التفاهـات ولا امـرأة الفراغ».

أعلنـت سـعاد الصبـاح ذاتهـا شـاعرة تخـوض في تفاصيـل دقيقـة لقضايـا الشـعر والتاريـخ والسياسـة والنقـد والعائلـة والحـب والوطـن، ومـا يمكن أن يكـون سلسـلة تنتظـم فيهـا كل هـذه المفـردات، دون أن تطغـى مفـردة على أخـرى، تحـت وطـأة هاجس ما، فعاشـت بين فكي رحـى، لقناعـات ولدت بها ومتغـيرات تبـدل داخلهـا كل شيء، عاشـت بين القبول والرفض، بين الاسـتكانة لـكل التقاليـد الباليـة والمعيقـة، والتمـرد عـلى كل السـيناريوهات والقوالـب الجامـدة، فبـدت وكأنهـا ترتـدي عبـاءة تخبـئ عاصفة.

وجهـت سـعاد الصبـاح اهتمامهـا الأكـبر إلى قضايـا المجتمـع وقضايـا الواقع الاجتماعـي، وكشـفت في قصائدهـا عـما يخيـم عـلى هـذا الواقـع مـن جمـود وتخلـف ورجعيـة، ومـا يحـاصره مـن سـلبيات وأفـكار باليـة، لا تسـتجيب للتطـور الحضـاري ومتطلبـات العـصر، وتبنت في شـعرها أهم قضايـا المجتمع العـربي، وفي مقدمتهـا قضيـة الموقـف مـن المرأة، ومـا تعانيه مـن وضع مهين،

فأصبحت قضية المرأة والدفاع عن حقوقها الاجتماعية والسياسية هي محور اهتمامها، وأعلنت رفضها قوانين مجتمع الذكورة، الذي لا يرى في المرأة إلا جسداً ومتاعاً، ولا يعترف بدورها الفاعل في المجتمع، بل يضعها في مؤخرة القبيلة، ويهمش دورها ويغلق في وجهها منافذ الحرية، ويعدد النقاد المضامين التي تناولتها سعاد الصباح شعراً ونثراً عبر ثلاثة محاور، هي المحور الوطني والمحور الاجتماعي والمحور الوجداني[1].

المحور الوطني

بدت سعاد الصباح في هذا المحور شاعرة عربية صداحة، عطاؤها نحو الكويت -بلدها- انساب ليؤكد صدق العاطفة وعمق الصورة والتعبير، مستهدفة الحرية والعدل والمساواة في كافة أنحاء الوطن العربي الكبير والصغير، ولمعت أحاسيسها نحو الكويت بأمنيات المواطن الصادق المنتمي لأرضه التي تسري في عروقه حباً وجذوراً، مثمّنة في وطنها ملاذ المثقفين وملجأ الأحرار الذين ينشدون فيه البوح والارتياح، متخذة من الكتابة طاقة تخيل وحيوية، ومن الكتابة استنطاقاً للبشر، وصلة بين الروح والروح، لتجميل الحياة، وقد عبرت سعاد الصباح في شعرها الوطني عن ماضيها العريق، وبحرها الطليق، ذلك البحر الذي خرج منه السندباد وحط على شواطئه وموانئه ابن ماجد، مطالبة رجال وطنها بأن يتوحدوا ويحافظوا على تراثهم.

ولم تنس قضية النفط، بل كانت تعتبرها مشكلة كل دولة اكتشف

1- د.محمد التونجي ـ قراءة مسافر في شعر سعاد الصباح ـ منشورات شركة النور ـ الطبعة الثانية ـ الكويت ـ 1987م.

البترول على أرضها، فتوافدت عليها حشود الغرباء من الأجانب تستهدف امتصاص رحيق أرضها، كما أن اكتشافه غيّر الكثير من الأخلاق والنفوس، فنراها تقف كثيراً عند أثر النفط في هذه النفوس، وتتألم لما أصاب تلك النفوس من جراء الذهب الأسود، حيث غيّر الطباع وبدّل الأخلاق ونسي الناس جهادهم وتقاليدهم التي ورثوها، فالنفط لا يورث إلا الكسل والخنوع ويطبع النفوس بالخبث والرياء، وقد أنتجت في هذا الإطار الكثير من القصائد التي ترى أن شعب الخليج ما زال سائحاً بأخلاقه مع انسياح النفط، معلنة أسفها على أجدادها البحارين الذين جابوا بقاع الأرض، بحثاً عن الخيرات بالتعب والجهد والعرق والكفاح، مؤمنة بأن ما جاءهم من غير عناء أورثهم الشقاء.

وتؤكد سعاد الصباح[1]: «أن الثروة التي تنبع مصادفة من تحت الأرض لا تلبث أن تبتلعها الأرض، إلا أن مستقبل الإنسان وتقدمه لا يأتيان من المصادفات، وإنما يأتيان من البحوث والاكتشافات والدخول في سباق مستمر مع الزمن»، وتزخر قصائد المحور الوطني بالعاطفة الصادقة والوجدان المتحمس، فتصبح قذائف مصوبة ضد كل فساد، ويمكن القول إن الشعر السياسي الوطني والقومي، كان الجانب الذي ألزمت فيه الشاعرة نفسها بتناول أحد الهموم السياسية، وقد لا يتعلق هذا الجانب بالشعر مباشرة أو بوطنها الكويت[2]، وقد نثرت قصائدها في هذا الميدان في أكثر من مناسبة، وربما يكون المجال الوحيد الذي نجده متعلقاً بالكويت هو حين تعرضت

1- أحد آرائها في واحدة من دراساتها الاقتصادية حول البترول.

2- إسماعيل إسماعيل مروة ـ سعاد الصباح شاعرة شتائية في الحب والغضب ـ منشورات النور ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ 2000م.

الكويـت للغـزو العراقـي، فأخذت سـعاد الصباح تصـوغ برقياتهـا العاجلة إلى وطنهـا وقلبهـا يـذوب إحساسـاً وحبـاً، ويتجـاوز مجمـل مـا كتبتـه في الشـعر السـياسي بشـقيه القومي والسـياسي سـبعة عـشر نصـاً وكتاباً نثرياً عـن الغزو.

المحور الاجتماعي

بـدت قضيـة المـرأة في هذا المحـور مرتكـزاً جوهريـاً، بوصفها أسـاس إصلاح المجتمـع، وذلـك لأن المـرأة هي البـذرة الواعدة ومنجم الذهـب الذي لا يزال مختفيـاً في أحشـاء المجتمـع، وقد بذلت سـعاد الصباح جهدهـا في طرح قضية المـرأة، منبهـة المجتمـع إلى أن المـرأة ليسـت للمتـاع فحسـب، ولم تخلق فقط لتنافـس الفصـول الأربعـة عـلى قلـب الرجل، بل هـي شريك أسـاسي في رحلة البنـاء ومسـيرة التنميـة، ودورهـا لا يقل أهميـة أبداً عـن دور الرجل.

ورأت سـعاد الصبـاح أن المـرأة مـا زالـت تقـف عـلى بـاب حقوق الإنسـان، ومـا زال أمامهـا شـوط طويـل للوصـول إلى تحقيـق كافـة أهدافها، على سـلم الحقـوق المدنيـة والسياسـية والاقتصاديـة والثقافيـة، ومـا زالـت تعـاني مـن مكامـن النقصـان، فصنعـت مـن قصائدهـا صوتـاً يناضـل في سـاحة الـشرف، عـن المـرأة التي تنشـد الحرية، وتصرخ صرخـة الحق في وجـه الباطل، وتنادي بالمسـاواة نـداء اللـه العادل.

ولأن الرجـل كان لهـا بالمرصـاد فهي ترى أن المـرأة مهما وصلت إلى الطبقات العليـا مـن السـلم الاجتماعـي فـإن الرجـل بضغطـة زر مـن أصابعـه يعيدها إلى موضعهـا ويحـول دون ارتقائهـا، فتقـول: «والظاهـر أن الطوابـق العليـا مخصصـة لسـكنى ذكـور القبيلـة فقط، أما النسـاء فمأواهـم الطوابق الأرضية

أو ما تحت الأرض».

ونادت سعاد الصباح من خلال شعرها إلى أنه يجب تثقيف الرجل لتتم عملية تثقيف المرأة، فالمناخ المتحضر يؤهل الاثنين معاً إلى حياة سعيدة مشتركة، ولهذا ظلت الشاعرة تحمل مسؤولية النضال بالكلمة المبدعة، مطالبة بحق المرأة ومساواتها بالرجل، كما لا ترضى في الوقت نفسه أن تكون المرأة كسولة متخاذلة، في عملها أو في منزلها، لأن المرأة نصف المجتمع وإن لم يأخذ نصف المجتمع حقه، فإنه لن يستطيع أن يؤدي واجبه، وعلى الجانبين، بدت المعركة باسم المرأة وضد تخاذلها عنيفة عنيدة عميقة الجذور، بسبب تشبث الرجل بموروثاته ومعاداة المرأة في طلبها العادل، رافضة أن يراها مجرد تسلية واشتهاء وأداة توليد وإنجاب، وبسبب تخاذل النساء عن حماية وجودهن، واقتصار حياتهن واهتماماتهن على العبث واللهو بجدائلهن المضفرات بالزيوت والكريمات.

وبلغت النصوص التي أخذت فيها الشاعرة على عاتقها أمر الدفاع عن بنات جنسها، وحقوقها وقضاياها، نحو ستة وعشرين نصاً، وتمثل هذه القضية أهمية كبرى في مجمل إنتاج سعاد الصباح، حيث احتلت قضية مكانة المرأة وما تعانيه من ظلم اجتماعي وفكري وسياسي الصدارة، فهي تتعامل مع المرأة فكراً وعقلاً، ولهذا علاقة مباشرة بالبيئة، لأن هموم المرأة عندها مختلفة، فهي تنتمي إلى بيئة تحرم المرأة أبسط حقوقها، فالشاعرة تنطلق من ذاتها وتنطلق من المرأة التي تخصها[1].

1- د.مختار محمود ـ بين الأمنية والحلم، قراءة في ديوان «أمنية» ـ يوم الأديب الكويتي ـ ص 271.

المحور الوجداني

في هـذا المحـور تتحدث شـاعرتنا بلسـان الأنثى التي تذوب حبـاً في محبوبها العاشـق، سـخية العطاء مضحّية، وهي دوماً تحتفل بنفسـها وثوبها لاستقباله، وقـد كان هـذا المحـور في شـعر سـعاد الصبـاح بمثابـة الصفحـة الرقيقـة التـي كتبتها لإراحة الوطن وإسـعاده، إذ تترك لريشـتها العنان في رسـم حالة الوجد الصـادق المفعمـة بحـرارة الحنـان وعواطـف الوجـدان، فنصبـح أمـام عمل لا يسـتهدف سـوى تجميـل الحياة وترتيبهـا ترتيباً جميـلاً ومبهراً.

وتـراوغ شـاعرتنا بالكلـمات وكأنهـا القنـاص الـذي يختـار أجملهـا وأعمقها، وأكثرهـا تأثـيراً في النفس، شـحذاً لخيـال القارئ، ويظهر عنـصرا الحب والحنان اللـذان تفيـض مفرداتهـا بهـما، في جـل القصائـد، ليتوجاهـا وكأنهـا كاهنـة في مدينـة الحنـان والـدفء التـي فاقـت مدينـة كفافيـس «أوثاكيـا» التـي رآهـا البعـض وهـماً، فـكل قصيـدة تفيـض بعطـر الحنـان ونكـران الـذات، وحـين تبحـث عـن ذاتهـا بين عواصف الحيـاة، تلعـب بالمقبلات البلاغية التي تسـبح في فلـك التشـبيهات والاسـتعارات وألعـاب المجـاز، رغبـة في التأثـير والإيحـاء والجـمال، وتتميـز لغـة هـذا المحـور بأخلاقيـات اللغـة التـي لا تعتمـد عـلى تراكيـب لغويـة ثابتـة، بل تسـتند إلى الواقعية، حتى في اسـتخدامها للرمز، ولا نـكاد نـرى الخيـال مجنحـاً، إلا في الصـور والاسـتعارات التمثيليـة.

وتسـمو سـعاد الصبـاح في هـذا المحـور سـمواً وجدانيـاً رفيعاً وصادقـاً، تعبر عنـه المعـاني الغنيـة بالعواطـف الحـارة والمشـاعر السـخية، لتبدو واحـةً غنّاء بالعطـاء، وروضـاً زاهيـاً وبـدراً منيراً، بعيـداً عن الماديـات التي تفسـد المعاني، وتخلـف المواعيـد مـع المـسرات المعنويـة، ولهذا تصبغ سـعاد الصباح شـعرها

الوجداني بطابع التفاؤل، وترفع من قدر العاطفة على أساس التعادل، وهي ترتدي ثوب الواقعية حتى في لحظات الخيال المشوب بالانفعال، ثم إنها تقرأ حكايات حبها حائرة، حتى في اللحظات التي نرى هذا الحب أوسع أفقاً وأعمق جذوراً لدرجة المبالغة[1].

وقد جسدت قضايا الحب والوجدان عواطف المرأة تجاه من تحب، أو عواطف المحب تجاه من يحب، دون اللجوء إلى مناقشات حادة عن حقوق المرأة، أو عن المجتمع الذكوري، وكذلك الكآبة والصمت والغربة والوحدة، إلى غير ذلك من الطقوس التي يمكن أن تحيط بالمحب، وقد أخلصت الشاعرة لهذه القضية، لدرجة أن وصل إنتاجها عنها لأكثر من مئة وسبعين نصاً.

كما عبّرت في هذا المحور عن بكاء الأحبة، وفيه تناولت فجيعتها في فراق ولدها البكر مبارك، وزوجها عبدالله المبارك، وامتزجت كارثة الفقد في تلك القصائد بكارثة الوطن، مما جعل القصائد نموذجاً فريداً من شعر الرثاء، وقد أنتجت في ذلك أكثر من تسعة عشر نصاً.

ولا تفي هذه التقسيمات -في رأيي- على هذا النحو بمضمون القضايا التي تناولتها سعاد الصباح في قصائدها، لأن عالمها الشعري كان غنياً بالصور الشعرية والأحاسيس الفنية، ومليئاً بالتناقضات وبالموضوعات والتجارب الشعرية، شأنها في ذلك شأن الأدباء الكونيين الذين تهزمهم الأحداث، حتى وإن لم تكن على أرضهم، وهم يريدون العدل في الأرض، وإن لم يقع عليهم

1- يظهر ذلك جلياً على نحو خاص في قصيدة بعنوان «أعقل المجانين»، وفيها تبدو المبالغة في العشق بدرجة كبيرة.

الظلم أو الجور، تقول: «حتى يكون الإنسان صادقاً، لا بد أن يتكلم بلسان الآخرين ويتقمص دورهم، ما أتكلم عنه ليس بالضرورة هو معاناتي، فقد قرأت كثيراً وتجولت في الوطن العربي من شماله إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه، وتلمست جراح المرأة، هناك نساء لا يعانين، وهناك رجال ليسوا داخلين في نادي القمع الذي أتكلم عنه، ولكن هناك ما يجب أن نضع تحته الخطوط ليدركوا أن هناك قمعاً للمرأة، سواء جاء هذا القمع بصورة طبيعية أو غير طبيعية، متعمدة أو غير متعمدة، فعندما أتكلم، فإني أتكلم بضمير المقموعات، المسجونات، اللائي لا صوت لهن، وأعتبر نفسي صوت من لا صوت له، في هذه الأمة إن استطعت».

بذلك، لا تنحصر معاناة سعاد الصباح فيما يسكن ذاتها من آلامها الخاصة، بل يتسع مجالها فتتضاعف لآلام الآخرين، وأحزانهم، وتتجاوز ذلك فتتبنى تلك الآلام وتعيشها وإن لم تذق ظرفياً وعملياً مرارتها، فيتحقق لديها الانفلات من الحصار المضروب على ذات الفرد، لتتمثل ذوات الآخرين -نساء ورجالاً وأطفالاً- في قضاياهم، تعبر عنها وتجند كل طاقتها لمساندتهم والدفاع عنهم، وعن مصالحهم، بلسان صدق وإيثار.

القصيدة التي تكتبها سعاد الصباح شذرة من كلمات الناس، وهم وحدهم العارفون بسرها وسحرها، تبدأ الكلمات صوتاً منغماً مميزاً، وبمهارة الشاعرة الموهوبة تمنحها روحاً وجسداً على الورق، تقول: «لماذا لا تكون كذلك، وهي محاولة إنعاش قلب العالم المصاب بالسكتة العاطفية، فيظل الصوت ناقوساً يدقّ للحظة الحب والحياة، أو إعلان احتجاج في وجه الباطل، كما تظل الكلمات روحاً هائمة تسبح في عوالم الإبداع».

ولم تكن سعاد الصباح مستهلكة لكلمات الإبداع فحسب، بل كانت مجددة في تلك الكلمات، والمتابع لإنتاجها الشعري، يقف بوضوح على مساهمتها في مسيرة تطور ملامح القصيدة العربية شكلاً ومضموناً، وفي تفاعلها مع المناخ الفني الذي يسود العالم، وتتشكل مراحل هذا التطور، بداية من مرحلة التأثر بشعراء الرومانسية مثل لامارتين وموسيه وبايرون ورودث، وشعراء المدرسة الرومانسية في المهجر الأمريكي ومدرسة أبولو وجبران خليل جبران، ثم مرحلة الإفاقة التي تبدت فيها حقيقة أن الزمان العربي لم يعد يسمح بالاستلقاء في ضوء القمر[1]، ثم مرحلة الالتزام بالواقعية بما تمليه من تشريح للقضايا العربية وقضايا الإنسان عموماً، وذلك بأفرعها المتعددة، الواقعية الاشتراكية والواقعية الماركسية والواقعية المادية والواقعية الجدلية، ثم مرحلة الواقعية الصوفية والتعبيرية وغيرها.

ورغم ما مرت به من نضج فني وعقلي خلال تلك المراحل الثلاث، لا تنسى سعاد الصباح بداياتها مع الشعر والكلمة المبدعة، وما كان في طريقها من مصادر ومرجعيات زرعت داخلها مشاغبة الطيور المغردات في أعشاشهن، فتقول: «كيف تعرف الشاعرة أنها قد ولجت المغارة؟ أتذكر كنت أردد في الليل ما يشبه الترنّمات، وفي النهار رحت أخربش على الورق ما يلح على الذاكرة من لحن، لم أكترث كثيراً لذلك، حتى أمسكت مدرّسة الرياضيات بي متلبسة بالكتابة. قرأت ثم قالت لي فيما يشبه الهمس الحميم: (أنت تكتبين شعراً؟) ولم أجب، ولم يكن لدينا الكثير لنتسلى به ونسرّي عن أنفسنا عبق أنفاس الليل، رحت أكتب حتى عرف والدي بأمري، فشجعني وزاد

1- تعبير للشاعرة سعاد الصباح نفسها.

مـن جرعـة الشـعر في الكتـب والمجـلات التـي كان يحـرص على جعلهـا زوّادة البيـت، ومنهـا عرفـت الشـعراء واتصلـتْ بروحـي نسـائم القصيـدة الجديدة عـبر مجلـة الرسـالة المصريـة، وكانـت يومهـا أعـرض المنابـر للفكـر في الأدب والنقـد والقصيـد. كـما كان العراق يومهـا أقرب البحيرات الشـعرية إلى مذاقنا وأوسـعها أنهـاراً بفضـل بدايـات حركة الشـعر الجديـد فيه. لقـد كان الاتصال الثقـافي بيننـا وبـين عراق الخمسـينيات واسـعاً ومؤثـراً وقريباً، ثم جاء السـفر ليمنحنـي فرصـة العمـر في التعـرّف إلى الشـعر الغامـر دنيا العروبـة، في لبنان والشـام ومـصر وفي المهاجـر، وفي التعـارف مـع شـعراء كانـوا كوكبـة الضوء في عصرهـم، مـن أمـين نخلـة إلى الأخطـل الصغـير وصـلاح لبـكي، وحـين التقيـت بشـعر المهجّريـين، أدركـت أن البحـار التـي باعـدت بينهـم وبـين وطنهـم قـد زرعـت في صدورهـم الوطن، ومعه رشـاقة وجـدّة في الكلمة الشـعرية. عندما أتيـح لي أن أقـرأ إيليـا أبـو مـاضي وشـعر جـبران المنثـور ومطالـع شـعر نـزار قبـاني، وقـد بـدأ يزهـو في الأوراق الجديـدة، أقبلـت عـلى القـراءة في نهـم لا يشـبع صاحبـه ولا يرتـوي، بالطبـع كان شـوقي وحافـظ إبراهيم ملء السـمع والعـين، كذلـك طـه حسـين والعقـاد والمـازني، لقـد أعطـاني السـفر في رحلاته، ثـم الاسـتقرار في لبنـان ومـصر، فرصة العمـر لإغناء روحي، وقـد غنيت، وعلي الاعـتراف بأننـي لم أكـن صبيـة هادئـة أو مسـتكينة، لقـد ولـدت وفي أعماقـي مهـرة لا تعـرف الحـذر أو الخـوف أو السـكينة، التمرّد كان سـمة روحي، ترى هـل خمـد؟ في كل مـا أقـدم عليـه كتابـة أو حديثاً أو سـلوكاً كنـت أحسّ بأني مسـكونة بالعاصفـة وأن الزمـان هـو زمـاني، كنـت أحـسّ بثقـة كبـيرة بنفسي، فـما أقـرره أعلنـه ومـا أعلنـه أفعلـه، مـادام ذلـك في حـدود قررتهـا لمـا يجوز ولمـا لا يجـوز، ولم أخضـع للمعـادلات المنصوبـة كالشراك في وجه المـرأة، لذلك

كنت ثائرة حقيقية على كل ما يقيد حقي، وقد ساعدني أن يكون لي الزوج -الخيمة- يفهمني ويقبل ثورتي وينصرني على كل محاولة لجعلي امرأة رمادية، كان عبدالله المبارك ناصري الأول وسندي، فازددت به قوة وغنمت بفروسيته رهان القتال».

ولم تخش سعاد الصباح الآراء النقدية التي وجهت سهامها لتجربتها الشعرية، ولم تغتر بالآراء النقدية المشجعة لتلك التجربة متأثرة بوضعها الاجتماعي المتميز، تقول: «يجب الإقرار بأن كتاباتي قد جوبهت بحالتين، القبول الاعتيادي حيث عوملت كلماتي شأن كل شاعرة جديدة، والحالة الثانية كانت مزيجاً من تشجيع ومديح مشوب بواقعي سلباً وإيجاباً، أي أن بعض ما قيل كان مديحاً بأكثر مما أستحق، وبعضه -كتابة أو حديث دواوين- كان ظالماً دون حق. وقد ظل حال النقد معي طويلاً حتى توقف النقّاد الحقيقيون عند تجربتي، فكانت الآراء المنصبّة على التجربة بدل الخطأ المزدوج في التعامل مع صاحبتها أولاً ثم معها، في الحالين عانيت، فأنا لا أريد في تجربتي كلاماً يرفعها إلى درجة الإعجاز، ولا أريد أن يظلمها أحد بوازع غير نقدي وغير عادل أيضاً، لقد كانت تلك الحقبة مضطربة عموماً، ولم أعبأ خلالها بما يقال، حتى وإن كان سكراً وأرزاً مسكوباً، لذلك لم أحتفظ بورقة واحدة مما قيل عني في تلك المرحلة، ولم أكن لأعنى كثيراً بما يقال، ولم أكن مستعدة للتوقف لحظة واحدة عمّا أريد وعمّا أقول، لذلك مضيت إلى شؤوني دون أن أسمح لأغصان الشجر بإعاقة نهر الأمل والإبداع».

وظلت سعاد الصباح عازمة على المضي قدماً، حريصة على تطوير ذاتها

الشعرية، فكان لها في تحليق بودلير ورامبو وبول إيلوار وأرغون ونيرودا وإيليوث ومايا كوفسكي وويتمان وغيرهم من أمثال صلاح عبد الصبور وعبد المعطي حجازي وأمل دنقل، المثل الذي أنار طريق النضال الشعري الذي جندت له كل مشاعرها وإحساسها، متلمسة الحماية من أسنان هذا العصر الفولاذي، كما تلمست ما حققته القصيدة العربية في العراق من ثورة على الجمود وتبني قوائم طبيعة العصر على يد نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وأنسي الحاج ومحمد الماغوط وشوقي أبو شقرا، وغيرهم من رواد مجلة الشعر اللبنانية، فكانت لها إسهامات بليغة جنباً إلى جنب رواد الحداثة الشعرية العربية من أمثال أدونيس ومحمود درويش ومعين بسيسو وغيرهم.

كانت المجموعة الشعرية «فتافيت امرأة»، مفصلاً مهماً واضحاً جداً في تجربتها الشعرية، حيث انتقلت من خلالها إلى مرحلة جديدة في كتابة النص الشعري، تقول: «إن حياتي كانت من العمق والتجارب في الأزمنة والأمكنة وفي تلاحم المشاعر واضطرابها المولد للشعر، بحيث يستحيل عليّ الوقوف لتفصيل المراحل، لقد تأثرت كثيراً بتجارب الشعراء التي راحت بيروت تهطل بها من سماء الشعر العربي، مولدة ثورة في الكلمات وفي الشكل الشعري المدهش، بيروت هنا، ومرة أخرى، عادت إلى لعب دورها كناموس للشعر، وقاموس جديد لحروفه المولودة من شعراء عرب، حملوا هويات العراق والشام وفلسطين. لقد فتحت المغارة أبوابها من جديد ليطلع الشعر مسكوباً كالورد والبندقية والسكين في حياتنا، وضمن هذا الزخم المتناسق مع رديفه في أوروبا، ولندن تحديداً، ولد إنسان شعري

جديـد في مئـات الصـدور والأصـوات، ومنهـا هـذه (الفتافيـت)، التـي أوافـق عـلى القـول بأنهـا شيء آخـر في حنجـرتي».

قـدم ديـوان «فتافيت امـرأة» نموذجاً للمرأة العربية التـي تعاني أمام حلمها الإنسـاني في الحريـة، وكيـف يمكن لهـذه المرأة أن تتجاوز ما تـراه من معيقات في سـبيل تحقيـق حلمهـا، وإلى أيـن تمضي خيـارات المرأة العربية الإنسـانية في ظـل مجتمـع ذكـوري ينظر إليها بتشـكك كلما حققـت نجاحاً مـا، أو تقدمت خطـوة إلى الأمـام؟ وتـرد عـلى مـن هاجـم نضالهـا مـن أجـل المـرأة في هـذا الديـوان، فتقـول: «إننـي شـاعرة عربيـة مـن هـذه البادية الممتزجـة بالبحر، وإن لي نسـباً، لنعـترف أنـه كبـير، لذلـك كانـت هجمـة الجـراد البـارد عـلى شـعري، ولنعـترف أيضـاً أن هنـاك مـن أبنـاء البلـد الواحـد، مَـن كان يسـعده أن يلقـي حطبـه في النـار ليرتـاح إلى ما يحسـبه الهشـيم، دون أن يدري جميع هـؤلاء أن موقفهـم منـي وليس من شـعري، وهـذا هو اللب، قـد زادني إصراراً عـلى امتشـاق الشـعر والـضرب به، وقـد ربحـت الرهان».

واقعية الأفكار

وتمسـكت سـعاد الصبـاح في هـذا الديـوان وفي غـيره بواقعيـة الأفـكار والأحاسـيس، عـلى الرغـم مـن ذكرهـا أكـثر مـن مـرة أن شـعرها مـن كوامـن الخيـال، وليـس مـن الواقـع، وربمـا جنحـت إلى الخيـال في بعض الصـور، لكنها تسـتلهم أغلـب معانيهـا مـن جذورهـا الخليجيـة، وكل عواطفهـا الجياشـة منبثقـة مـن جنبـات الواقع العـربي أو الواقع الشـخصي، ويرى الكثـيرون أنهم لم يعرفـوا سـعاد الصباح إلا كشـاعرة قضية، ودائماً شـاعر القضيـة واقعي، وإن

عمـد إلى الرمـز، وقـد ظلـت سـعاد الصبـاح طـوال مسـيرتها الإبداعيـة تحصد معانيهـا مـن سـهول الواقـع، فضـلاً عـن واقعيتهـا الذاتيـة، وأكـبر دليـل عـلى ذلـك مـا كتبتـه عـن ابنهـا الراحـل مبـارك حيـاً وميتـاً، ومـا كتبتـه عـن زوجها الراحـل، ولا يمكـن للمـرء أن يكتـب عـن الفقـد مـن الخيـال.

هـذه الواقعيـة جعلـت مـن سـعاد الصبـاح شـاعرة قصصيـة، تـروي الواقـع بعـرض قصـصي، وعـبر الكثـير من المشـاهد تلمع إنسـانيتها الشـفافة، بـل إنها لا تنـسى وهـي تكتـب الشـعر أركان القصـة الحديثة من حـدث وعقد وحوار ووصـف وأبطـال وخاتمـة، وقد أدركت على نحو خـاص أن الوصف من أعمدة القصـة، متضمنـاً الزمـان والمـكان، فراحـت تصف المشـاهد الشـعرية بطريقة فنيـة وصفيـة، لتقـرب الفكـرة والغـرض مـن ذهـن القـارئ، وقـد ظلـت هذه الـروح الواقعيـة ذات الرؤيـة الوصفيـة وذات العـبرة الاجتماعيـة والوطنيـة، مشـوبة بالحكمـة والموعظة.

والمعـروف أن واقعيـة الأفـكار تتضمـن في ذاتهـا الوعـي بالواقـع، أو بتعبـير آخـر، الصـورة الواعيـة للواقـع، وقـد تميـزت سـعاد الصبـاح بابتـكار كثـير من الصـور النابعـة مـن بيئتهـا الخليجيـة وبيئتهـا العربيـة، ومن رحلاتهـا العربية والغربيـة، ومـن دراسـتها، وسـاعدتها شـخصيتها الرومانسـية وعواطفهـا الصادقـة عـلى صـب الصـور الواقعيـة في قوالـب جديـدة، بعيـداً عـن لملمـة الصـور القديمـة، وبعيـداً عـن المعـاني المكـررة، ويظـل مـن اليسـير أن نلاحـظ كـثرة الصـور المسـتخدمة تعبـيراً عـن إشراك الطبيعـة في أحاسـيس الشـاعرة، فنجـد صـوراً متلاحقـة ومتحركـة وثابتـة، حيـث تظـل الطبيعـة مـلاذاً آمنـاً في التعبـير عـن الآمـال والآلام، وتعـرض سـعاد الصبـاح دائمـاً الطبيعـة بشـكلين،

أحدهـما سـعيد وبهيـج، وأحدهـما حزيـن وتعيـس عندمـا يرتبـط بأحزانهـا، ولـذا تمثـل الطبيعـة جـزءاً لا يتجـزأ من شـعرها، ومعلـماً من نوافذ شـاعريتها ونبضـات أحاسيسـها.

موهبة الرسم

وكـما اتخـذت سـعاد الصباح مـن موهبتها الشـعرية أداة للرسـم بالكلمات، فهـي أيضـاً اتخـذت مـن موهبتهـا في الرسـم أداة للكتابـة بالريشـة، معـبرة عـن مكنوناتهـا وأفكارها ومشـاعرها بالألـوان والرتوش والظـلال والتكوينيات الفنيـة المبهـرة، وقـد مارسـت الرسـم بـروح الهـاوي وجديـة المحـترف، حـين نشـأت علاقتهـا مـع اللـون، ولم نعهـد لديهـا الفـرق بـين اللوحـة والقصيدة في القـدرة عـلى التعبـير عـمّا يعتمـل داخلها، فـلا الشـعر كان ينزعها مـن اللوحة ولا اللوحـة كانـت تناديهـا كصفـير الريـح في البريـة، تقول عن علاقتها بالرسـم والشـعر: «علاقـة قديمـة تزامنـت مع الهاتف الشـعري، وغابت زمنـاً لتعود في اللوحـة، وهـذا امتيازهـا الأول، الفضـاء الرحـب لا يشـبه غيره، ولا يملـك حيزاً يسـتحيل تجـاوزه، بينـما في الشـعر ذلك قائـم، في اللوحة يملك الرسـام الفكرة وحريـة التعبـير دون قيـود ودون أن يأخـذ في الحسـبان عامـلاً مـن خـارج الذات».

وإذا كان الشـعر انفجـاراً معنويـاً، وانفعـالاً مكثفـاً، كـما يقول السـيرياليون، فـإن اللوحـة التـي تجسـد موقفـاً جماليـاً لدى سـعاد الصبـاح، حول الإنسـان والحيـاة والكـون، ليسـت ثعلبـاً خجـولاً أو غزالـة تركـض خلـف الذئـب، إنمـا هـي عشـب أخـضر وشربة مـاء تشـبعان الجائع للجـمال، فالقصيـدة واللوحة

كلاهـما مزيـج مـن المعاني الإنسـانية التي لا تخجـل أن تعلن عن نفسـها، كما أنهـما ثـورة بهيـة وبـركان فتي، يسـهم في إعادة صياغـة العالم، مـن خلال لغة فاتنـة متفجـرة تفـضي إلى عمـل إبداعي يمثل صـورة للذات والـذوات الأخرى، ويشـكل في مضمونـه إيقاعـاً لـلألم والأمـل معـاً، وللفرح والحـزن معاً.

الحب والحرية

بـدا شـعر سـعاد الصباح مطـرزاً بإحساسـاتها المرهفة، ومنسـوجاً بمشـاعرها الجياشـة، يشـكل بالنسـبة لهـا كامـرأة عربيـة خليجيـة، مثـل أي عـربي، إرثـاً تاريخيـاً، يمتـزج إيقاعـه بخلايـا جسـدها، تنشـد بـه وجـوداً يرتكـز إلى قاعدة ثابتـة هـي العـدل، ويطـير بجناحين في فضـاء أسـاسي، قوامه الحـب والحرية، وكل قصيـدة تمثـل بالنسـبة لهـا حيـاة، والحـب حيـاة، وأينـما يوجـد الحـب توجـد الحيـاة، وتؤمـن بـأن الحكومـة الوحيـدة الباقيـة عـلى قيـد الحياة هي الحب، كما يقول الفيلسـوف بيترولسـون، وحب الشـاعرة سعاد الصباح حرية مقرونـة بالتمـرد والثـورة والغضـب، يصعـب سـجنها أو قتلهـا أو السـخرية منهـا، وحريـة الكلـمات والمعـاني ليسـت باختيارهـا مـن القواميـس، إنمـا حين تكتبهـا دون قيـد وحـين تمسـك بهـا برقّة أجنحة فراشـة مرفرفـة، لأنها تمثل في النهايـة حريـة الوطـن الـذي يسـكنها وتحمـل همومه وهـو يتوضـأ بدموعها، وبغـير هـذه الحريـة يبـدو الوطـن بـين كفيهـا مجـرد حـروف وأرقـام مبعـثرة شـاحبة منثـورة فـوق مقـبرة، ومـن دون طيـف الحـب يغـدو الوطـن بـكل كبريائـه في ذمـة الغيب.

وبالحـب والحريـة صنعـت سـعاد الصبـاح ذاتهـا ومبادئهـا، منـذ نشـأتها،

ونسجت زهوها الذي هو محور حياتها، ثائرة وعاشقة، ولهذا كانت تعيش صراعاً يداهمها فيلهب عنفوان طموحها فتبرز شاعريتها، لتنتج لنا باقة من القصائد مختلفة المذاق، حتى في بداياتها التي لم تحظ بدراسات نقدية، وظل الحب ذا سلطان على مشوارها مع رحلة الدفاع عن حريتها وحرية الآخرين، وظل شغلها الشاغل على مساحة تجاربها الممتدة، وقد استوعب أكثر من ثلثي إنتاجها، خاصة إنتاجها في مرحلة الشباب، وهي المرحلة التي ظلت تكتب فيها رومانسية المنحى، كاشفة عن تأثرها بالشعراء الرومانسيين، دون توغل في سمات الاستخدام الباكي الحزين.

وبالحب كانت سعاد الصباح تفتح لقارئها -عبر القصائد- ذراعيها بمساحة ود كبيرة، فتلون أمامه واقعاً مجازياً بديعاً، بينما هو مُضْنٍ جارح مجروح في آن، وكانت حين تتكئ على جراح الوطن، تتعمد أن تحرك مفاصله المعطلة في واقعه المرير، ولا تبرح أن تقص أظافره وتمشط شعره ليتجمل بلا خصلة فوق الأهداب، وبالحب والحرية في الحياة وفي القصيدة، شخصت الداء والدواء، فالأمر ليس في نقص القمح والشعير، إنما في حاجة العصفور لكي يطير، وحاجة المسجون إلى استنشاق الهواء، وما أجمل الشعر الذي يصنع لنا دنيا تتهجى حروف الحب والحرية، ويمنحنا الدفء الإنساني الذي لا يمنحه شيئاً سواه، تقول: "بقية الأشياء، الأساور والخواتم والثياب الفرنسية والأحذية الإيطالية تعطينا فرحاً كاذباً ومؤقتاً، أما الشعر فهو شجرة دائمة الخضرة والثمار، نلجأ إليه لكي تتحرر الأنثى من الخوف الذي تشعر به في منطقتنا العربية، فنخرج به من عالم التراب إلى عالم الضوء".

الرموز الدلالية

وتكثر الرموز الدلالية حتى لا نكاد نجد قصيدة دون رمز دلالي، وقد تتصرف بمعنى الرمز المتعارف عليه، وقد تؤدي الرمز بأكثر من معنى، معبرة بذلك عن حداثية القصيدة، حيث يستند الشعر الحديث إلى الرمز في الأداء، بوصفه من فنون التعبير التي يجيدها المبدعون، تمويهاً لما يريدون قوله بطريقة غير مباشرة، أو اختصاراً لما لا يحتاج إلى تفصيل، والمعروف أن استخدام الرمز يعبر عن ثقافة المبدع، وعن مطالعاته المتعددة ومخزونه الفكري والوجداني الواسع، وروحه الشاعرية وخياله الخصب، ومدى تمكنه من الإمساك بالمعنى المقصود، ومدى قدرته على إرواء نصه من معين ثري، ويتجلى ذلك بوضوح في القصائد التي تتناول المعركة ضد ديكتاتورية الرجل، فتلتقط من تراثها رموزاً تنقلها من الماضي السحيق إلى الحاضر.

وتمثل ثقافتها التاريخية أهم الأدوات التي تستعين بها في استخدام الرموز الدلالية، حيث تكثر من عرض الصور التاريخية، وتطوف بها من مرحلة إلى أخرى، وثقافتها التاريخية تمكنها من أن تغترف من التاريخ الغربي أيضاً، كما أن مشاركتها السياسية تجعلها تعرف أحداث الساعة في العالم، فنجدها تتحدث عن نكبات العالم والأمم، عبر المحطات التاريخية والأدبية القديمة والحديثة، العربية والغربية، الإسلامية وغير الإسلامية، وقد مكنها ذلك من امتلاك مخزون لغوي وقاموس ثري من المفردات، ومعجم ناضج يناسب كل مقال، وعلى الرغم من أنها عاشت في رفاهية وثراء، لا نجد في قاموسها اللغوي ما يعبر عن البريق والزهو، بل نجد فيه ما يعبر عن الفقر والفقراء وأنات المرض، وحين نجد مفردات تعبر عن الثراء مثل

البخـور والذهـب والمرجـان، فهـي مفـردات تـرد رمـوزاً للتعبير عـن الصراع.

وحـين تنتقـل إلى قصائـد الغربـة والحـزن تتبـدل مفرداتها، وتتوشـج جملها بالمناسـب اللفظـي، فـنرى الآهـات والأنـات والسـواد والكبد الحـرّى والجفون المقروحـة، إلى غـير ذلـك مـن الكلـمات التـي تعـبر بهـا عـن حالتهـا النفسـية المتعبـة، وتظـل مفـردات الطبيعـة ذات دلالـة نفسـية خاصـة لديهـا مثـل مفـردات المطـر والـبرق والبرتقـال والينبـوع والبسـاتين والنوافـير والحقـول والـبراري والصحـاري والنخيـل وغيرهـا، كـما تكـثر مـن اسـتخدام المفـردات الدالـة عـلى الحركـة الأسـلوبية الإنشـائية والحواريـة، ومـن اليسـير أن نلاحظ أن لديهـا الكثـير مـن المفردات الأرسـتقراطية التـي لا تسـتخدمها إلا في مجال السـخرية والتحقـير وليـس المـدح والتقديـر، وبهـذا تبتعـد عـن الأسـلوب الخطـابي التقريـري.

وتظـل لهفـة سـعاد الصبـاح إلى كتابة الشـعر مفتاحـاً لكل قـول وتعبيراً عن كل إحسـاس، مهـما كـثرت المشـاغل وتعـددت، تقـول: «إن اهتمامـي بوطنـي وبالقضايـا المطروحـة داخليـاً وخارجيـاً وعالمياً والمتصلة بي، تأخـذني إلى عالمها، فـلا أمنـح الكتابـة الوقـت الـكافي الـذي أريـد، كـما القـراءة، ولكن حـين يطل عليـك نـدى الشـعر، فإنـه وحـده القـادر عـلى إبعـاد المشـاغل عـن الطريـق، ويظـل التأثـير محـدوداً في أنـه يـؤدي إلى تأجيـل المراجعـة والنـشر فقط».

أصعـب مـا في الشـعر، تلك السـاعات التـي يحس فيهـا الشـاعر أن حنجرته لا تجـد طريقهـا بعـد إلى الـورق، تقـول: «سـاعات شـاقة عـلى النفـس، أحس فيهـا وكأن بركانـاً يسـكن صـدري، لكـن حلـول اللحظـة مـؤشر عـلى الانفجار الـذي يضـع حداً للمعانـاة والمخاض الإبداعـي الذي تعانيه كشـاعرة، فانفجار

الكلمات الأولى هو بمثابة القرص المهدئ للهيب البركان المتقد في الصدر، فإذا انفجرت الكلمات الأولى وشممت رائحة احتراقي على الورق شعرت بالراحة، هذا الانفجار لا يستأذن، ولا يعرف أي شاعر في العالم كيف تشكل القصيدة داخله، وتظل القصيدة مجموعة تراكمات ثقافية وحضارية وسيكولوجية، واحة تتجمع في العقل الباطن ثم يحدث الانفجار على الورق، دون أن نعرف متى وكيف».

الشعر -إذن- انفجار داخلي يتجسد عبر العناصر التي تصاغ منها العملية الإبداعية، انفجار في اللغة، انفجار في التعابير والصور، انفجار في الموسيقى، انفجار في الوعي الباطن، انفجارات تلو انفجارات تتلاحم لتنشأ القصيدة متحررة من سجن العقل وظلمته، فتخرج إلى رحاب الفضاء الواسع، لتُسمع صوتها ولتؤدي رسالتها، معبرة عما يتأجج داخل نفس الشاعر، وتظل القصيدة شهادة من دم ولحم، يقدمها الشاعر ليثبت أنه عاش حياته بكل فصولها وتحولاتها وصحوها وعواطفها، وتقول: «القصيدة هي التي تكتبني، فالشاعر لا يستطيع أن يفعل شيئاً أمام هجمة القصيدة عليه، ماذا تستطيع أن تفعل جزيرة صغيرة أمام حصار البحر؟ ماذا يستطيع الجنين أن يفعل حين تجيء ساعة ولادته؟ لا شيء، إنه يجد نفسه ملفوفاً بقماطته وموضوعاً على السرير وفي فمه البيبرونة، الشاعر الذي يقول إنني أفعل كذا وكذا، وأجلس إلى مكتبي الساعة كذا، وأستقبل القصيدة الساعة كذا، وأودّعها الساعة كذا، هو شاعر لا يعرف شيئاً عن ميكانيكية الشعر وكيمياء القصيدة، في عمقي الاقتصاد، كما السياسة نهاري، أما الشعر فهو ليلي الجميل الغارق بالنجوم وبالغيوم والأحلام، إنه الصديق الرائع الذي

أبـوح لـه بـكل شيء، دون أن يخوننـي، ألجـأ إلى الشـعر لأنـه المـكان الوحيـد الـذي أسـتطيع فيـه أن أصرخ بحريـة وأغنّـي بحريـة وأضحـك بحريـة وأبـكي بحرية».

إنهـا تحقـق بالشـعر وجودهـا وتعـبّر بـه عـن الحلـم والطمـوح، وتهـرب إليـه مـن معانـاة الواقـع، فيجتمـع الحس الإنسـاني والشـعري والـذوق الفني وصـدق المشـاعر وجمالية اللغة وعذوبتهـا، وجمالية الصورة وبسـاطة التعبير والثـورة عـلى التعقيـد والغمـوض، وعذوبـة اللفـظ، مـع وضـوح الرؤيـا ونبـل الهـدف، فتحقـق بالتـالي التواصـل الحميـم القائـم مـع القـارئ، تقـول: «إذا كنـت أسـتطيع أن أجلـس مع النـاس ببسـاطة، وأتكلم معهم ببسـاطة، وأنقل أحاسـيسي لهـم ببسـاطة، فلماذا أفعل العكـس؟ إن كل ما في الدنيا يسـتهدف الإيصـال، أي يفـترض وجـود طـرف ثـان يقـرؤه أو يسـمعه أو يتذوقـه، وحـين ينتفـي الطـرف الثـاني أي المتـذوق ينتفـي الفن».

بساطة اللغة

وبقـدر مـا تتسـم اللغة في شـعر سـعاد الصباح بالبسـاطة -كما تقـول- فهي البسـاطة المقرونـة بكثافـة المعنـى، دون تصنُّـع، بـل نتـاج عاطفـة صادقـة تنطلـق مـن ازدواجيـة الخـبرة الإنسـانية بـين الحلم والواقـع، وتشـابك الحياة بأفراحهـا وأحزانهـا، وتظـل تلـك المعـاني متحـررة مطلقـة الـسراح، وليسـت تعبـيراً عـن الـذات المتشـظية، إنمـا تجسـد الدراميـة التـي تلـون الحيـاة بلون الحـزن، وبمـا تعكـس مـا تملكـه مـن قـدرات فكريـة وجماليـة وفنيـة، تحقـق الجاذبيـة في صـدق التنـاول، والتجـاوب مـع مـا يسـكن أعـماق الإنسـان مـن

همـوم وقضايـا، وبالتالي هي لا تسـعى إلى الذاتية، وإنما إلى توظيف أشـعارها لخدمـة البشريـة، تقـول: «إن جاذبية الشـعر في صدقه وقدرته على اسـتيعاب مشـاعر وأفـكار النـاس والإجابـة عـلى أسـئلة التاريـخ، الشـعر حصـاد إنسـاني يوظـف لخدمـة كل البـشر، وليـس هنـاك شـعر حقيقـي يتوجـه إلى سـكان الكواكـب الأخرى».

إنهـا تؤسـس لشـفافية القـول، وتمنح رقـة الكلمات بعـداً يتجاوز مسـاحات الأخيلـة والأحـلام والمـدى، وتحـول الوجـود الوهمـي إلى وجـود حقيقـي، والوجـود الحقيقـي إلى وجـود متجمـل، وتسـتحدث جسـارة العاطفـة ونفوذ السـلطة، لا لتصبـح القصيـدة منحـة وهبـة الـروح فحسـب، بـل إنهـا غرفـة عقلهـا السريـة، فتنتـج لغـة تقـول كل شيء، بـل ربمـا تعيـد بنـاء اللغـة التـي تراهـن عـلى الحلـم المسـتحيل، وتسـتدعي الأصـوات في قصائدهـا، وبخاصـة أصـوات الطبيعـة، وتختـار اللفـظ والتركيـب، تختـار مـن الألفاظ ما تسـتأنس بـه، ومـا يفيـض بـه هاجسـها، وهـو الأمر الـذي كان يجسـد عظمـة أبي العلاء المعـري ودانتـي وجوتـه وبودلـير وتاجـور وغيرهـم.

وقـد تغيـب الطبيعـة لتتجـلى النفـس لحظـة الارتبـاط بالخيـال، كـما يقول الشـاعر المتصـوف وليـم بليـك[1]: «إن الـضرورة الكاملـة التي يبدعها الشـاعر لا يسـتخلصها مـن الطبيعـة، وإنمـا تنشـأ في نفسـه وتأتيـه عن طريـق الخيال، والخيـال عنـده هـو الرؤية المقدسـة وهو عـالم الأبدية»، وأهميـة نظرة كهذه ليسـت في تقديـر أهميـة الخيـال، بـل في أنهـا قـوة عليـا تنبثـق مـن داخـل الشـاعر حـين يكـون في حالة اتحاد بالأبدية واستشـفاف للرؤية المقدسـة التي

1- في الفترة (1757 - 1827م).

تعلـو عـلى الواقـع الحـسي، أي أن الخيال بالنسـبة له أصبح قـدرة صوفية على اكتشـاف العـالم الخالـد، أو العالم الحقيقـي الذي لا يعدو هذا العـالم الواقعي أن يكـون ظلاً شـاحباً له[1].

مأثورات من أقوالها:

- القصيدة خنجر في خاصرة الخرافة وقنبلة تحت قطار التخلف.
- يسـعى الشـعر لإنقـاذ الإنسـان مـن مسـتنقع الماديـة والأنانيـة والجرائـم والحـروب.
- الشـاعر الـذي ينحنـي أمـام الأمر الواقـع، ويعتبر أنـه ليس في الإمـكان أبدع مـما كان، عليـه أن يسـتقيل من الشـعر فوراً، ويذهـب إلى بيته.
- الشـعر كان وسـيبقى دائمـاً لسـان حـال العـرب، والناطـق الرسـمي باسـم أفراحهـم وأحزانهـم وأحلامهـم القوميـة.
- إذا فشـل بعض الشـعراء في أداء دورهم التغييري والنضالي، فإن الفشـل هو فشـلهم لا فشل الشعر.
- القصيدة السياسية تعبر عن حالة، وليست شقة مفروشة للإيجار.
- الشاعر يكتب ليجعل العالم أكثر جمالاً وأكثر حرية.
- مـا أضيـق العيـش في عـالم يتخـلى فيـه الشـعراء عـن مهمتهم السـامية، لأن تخليهـم عنهـا سـيحول العـالم إلى مقـبرة كبـيرة وغابـة للذئاب.
- لا أبالـغ إذا قلـت إن الشـاعر العربي كان بمثابة وزارة الدفـاع تحمي القبيلة، كـما كان وزارة إعلام ووزارة خارجية.

1- د.محمد فتوح أحمد ـ الرمز والرمزية.

- الشعراء كانوا يهزمون الحكومات ويهزون ضمائر الجماهير، وعلى رأس قائمة الشعراء الذين كانوا يهزون الدول، من سيف الدولة إلى طاغور، يأتي عملاق الشعر أبو الطيب المتنبي الذي كان سلطة فوق السلطان، وسقط الشاعر الإسباني العظيم لوركا برصاص الظلم وهو يقاتل قوات النازية والديكتاتورية، كذلك فإن صوت نيرودا كان يمثل صوت الحرية العظيم في أمريكا اللاتينية، وكان لصوت الشاعر الثوري ناظم حكمت دور في معركة التحرير من الظلم والتخلف.

- سيظل الشعر في عصر الكمبيوتر الفضاء الذي لا حدود له، والمغامرة التي لا نهاية لجنونها، سيكون للأجيال العربية القادمة شعرها وموسيقاها وثقافتها.

- إنني ضد كل من يقول إن الشعر العربي قد ضاع دوره، الكمبيوتر لا يمكن أن يقود مظاهرة أو يشعل ثورة أو يحرر امرأة من سجن النساء، ولكن الشعر قادر على ذلك.

- للشعر فضاؤه الخاص، كما للقلب شموسه ونجومه وأجرامه السماوية، لا أتصور أن أحداً يمكنه أن يهدد الشعر ويلغي صورته، إن رواد الفضاء استطاعوا بقيادة أرمسترونج أن يصلوا إلى قمر السماء وينتهكوا عذريته، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينتهكوا قمر العشاق.

- القول إن الشعر قد انتهى، وإن العصر قد استغنى عن الكلمة الجميلة والعاطفة الجميلة، وإن الحب قد انتقل إلى رحمة الله، والعشاق قد استقالوا، كلام افتراضي، إلا إذا تأكدنا أن القمر يمكن أن يستقيل وأن النجوم يمكن أن تنتحر.

- أزمة الحالة السياسية في المنطقة العربية بشكل عام، تنعكس سلباً على

حركة الشعر العربي المعاصر، وأعتقد أن منطقة الخليج كلها تعيش في حالة تراجع وانكسار، إن الخط البياني للشعر يميل إلى الهبوط، لأن المناخ إجمالاً هو مناخ إحباط وهزيمة، إذا قيس بمناخ الخمسينيات العظيم.

- أعطني عصراً ذهبياً مرة أخرى، وسأعطيك شعراً ذهبياً رائعاً مرة ثانية، إن الشعر لا ينفصل أبداً عن الظرف السياسي والقومي والحضاري للأمة، فحين كان العرب أقوياء وعظماء ومتألقين كان الشعر قوياً عظيماً ومتألقاً، أما في عصر الانحطاط والتمزق والهزائم، فإن الشعر يكون متمزقاً ومهزوماً، في العصر العباسي العظيم أعطينا للعالم المتنبي وأبا تمام وأبا العلاء المعري، أما الآن فليس لدينا ما نعطيه سوى أحزاننا.
- ظاهرة انحسار الشعر أمام هجمة التكنولوجيا لا تقتصر على الوطن العربي، وإنما هي ظاهرة عالمية، التقدم العلمي الهائل الذي حققه العالم خلال السنوات العشر الأخيرة على صعيد الاتصالات والأقمار الصناعية وتطور الأجهزة السمعية والبصرية، يشكل خطراً حقيقياً على الشعر، لأن الذين كانوا يشترون كتاب الشعر، بدأت تخطفهم صراعات العصر الحديث ولعبة الضوء والصوت وأشعة الليزر.
- لا أتصور أن الأجيال القادمة ستكون على علاقة طيبة مع المتنبي وأبي تمام وأبي نواس.
- صحيح أن الشعب العربي عاشق للشعر بحكم غريزته ومرتبط بالأوزان والقوافي ارتباطاً تاريخياً، ولكن من قال إن التاريخ لا يتطور والأدوات لا تتغير؟ طبعاً لن ينقرض الشعر نهائياً في القرن الواحد والعشرين، ولكنه سيجد طرقاً أخرى للتعبير عن نفسه.

- إذا استطاع شعري أن يتجاوز حدود المكان، ويذهب بعيداً ليذوب في وجدان الناس، فلأنه كان صوت من لا صوت لهم، وشفاه من لا شفاه لهم، وكان دائماً يثير القضايا ويطرح الأسئلة.
- أنا لا أختار كلماتي، هي التي تختارني، دفق يمنحني الله فيه التعبير بالكلمات، وهكذا تتسرب الكلمة الشعرية صورة أو تعبيراً ضمن المقالة، إن الشعر هو الذي يكتبني، قلت هذا وأعيده، لا أحد يعرف متى يتوقف قلبه عن الخفقان، إن كتابة الشعر ليست بيدي، والاستقالة منه ليست بيدي، والشاعر لا يستقيل، لقد وضعت نصب عيني الاستشهاد على ورقة الكتابة.
- إنني كأنثى أبقى دائماً خاضعة لقانون الأنوثة، إنني لا أريد إلغاء الرجل، لكنني أريد تحضيره بحيث يكون حبيبي وصديقي لا مستعمري.
- بهجرة الحب تصبح الكرة الأرضية برتقالة عفنة، إنها مجزرة حقيقية أكلت قلب أوروبا، وهي الآن تحاول أن تأكل قلوبنا.
- إن الحب الذي عرفناه قدّم استقالته، والعشاق القدامى أصبحوا عملة نادرة، والرومانسية أصبحت لغة من اللغات غير المستعملة كالمسمارية، والحقيقة أن الإنسان الذي استطاع بحماقته أن يثقب غلاف الأوزون الذي يحمي الكرة الأرضية، قد أحدث ثقباً كبيراً في غلاف القلب أيضاً.
- لو كنت رجلاً لجاز لي ما لا يجوز لي اليوم، حديث الحب بكل أجزائه هو التابو المحرم، جريمة تحاسب عليها الأنثى، لكنني لا أعبأ بالعواصف الرملية، فقد تجاوزت خطوط الحسابات هذه من زمن بعيد.
- الموهبة الحقيقية لا تستأذن أحداً لتتشكل على الورق، والمنبع الصافي لابد أن يثقب قشرة الأرض مهما وضعوا في وجهه من العراقيل والسدود.

• لقد حاولوا كسر عنقي لكنهم لم يستطيعوا كسر كلماتي، وحاولوا أن يرجموني لكنهم لم يستطيعوا رجم القصيدة، وحاولت مقصات الرقباء أن تقص كتبي ولكن كتبي تناسلت كالأرانب في كل بيت عربي.

الوجه الثالث.. المثقفة

تعتبر سعاد الصباح من أبرز الشخصيات الثقافية المرموقة في العالم العربي، وهي -كما ذكرنا- شاعرة وكاتبة وناقدة كويتية حاصلة على درجة الدكتوراه في الاقتصاد والعلوم السياسية من المملكة المتحدة، وتشغل عضوية العديد من الجمعيات الدولية ومؤسسات المجتمع المدني والمنظمات الحقوقية[1].

تبدى لها العمل الثقافي هدفاً خادماً لقضايا الوطن والأمة، فجاء عطاؤها في هذا الميدان سبيلاً لتحقيق ذلك الهدف، دون بهرجة أو سعي إلى الظهور أمام الكاميرات، أيقنت أن مسيرتها لن تخرج عن الإبحار في عالم المعرفة والدرس والبحث والتحصيل في تناسق تام مع المسيرة الشعرية النضالية، تقول: «إن أضواء الشهرة لا تعمي عيني ولا تفقدني صوابي، إن الشهرة سيف ذو حدين، فإذا لم يعرف الإنسان كيف يمسكه قتله، وبكل تواضع أقول أنا لم أصل بعد، ولا تزال أمامي مسافات طويلة لابد من أن أمشيها».

وفي هذا الميدان ظلت سعاد الصباح غارقة في البحث العلمي والدراسات العليا والإصدارات الفكرية في مجال الاقتصاد والسياسة وحقوق الإنسان، ليبرز وجهها كمثقفة مهتمة ومشتغلة بالشأن الثقافي والعلمي، وتوالت أنشطتها الثقافية والسياسية والاقتصادية بالمشاركة في العديد من الندوات

1- من السيرة الذاتية المعتمدة للشاعرة.

والمؤتمرات وإحياء الأمسيات في مختلف العواصم العربية والدولية، في القاهرة والخرطوم وعمان ودمشق والبحرين ودبي وتونس ومسقط والرياض وفاس ولندن وواشنطن وباريس وجنيف وغيرها، وواكب ذلك مساهمتها بالكتابة في الصحف والمجلات داخل الوطن العربي وخارجه، لتعبر عن آرائها في مقالات ودراسات اقتصادية وسياسية وأدبية، إلى جانب الكتب والأبحاث والدراسات والدواوين الشعرية، لتعيش بذلك جواً مليئاً بالنشاط الثقافي والعطاء الشعري والتأليف، وظل الحرص لديها متواصلاً في تشجيع تنظيم اللقاءات وإقامة المؤتمرات الثقافية وتمويلها والإنفاق عليها، مما كان سبباً في تلقيها بعض الهجوم من ذوي الأغراض الفاسدة، تقول: «كنت سأغضب لو اتهموني بتمويل مؤتمر يمجد الإرهاب أو الطغاة، أما الثقافة فدوري في تمويلها شرف لا أدعيه».

وقد تعرضت سعاد الصباح لحملات كثيرة ظالمة، أرادوا منها أن يجردوها من موهبتها، ومثل رمح أفريقي شديد الصلابة وقفت بموهبتها في وجه تلك الحملات، قوية ومؤمنة بقضاء الله وقدره، واثقة في نفسها، متخذة من ذلك صمام الأمان ضد أي إحباط، فمرت المحنة خفيفة أخف من ظلالهم تحت النجوم، ولم يبق لهم أثر سوى هلال مرتعش بين الأهداب، تقول: «لي هوية ثقافية اكتسبتها بالعمل والإرادة والتصميم وأثمرت شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، أنا امرأة تجمع الثورة والحكمة والفن».

ظلت تواصل دورها وجهدها في مؤازرة العديد من الأعمال الفكرية والفنية والأنشطة الثقافية والمجتمعية التي تمارسها المنتديات والجمعيات والمؤسسات الأدبية والفكرية، وتقول غير عابئة بمهاجميها ممن أرادوا أن

يصيبها الإحباط والتلاشي: «غير أني ما تعودت لأن أنظر يوماً للوراء، فأنا أعرف دربي جيداً، والصعاليك على كثرتهم لن ينالوا شعرة واحدة من كبريائي»[1].

ورغم كل المنغصات، بدت سعاد الصباح عازفة على أوتار مشدودة تهتز للسلبيات والمحن والآلام والآمال والتوقعات والإحباطات التي تنهش الوجدان العربي[2]، وقد حصلت -أمام جهودها تلك- على العديد من التكريمات العالمية كمثقفة عربية، حيث تقلدت وسام الثقافة التونسي للتفوق الثقافي، وجائزة الكويت في الآداب والفنون، كما حصلت على درع التفوق من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، ودرع الشرف من معهد العالم العربي في باريس.

وفي لبنان منحها الرئيس اللبناني وسام الاستحقاق اللبناني المذهّب، وكرمتها الجامعة العربية في القاهرة بمنحها لقب السيدة العربية المميزة في الثقافة والآداب، وتمت دعوتها من قبل الأمين العام للأمم المتحدة لحضور المؤتمر العالمي للمرأة في بكين بالصين، وذلك كضيفة شرف عام 1995م، وكان معها السيدات الأول للولايات المتحدة وفرنسا ونيجيريا ورئيسة وزراء آيسلندا.

وبالإضافة إلى ما حصلت عليه من تكريمات وتقديرات من مختلف أنحاء العالم، لدورها الثقافي في العالم العربي، اختيرت في 1986م من بين 10 نساء مؤثرات في مجتمعاتهن على مستوى العالم، كواحدة من عظيمات سيدات القرن الـ21 من قبل المعهد الأمريكي للسيرة الذاتية، والسيدات

1- انظر ديوان امرأة بلا سواحل.

2- وصف جاء على لسان الدكتور نبيل راغب.

الـلاتي تـم اختيارهن يشـكلن نخبة ذوات فكـر وثقافة اسـتثنائية وذوات تأثير متميـز عـلى العالم في العامـين 2006 - 2007م، وجاء هـذا الاختيار لتكون أول ممثلـة للمعهـد في الـشرق الأوسـط، نظـراً للمشروعـات الإنسـانية التي تقوم بهـا، وقـد اسـتقبلتها الملكـة بياتريـس ملكة الدنمـارك بهذه المناسـبة، وأدرجوا اسـمها على قائمـة شرف المعهد سـنوياً، وتقديراً لجهودها وإنجازاتهـا أطلقت وزارة التربيـة في الكويت اسـمها على مدرسـة «ثانوية سـعاد الصبـاح للبنات» في منطقـة المنصورية.

وإحياء لدور الكويت الثقافي وتأكيداً على أن الكويـت ليست نفطـاً فقـط بـل ثقافـة وعطـاء إنسـاني، وفي ظل ممارسـاتها الثقافية أسسـت شـاعرتنا دار سـعاد الصبـاح للنـشر والتوزيع، وجددت نشـاط الدار من القاهـرة بإصـدار مئتي عنوان خـلال عـامين وتتابـع نشاطها مـن مقـرها الرئيسي في الكـويت بإصـدار عـشرات العناويـن كل عـام، وقـد اعتـبر المهتمـون بالشـأن الثقافي أن دار سـعاد الصبـاح للنـشر تعـد من أهم دور النـشر الرائـدة في الوطن العربي، وتتميـز بأنشـطة واهتمامات تتخطـى حدود الشرق الأوسـط، فهي تهدف إلى تغطيـة الـتراث مـن ناحيـة، حيـث تعـاد طباعـة الأعـمال العلميـة والتاريخية لضـمان انتشـار أوسـع للمعرفـة بـين الأجيـال المعـاصرة، ومـن ناحيـة أخـرى تفخـر الـدار بنشر أعـمال حصريـة في الأدب والتاريـخ والقضايـا المجتمعية.

ومـن بـين مـا لاقت شـاعرتنا من هجـوم، اتهمهـا البعض بأنها أسسـت هذه الـدار لتنـشر شـعرها، لكنها ترفعت عـن دخول المعركة كمـن ينتظر ما يغمره نـدى الليـل، أهـو أكـثر أم قطـرات النـدى في الضحـى، فتقول: «لم أؤسـس دار سـعاد الصبـاح للنـشر، حتـى أنشر ما أكتب، شـعراً أو نـثراً، دار سـعاد الصباح

وجدت لتكون منبراً للأصوات المبدعة في كل قطر عربي، وتشهد لها بذلك مئات العناوين التي صدرت حتى اليوم، لقد تصورت حين تأسيس الدار، أن بمقدوري إضاءة شمعة ثقافية وأحسب أنني فعلت[1]، وقد قررت أن تكون الدار قاعدة لنشاطات ثقافية متعددة منها المسابقات الثماني التي كنا نستمر في إجرائها سنوياً منذ العام 1988م، حتى تحولت لتصبح كل سنتين، وذلك لإغناء التجربة وحرصاً مني على سويتها، أما عن الحد العمري 30 عاماً، فهو واضح من ارتباط المسابقات بالجيل الجديد الذي أردت أن أفتح أمامه نوافذ الضوء، قدر المستطاع، والغاية هي خدمة هذا الجيل. إذن كان الشرط العمري ضرورياً وأحمد الله بالقول إن التجربة كانت أكثر من رائعة، ويكفينا أن عدد المساهمين في مسابقاتنا العلمية والأدبية يتجاوز الخمسمئة مساهم، وهذا عدد كبير نفرح لمبادرته إلى إعداد الدراسات أو ابتكار النصوص الجديدة، لقد أصبحت (مسابقات الشيخ عبدالله مبارك الصباح للإبداع العلمي)، و(مسابقات سعاد الصباح للإبداع الفكري والأدبي)، علامة مضيئة على درب الثقافة العربية والحمد لله. ومنذ تأسيس الدار وضعت الحدود التي لا أقبل تجاوزها، ومنها أنه لا نشر للنص الذي يتعارض مع القيم، بكل أبعادها، نحن لسنا تجار شنطة ولا حسبت هذه الدار يوماً مصدر دخل، قليل أو كثير، بل هي دار مختصة بالخسارة المالية وبالكسب المعنوي الثقافي، للربح أبوابه وأساليبه وقد نذرت الدار لغرض أكبر من ذلك، وأذكر أنني في بداية التأسيس كنت أستشعر حاجة الكويت إلى رمز ثقافي جامع للأصوات العربية، وهذا

1- خلال أحد حواراتها الصحفية.

ما هدفت إليه الدار منذ تأسيسها الذي تم في ذروة محاولات المشوهين تجريد الكويت من سلاحها الثقافي وتوظيف الثقافة في ركب الطغاة، وأحسب أن هذه الدار قد شكلت جسراً عالياً للتفاهم الثقافي بين الكويت والمبدعين العرب».

والمعروف أن سعاد الصباح انطلقت إلى أروقة الحياة بكل قوة، وبدأت رحلة الاستشكاف والتعلم مبكراً، وبعد زواجها لم تركن إلى البيت وعش الزوجية، بل إنها انطلقت إلى أبعد من ذلك، ودرست الاقتصاد والتنمية، وهو التخصص الذي يرتبط بصلة عميقة بالسياسة والمجتمع، وهذا الاختيار يعد في ذاته استعداداً فكرياً، ورغبة في الارتباط بالقضايا الفكرية والسياسية التي تهم الوطن، كما أنها بانضمامها للعديد من المنظمات تؤكد أنها تحمل سمات الفكر الإنساني.

ولم تكن دراسة سعاد الصباح المتعمقة للاقتصاد، نوعاً من الجور على خياراتها الإبداعية التي تحددت في كتابة الشعر من فترة مبكرة من حياتها، أو باعتبارها الحقيقة الوحيدة الممكنة، بعيداً عن النص الإبداعي باعتباره الحقيقة المتخيّلة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، تقول: «لم أدرك يوماً مثل هذا التأثير، ولم أشعر به، ذلك أن دراستي للاقتصاد كانت في حد ذاتها هادفة إلى خدمة المجتمع، وليست مجرد دراسة للمبادئ والنظريات بشكل تجريدي. لقد أدركت منذ بداية وعيي أن الشعر ليس دراسة، وأن الدخول في كلية الآداب لا يخدم قضية الوطن، بقدر ما تفعل الدراسة في الميدان الاقتصادي الذي يحتاج إليه بلدي[1]، وقد عرفت من تجارب

1- من كلام سعاد الصباح عن نفسها.

الشعراء الأطباء، والقاصّين الأطباء، وكبار الأدباء المتخصصين في رحاب العلوم، أن الجمع بينهما ليس بالأمر العجيب أو المستغرب، وفي كل تجارب الآخرين، وفي تجربتي، طغت الكلمة الشعرية على كل المجالات الأخرى».

والمعروف أن سعاد محمد الصباح تترأس مؤسسة عبدالله مبارك الصباح الخيرية التي تأسست عام 1992م، وتقدم المؤسسة خدمات في مجالات متعددة تتراوح بين التعليم والصحة والاحتياجات الاجتماعية والشخصية، حيث تشارك في رعاية العديد من المراكز الاجتماعية والطبية والدينية، وتقول: «التزاماتي حددتها بنفسي لنفسي سواء في الحياة المعيشة أو في الحياة الثقافية، على تعدد مناحي إبداعها، وطبيعي القول إن الإنسان متأثر، وأحياناً محكوم، بمعطيات فرضتها عليه ثقافته الاجتماعية، ومنها التزامه الديني، ولكن أليس صحيحاً أننا نخلق حدودنا بإرادتنا، ونتمرّد على ما لا نريد حين يلزم، منذ وعيت، أدركت حدودي ورسمت فيها التغيير الذي يتناسب مع إرادتي دون أن أخرج على ثوابت، لا تزال عميقة الجذور في كياني، عرفتها وارتضيتها والتزمت بها».

وقد جمعت سعاد الصباح في جعبتها كمثقفة، بين العلمية والموضوعية في طرح الأفكار ومعالجة القضايا، وعرضت جوانب غير مباشرة، وابتعدت عن الوعظ والخطابية، متخذة خطّاً ثورياً تصادمياً لكنه غير صادم، وفرق واضح بين أن يكون صِدامياً وتصادمياً، وقد كانت تصادمية مع المجتمع بهدف التغيير، وكان الخط تشريحياً في عمق الحياة البشرية، وبخاصة في مواجهة الموروث الثقافي العربي، ومواجهة الظلم والتسلط الذي يمارسه القوي على الضعيف، ثم إنها كانت تركز دائماً على قضية تعالجها بحِرَفية

عاليـة هـي قضيـة الحريـة الفكرية في التعبير عن النفس، سـواء عنـد المرأة أو الرجـل، محاولـة -بـكل مـا أوتيـت من وسـائل الإقنـاع والحـوار- أن تبثت أنه لا فـوارق حقيقيـة بـين الاثنـين في هـذه القضيـة، وكثـيرة هـي المضامـين التـي طرحتهـا سـعاد الصبـاح في كتاباتهـا كمثقفـة ودافعت عنهـا ومنها:

المضامين الفكرية

- واقع المرأة العربية المأساوي وموقف المجتمع القبيلة منها.
- المرأة المثال والمرأة المرفوضة في المجتمع.
- المجتمع البدائي وصلته بالمجتمع العربي المعاصر.
- البلاد القبيحة التي تفرح بغياب الجمال.
- الحياة الناقصة المبتورة التي تغيب أجزاء مهمة منها.
- الجدب والقحط الفكري في المجتمع والغنى والفيض الأنثوي.
- التعامـل مـع الفيـض الأنثـوي، بكثـير مـن الرقي قبـل أن يجـف وينضم إلى قافلـة الأشـياء المجدبـة في حياتنا.
- احترام الرأي وحرية التعبير عند المرأة والرجل.
- اعتبـار الحيـاة فصـولاً أربعـة، لا جـمال بأحدهـا إن لم يأت الآخـر الضد له، وربما المتمم وحسـب.
- الإقرار بأن جمال أي بلد لا يكون إلا بجمال المرأة.
- التقدم إلى مستقبل عصرنا وعدم القبول بالعودة إلى البدائية.
- التماهي في الآخر والذوبان فيه حتى الفناء في ذاته وفكره.

- الجمع بين الأضداد وإبراز المتناقضات الألوانية والحرارية، مثل برودة الروح ودفء الجسد وصقيع المكان وحرارة الشمس والجليد البارد والأعصاب الحارة الملتهبة.
- الثنائية الكونية التي حين تفقد تتعطل الأشياء وتتوقف متعة الحياة الجميلة.
- العلاقة الأزلية بين المخلوقات، واقتسام لحظات الحياة، والسنن الكونية التي جعلها الله في خلقه.
- الهيمنة، حيث يهيمن الرجل على الأنثى أحياناً وتهيمن الأنثى على الرجل أحياناً، وتنتقل الهيمنة إلى المكان والزمان والذاكرة لتبرز في كل الأشياء.

المضامين الاقتصادية

أضافت سعاد الصباح للمكتبة العربية العديد من المؤلفات التي تتعلق باقتصاديات الدول المنتجة للنفط، منذ أن بدأت الكتابة في مجال تخصصها العلمي، ويتضمن ذلك أربعة عشر كتاباً والكثير من المقالات، وتعتبر جميعها مرجعاً للمهتمين بالأبحاث الاقتصادية الخاصة بالكويت، ومنطقة الخليج بشكل عام، ومن مؤلفاتها الاقتصادية:

- التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي.
- الكويت أضواء على الاقتصاد الكويتي.
- أوبك بين تجارب الماضي وملامح المستقبل.
- السوق النفطي الجديد.

• أزمة الموارد في الوطن العربي.

• المرأة الخليجية ومشاركتها في القوى العاملة.

وغير ذلك من المؤلفات التي شكلت نبراساً لتنمية الاقتصاد العربي وآليات مهمة لتطوير سبل ومناهج الاقتصاد الكويتي، بما يدر الخير على البلاد من مختلف النواحي.

المضامين السياسية

• النظر إلى عملية التحرر الفكري والاجتماعي للمرأة خصوصاً، وللإنسان العربي عموماً، بوصفه جزءاً من الهم السياسي العام، وهذا يعني أنه جزء من التحرر الوطني.

• النظر إلى النضال من أجل الإنسان بوصفه نضالاً من أجل الوطن.

• الوطن يحتاج إلى رؤية على الصعيد السياسي تنطلق من الإحساس السياسي المتفوق، وليس الإطار العفوي غير المنظم.

• الالتزام بالإطار الجغرافي والموروث الثقافي والمؤثرات الداخلية، بوصفها محددات لصنع الرؤية التي يحتاجها الوطن.

• الكويت هي الوسط البيئي الذي يجب أن تنطلق منه أي رؤية سياسية للوطن، وبخاصة أنها كانت مسكناً وملجأ لعدد كبير من القوميين العرب الذين اختاروها للعمل أو الثقافة، فأحدث ذلك نوعاً من التفاعل الذي كان مفتقداً في الكثير من البلدان العربية[1]، وجعل البيئة

1- سالم عباس خدادة ـ التيار التجديدي في الشعر الكويتي ـ المركز العربي للإعلام ـ الكويت ـ ط1 ـ 1989م ـ ص 61.

الكويتية قادرة على استيعاب الأفكار القومية أكثر من غيرها[1].

- إعادة النظر في المقولات المستهلكة حول ما يشير إلى الضعف والتفكك في الصف العربي، وإلى التخاذل الذي جر المصائب والويلات للشعوب العربية، خاصة قضية فلسطين التي يتجسد فيها البكاء على المجد الأمثل لهذه الأمة.
- التعامل مع التربة الفكرية والسياسية في الكويت بوصفها خصبة وليست مجدبة، بما فيها من الحرية الثقافية ووسائل الإعلام، وهذه التربة قادرة على احتضان الفكر الإيجابي لأجيال عديدة قادمة، وقادرة على التجاوب مع الفكر القومي الذي لا ينفصل عن الأفراد العاديين[2].
- الأدب لا ينفصل عن السياسة، والثقافة جسر بين الاثنين.
- السياسة بأبسط معانيها هي علاقة الفرد بالمجتمع من ناحية، وعلاقته بالدولة من ناحية أخرى، وهي علاقة جدلية يتجلى خلالها التأثير المتبادل بين الثقافة والسياسة والأدب، ومن الطبيعي أن يتأثر الأدب بالحياة السياسية وأن تنعكس تياراتها واتجاهاتها على فنونه.
- تعميق الوجدان الجمعي من خلال تأثير الأدب والثقافة في نفوس الأفراد، باعتبار أن الأدب والثقافة نتاج شعور وفكر، يساهم في بلورة النزعات.
- مواجهة هيمنة الاستعمار على مختلف الأقطار العربية فكرياً بعد انتهائه عسكرياً. والقضية الفلسطينية كانت في مقدمة تلك القضايا أو المضامين، وكان الهدف دائماً هو تنمية الفكر القومي بهذه القضية ومساندة

1- كان الشعراء الكويتيون: خالد الفرج وفهد العسكر وأحمد العدواني، أول من تناولوا الجانب القومي في شعرهم، وهم يمثلون مرحلة متقدمة من النضج الفكري في الكويت.

2- د.عمر الدقاق ـ ملامح الشعر القومي الحديث ـ جامعة حلب ـ ط 1990م ـ ص159.

حـركات النضـال ضـد الاسـتعمار في كافـة أرجاء الوطـن العربي.

- التواصل العربي من خلال كافة الوسائل لتعميق الرؤية الشمولية.
- تنميـة الانتـماء كليـاً، بمعنـى أن لا يكـون الانتـماء لـشيء واحـد فحسـب، بـل لعـدة أشـياء دفعـة واحـدة، مثـل الانتـماء لـلأرض التـي نشـعر معهـا بالامتـداد الطبيعـي للحيـز الجغـرافي والمـكاني، والانتـماء للفكـر الـذي لا يؤمـن بالحواجـز المصطنعـة، والانتـماء إلى الحـب والحريـة السياسـية.
- عـدم الارتـكان إلى الهـدوء والدعـة في مسـيرة تحقيـق هـذه الأهـداف، بـل لابـد مـن بـذل الجهـد والمثابرة.
- القـدرة عـلى توحيـد الكلمـة وإقنـاع الآخـر والواقـع المجـزأ وتقسـيمات الوطـن، وذلـك كلـه في حالـة مـن قـوة الرمـز وشـمولية الرؤيـا والانفـلات مـن قيـود الزمانيـة والمكانيـة[1].
- التركيـز عـلى عرض الثورات التحررية في العالم، لإنتاج خطاب سـياسي مباشر، ومسـاندة تلـك الثـورات والفـرح بانتصاراتهـا، والإعـلاء مـن أيديولوجيتهـا الفكرية.
- وبعيـداً عـن المناظـرات المجانية مدحـاً أو قدحاً، فإن سـعاد الصباح لم تربط تلـك القضايـا على مختلـف تنويعاتها بجانبها الشـخصي، مع أن الدراسـات الحديثـة عـلى وجـه الخصـوص تركـز تركيزاً واضحـاً على دراسـة الكاتب أو المبـدع، أيـاً كان نـوع نصـه، قبـل التعاطـي مع النـص، انطلاقاً مـن القانون يقـول إنـه قـد يكـون النـص تعبـيراً عن عـالم فشـل صاحبـه في أن يجده في

1- د.عـلي جعفـر العـلاق ـ الشـعر والتلقـي ـ في حداثـة النـص الشـعري ـ دار الشـؤون الثقافيـة ـ بغداد ـ ط1 ـ 1990م ـ ص 13.

الواقع، فاستراح إلى أن يتوهمه في النص[1]، وربما يرى البعض أن النص الذي تكتبه سعاد الصباح يمثل هروباً من فشل الواقع في تحقيقه.

الظواهر المستبعدة

تجنبت سعاد الصباح التعرض لعدد من الظواهر في خطابها العلمي والأدبي والإبداعي تجاه الآخر، من هذه الظواهر:

- ظاهرة زينة المرأة، مثل الزينة والإكسسوار والسفور والحجاب، حيث لا تعنيها هذه المظاهر بقدر ما يعنيها الفكر، وهي ترى أن هذه المظاهر لا تمثل عائقاً أمام تحرر المرأة، ومن ثم لم تكرس كتاباتها خارج إطار المشكلات الحقيقية للمجتمع.
- ظاهرة الرجل، فهو إما متسلط أو مسلوب الإرادة، حيث الأول يظل دائماً السبب في معاناة المرأة ومأساتها وأزمتها، حيث يمنح السلطة لنفسه ويمارسها على هواه، وأما الثاني فهو الذي يقع تحت تأثير المجتمع، وهي في هذا تنظر إلى الرجل في مشهدية أو كظاهرة، ولا تنظر إلى حالة واحدة بهدف الدراسة أو التمحيص.
- ظاهرة أنصاف الحلول، حيث ترفض تراث ألف ليلة وليلة، وترفض وصايا القبيلة، وترفض سلطة الموتى، هؤلاء الذين ورثنا عنهم آراءهم بتسليم مطلق.
- ظاهرة الصورة المركبة، حيث نجد أن الصورة المرسومة دائماً واضحة المعالم، لا غرابة فيها ولا تعتمد إلا على تتبع المعالم بشكل واضح لا إلغاز فيه، من خلال ومضات تترك أثراً في النفس.

1- د.أحمد درويش ـ متعة تذوق الشعر ـ دار غريب ـ القاهرة ـ ط1 ـ 1997م ـ ص 253.

- ظاهـرة الخيـال، وضرورة أن نخضـع الحالـة المزاجيـة فيما نكتـب إلى الحالة الانتقائيـة مـن الواقـع وليس الخيـال، وكانت سـعاد الصباح تنتقـي الحالة التـي تنسـجم مـع رؤاهـا، وتقـوم بصياغـة الفكرة وفـق معايـير محددة لا تخـدش حيـاء اللحظـة ولا تجرح نقـاء المتلقي.
- ظاهـرة التنـاول الشـخصي، ولعـل كل مـا أنتجته سـعاد الصباح يؤكـد أنها لم تخـط حتـى اللحظـة شـيئاً مـن تجربتهـا الشـخصية، أو مـا يمكن تسـميته السـيرة الذاتيـة، عـلى غنى تجربتها وحياتها، سـواء في مقالاتها أو دراسـاتها أو في حواراتهـا وفي سـيرتها العلميـة.
- ظاهـرة مـا بعـد الكتابـة، ونعنـي بها أن سـعاد الصبـاح لم يشـغلها الاهتمام بمـا يمكـن أن تواجهـه مـن اتهامـات في مرحلة ما بعـد الكتابـة، أو ما يمكن أن تواجهـه مـع غيـاب المـؤازرة الفكريـة والمادية والمعنوية لمـا تطرحه من أفـكار، والمعروف أن سـعاد الصباح تلقت الكثير مـن الاتهامات والتأويلات والتفسـيرات في الإعـلام والحيـاة، ومـا سـاعد عـلى المواجهـة والانتصار على كل الاتهامـات امتـلاك سـعاد الصبـاح رؤيـة ثابتـة غـير متأرجحـة لا تقبـل التغـير بين لحظـة وأخرى.

اعترافات امرأة شتائية[1]

ما لجنوني أبداً حدود

ولا لعقلي أبداً حدود

ولا حماقاتي على كثرتها

تحدها حدود

يا رجلاً يغضبه تطرّفي

من الذي يغضب من تطرف الورود

هذا أنا.. من يوم أن خلقت

أنوثتي ساحقة

عواطفي حارقة

شواطئي تضربها البروق والرعود

Confessions of a Wintry Woman

My madness knows no bounds

;My mind has no boundaries

though innumerable ،My follies

Can never have an end

1- سعاد الصباح ـ ديوان امرأة بلا سواحل (a woman without shores) ـ ترجمه إلى الإنجليزية: د.نهاد صليحة.

;I wonder my extravagant nature vexes you

?Who can get cross when flowers are in excess

:This ys the way I have been since I lived

،My womanhood is crushing

،My passions always burning

.My shores forever lashed by thunder and by lightening

الفصل الثاني
سعاد الصباح.. الأمومة وطن

وصلنا إلى العصر الحديث الذي نادت فيه المرأة بالمساواة، واعتبرت أن النضال من أجل ذلك هو قضيتها الأولى في الحياة، مدافعة عن حقوق حريتها المسلوبة، وفي مقدمة تلك الحقوق وضعها كأم ومربية مسؤولة عن تنشئة الأجيال وتربيتها، بل ومسؤولة عن الرجل أيضاً في وضعها كزوجة.

وعندما قالت سعاد الصباح: «بقيت أنثى لا تموت في كتاباتي وفي أشعاري»، كانت تقدم الدلالة على أنها مهدت الطريق لبنات جلدتها ليتعلمن شق الصخر وتحدي المجتمع الذكوري، وقد احتلت حقوق الإنسان وقضايا المرأة والطفل حيزاً كبيراً من نضال سعاد الصباح، ولديها إصدارات عديدة في مجال حقوق الإنسان، وتقول: «لا أريد أن أزعم شيئاً لنفسي ولكنني أحسب أن حياتي، وشعري ونضالي كان من أجل انتصار المرأة بنيل حقوقها الطبيعية، وكان حافز تشجيع لغيري. لقد سجل شعري وكتاباتي السياسية والاجتماعية خطاً واضحاً في معركة المرأة، وفي الدعوة إلى جعل وصولها إلى حقوقها هدفاً مستحقاً للنضال اليومي، أما الطفولة فإنها الوجه الآخر لمعركة حقوق المرأة، لأن المعركتين وجهان لقضية واحدة في بناء الإنسان الجديد الذي نعمل من أجل تعزيز صورته في حياة الوطن».

هذا الإنسان الجديد هو لب القضية، وهو المكسب الحقيقي من المعركة، سواء كان رجلاً أو امرأة، إنسان ينظر إلى المرأة باعتبارها نصف دينه

ونصف دنياه، لا ينتقص من حقوقها شيئاً، ولا يتعالى عليها، ولا يقهرها، ولا يحرمها من حريتها طالما كانت مربوطة بعدم التجاوز، ولا يضعها في كهفه منزوعة الأبواب، مقيدة اليدين، وليس عليها إلا أن تعلن السمع والطاعة في كل شيء، حتى لو خالف ذلك قناعاتها ورغباتها وأفكارها، ولا يصور لها أن ظله في الوجود هو ظلها، وأن ظله في الوجود هو الوحيد الذي ينير ظلمتها، حين تنبح الكلاب في عتمة الليل على حليب النجوم.

الإنسان الجديد كان هو هدف سعاد الصباح من نضالها من أجل المرأة، لأنها آمنت بأن المرأة لو امتلكت حريتها، ستكون قادرة على تنشئة أجيال أسوياء، وقادرة على تربية أولاد وفتيات رحماء بعضهم ببعض، يترفعون عن العيب، لا يعرفون الزيف ولا القهر ولا السحق والمحق ولا المرابطة من أجل المصالح الشخصية، وفي هذا كانت سعاد الصباح تفكر بعقل الأم وتحس بروح الأم، فليست المعركة من أجل أن تنال المرأة حقوقها المسلوبة فحسب، أو من أجل التمكين من مكاسب طال انتظارها، وإنما من أجل أن تبني رجلاً وامرأة، يعرف كلاهما قدر الآخر، فبدت أُمّاً للإنسان العربي، في أقصى الوطن وأدناه، ومن هنا لعبت سعاد الصباح دوراً مهمّاً كأمّ تحمل من معاني الأمومة السامية لأطفال الوطن العربي ما يجعلها أمّاً لهذا الوطن.

وترى سعاد الصباح أن المرأة حين أتيح لها أن تحقق بعض المكاسب فإن حضورها في المجال السياسي ظل ديكورياً، ووجودها صورياً لتحقيق مبدأ المناصفة فقط، واعتبرت أنه دائماً في كل انتقال سياسي في حكومات المجتمعات التقليدية الذكورية يكون حضور المرأة بسيطاً ويتم إرضاؤها

بمنصب أو اثنين، ويجب أن يتم تعزيز وضع المرأة أمام ما لها من مسيرة نضالية عظيمة، بداية من الحركة الوطنية إلى ما بعد الاستقلال، ومن غير المعقول أن يتم تجاهل هذا النضال، فهي الأم التي تربي وتعلم، ولديها الطاقة الكافية للمساهمة في نهضة الأوطان والمشاركة في صنع القرار، إذ إنها تصنع القرار في بيتها في غياب زوجها، وأحياناً في حضوره، فلماذا لا تصنع القرار في وطنها؟

ويمكن القول إن نضال سعاد الصباح لم يكن يستهدف المرأة فحسب، بل الطفل والمرأة والرجل، فانحازت منذ طفولتها إلى الضعفاء والمظلومين، وقد عبرت عن هذا الموقف في كافة كتاباتها شعراً ونثراً، وفي كافة مقالاتها ومحاضراتها، وقد ناضلت بشجاعة من أجل حصول هؤلاء على حقوقهم، سياسياً واجتماعياً، كما وقفت بصلابة مع حقوق الإنسان العربي، ولذلك منحتها المنظمة العربية لحقوق الإنسان بطاقة العضوية رقم واحد، تقديراً لدورها في تأسيس المنظمة والعمل فيها لأكثر من عشرين عاماً دون هوادة، ولا تزال سعاد الصباح تناضل في كل مكان من أجل حرية الإنسان وحقوقه[1].

تقول: «للبحر صفات ثابتة هي العمق والرحابة والغضب والهدوء والثورة، وإنني أرى في المرأة الكويتية بعضاً من كل هذه الصفات، المرأة الكويتية ظلمت نفسها حين جعلت صورتها تبدو وكأنها نسخة مزورة بالتقليد لغيرها، المرأة الكويتية لمن يعرفها أم حقيقية، وفارسة حقيقية، وربة سفينة، وعاشقة طبيعية، وقيادية الروح، إن نماذج بهذه الصفات

1- من السيرة الذاتية المعتمدة للشاعرة.

كلها نجدها في المرأة من حولنا، وعندما ندقق النظر سنعرف أن المرأة الكويتية اليوم تبدأ مشوار حياتها بثقة وعنفوان وستنجح في إثبات كونها البحر وابنة البحر».

وتتناول سعاد الصباح دائماً في آرائها ومقالاتها المواضيع التي تحمل تجذراً وقرباً للمرأة الأم من الواقع، في سهولة يزيد في عمقها المنحى الفلسفي الذي يختبئ تحت عباءة الحكمة والخبرة والتجربة، وهي لم تخيب رجاء المرأة الأم في خيارها المبكر في ترك التفاهات لتتمكن من القيام بمسؤوليتها في عظائم الأمور، وتشدد على ضرورة العمل لتصل المرأة لأن الطريق شاقة، مطالبة كل امرأة بأن تقوم بنضال حقيقي يلقي شاي الضحى وثرثرة القيل والقال جانباً، وأن تثبت أنها قادرة على أن تقوم بدورها وتتحمل مسؤوليتها في صنع الحياة الجديدة، فتقول: «من أعماق الحزن أقول لا، لقد تراجعت عربة التمرّد القادرة على اجتياز السدود وازدادت المعيقات قوة، واكتسبت أحلامنا مناعة العجز عن اختراق الحجب. إنني حزينة لأن المرأة هي المتراجع الأول، وهي الجسر الذي يبني عليه خصومها مسارهم، لقد شهدت السنوات المنصرمة بعض الانتصارات النظرية، ولكن واقع المرأة العربية اليوم ليس في أحسن مشاهده، بالطبع هناك مؤثرات على الثورة تولد نارها، ولكن بالمقابل هناك مياه غزيرة تجهزت لمواجهتها ولإطفاء شعلتها المقدسة، إن المرأة العربية ليست مدعوّة للثورة على غيرها، بل على نفسها أولاً لتخرج من قارورة العطر أو قارورة الزيت التي حبست نفسها فيها، كنت أدعو المرأة للثورة على العقلية الذكورية، وأنا اليوم أدعوها إلى الثورة على ذاتها لأنه ما لم تحقق انتصارها على هذه الذات،

فـكل انتصار آخـر يبـدو باهتاً».

ويقـول الدكتـور سـمير سرحـان عـن سـعاد الصبـاح في كلمـة بليغـة تصـف مشـوارها النضـالي ضد الرجـل ومن أجل المـرأة والطفل[1]: «لم يقتصر شـعرها عـلى التعبـير عـن مكنون المـرأة، عقلها وروحهـا، وإنما عبرت أيضـاً عن الرجل، فليـس شـعرها مـن قبيل الشـعر النسـائي بـل هو شـعر عظيم وكفـى، فهي لم تكـن تعـبر عـن المرأة فقط، عـن كل ما يجول داخـل قلبها وعقلهـا من أسرار، إنمـا كانـت تعـبر عـن الرجـل الشرقـي بـكل مـا يحملـه عـلى كتفيه مـن تراث العنجهيـة والتعـالي وثقافـة القبيلـة، كـما تحدثـت أيضـاً عـن مشـاعر الرجـل ليـس فقـط تجـاه الأنثـى، وإنما تجـاه الموقف الإنسـاني.

خاضـت سـعاد الصبـاح الحـرب ضـد القبيلـة، لا قبيلتهـا فقـط، وإنمـا قبيلة العـرب أجمعـين، وقبائـل العـرب لا تعرف سـوى قانـون الرجـل وتعتبر خروج نسـاء القبيلـة عـلى هـذا القانـون نوعـاً من التمـرد غـير المقبـول ولا المحمود، لقـد عملـت بـإصرار وعزيمة لا تلـين على أن تكسر قانـون القبيلـة لتصبح ذاتاً منفـردة ونسـيجاً وحدهـا، يرتفـع صوتهـا في كل مـكان تطالب باحـترام عقلها واحـترام قلبهـا واحـترام إنسـانيتها، لقـد رفضت سـعاد الصباح للفتـاة العربية أن تكـون مجـرد وجـه حسـن أو جسـد جميـل، رفضـت مواضعـات فرضتهـا عليهـا التقاليـد الصارمـة التـي سـلبتها إنسـانيتها وحولتهـا إلى مجـرد فـرد من الدرجـة الثانيـة في جماعـة يحكمهـا الذكـور، تلتزم بمـا تقولـه الجماعة وتفعل مـا تؤمـر، فاكتشـفت روحهـا وأصبحـت صوتـاً قويـاً أصيـلاً فريـداً يعـبر عـن

1- رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب الأسبق «رحمه الله».

العصر بكل مفرداته[1].

من هنا يمكن التوقف أمام محورين لثورة المرأة وفقاً لما تنادي به سعاد الصباح؛ هما الثورة على العقلية الذكورية، وثورة المرأة على ذاتها، ولعل محصلة هاتين الثورتين هي الثورة من أجل الطفل العربي.

أولاً- الثورة على العقلية الذكورية

ليس هناك وصف أدق وأبلغ تعبيراً للعقلية الذكورية للرجل العربي في بعض المجتمعات العربية، من هذا الوصف الذي وسمته به سعاد الصباح، فهو في ازدواجية ما بين نظرته للمرأة التي يشتهيها، ونظرته للمرأة التي تحت لوائه، فهو يبيح لنفسه ما لا يبيح لها، وهو يسمح للمرأة التي يشتهيها ما يمنعه عن المرأة التي تحت لوائه، كما أن عداءه للمرأة وتظاهره الشكلي بمظاهر الحضارة أشبه ما يكون بتقدمي ينتمي إلى عصور الجهل والخرافة والظلام.

وقد خصصت سعاد الصباح مساحة كبيرة من شعرها ومقالاتها وإنتاجها الأدبي للتحاور مع هذا النمط من الرجال ومواجهته وكشف قصوره الفكري وممارساته القمعية ضد المرأة، ورأت أن هذا النموذج الفحولي لا يجد غضاضة في ابتزاز المرأة واستغلال مشاعرها، وفرض شروطه عليها[2]، وامتهان كرامتها، وهو لا يعاملها باعتبارها إنساناً حراً يملك إرادته وخياره، ولكنه يعاملها كأرض للفلاحة شأن كل إقطاعي، ويعاملها كقطعة أثاث

1- من مقدمة ثابتة لسلسلة إصدارات حملت عنوان «دراسات في شعر سعاد الصباح» طبعتها مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب 2004م.

2- صورة المرأة في شعر سعاد الصباح ـ الغلاف الأخير ـ هيئة الكتاب ـ القاهرة ـ 2004م.

قديمة مهملة كبائع أثاث، ولا يتورع عن انتهاج أساليب القمع والبطش والإيذاء النفسي، والبدني أحياناً، والترويع معها[1].

وقد أنتجت سعاد الصباح دفاعاً عن المرأة ضد العقلية الذكورية الكثير من الدواوين الشعرية، من أهمها «أمنية» و«في البدء كانت الأنثى» و«فتافيت امرأة»، وغيرها، وفي جميعها تجلت الرؤية المنطقية مع الحياة، والرؤية المتوازنة تجاه الرجل، دون أن يكون الخطاب مباشراً يعتمد على الوعظ، إنما على الحوار والإقناع، وطرحت مجموعة من التساؤلات والقضايا المهمة التي اتسمت بمحاولة الاستماع للآخر، وتفنيد المقولات الممكنة[2].

في هذا الجانب تكشف كتابات سعاد الصباح بوضوح آلامها العميقة لمعاناة المرأة وعذاباتها وانتكاساتها، وكيف أنها وقعت ضحية القهر والغلبة، وما أدراك بالرجال حين يمارسون القهر ضد الإنسان! ألم يستعذ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من قهر الرجال، حين قال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»؟ لقد ظلت المرأة نتيجة لقهر الرجل شاحبة النفس والروح، مسكونة بالمخاوف، لا تثق في نفسها ولا في قدرتها على الحياة، ولا ترى في كل ما حولها سوى جدران ذلك المجتمع الذكوري الذي تسير فيه الحياة وفقاً لقوانين الذكورة مقابل تهميش المرأة، وتقول سعاد الصباح: «المرأة العربية مغلوبة على أمرها، ومعاناة المرأة ومعاناة الوطن هو ما جعلني أضع القضيتين في

1- كان ذلك من أهم الأسباب التي أظهرت فيما بعد الجمعيات العاملة في مجال مناهضة العنف ضد المرأة في المجتمع العربي.

2- الأنثى في شعر سعاد الصباح ـ الغلاف الأخير ـ هيئة الكتاب ـ القاهرة ـ 2004م.

ملـف واحد».

والوطـن نسـيج لحمتـه الرجـال والنسـاء معـاً، وعطاءاتهـم متكاملـة، فـإذا اختـل دور المـرأة في حياكتـه جـاء رثّـاً مهلهـلاً، وتتجـلى أولى صـور القهر الذي تمارسـه العقليـة الذكوريـة في أن المـرأة هـي الأكـثر تعرضـاً للمراقبـة، فـما مـن امـرأة -كـما تقـول سـعاد الصبـاح- إلا وهـي مراقبـة في حركتها وأنفاسـها وأفكارهـا، وعواطفهـا ورسـائلها وحقيبـة يدها، ولهـذا لا تجد المـرأة أحياناً إلا الورقـة والقلـم، لتقـول مـا لا تسـتطيع أن تقولـه أمـام مجتمـع لا يعـترف إلا بـكلام ومنطـق الذكـور وذكاء الذكـور.

إنـه نـوع مـن البـوح القهـري الـذي تبـوح فيـه المـرأة عـما بداخلهـا، وهـي تشـعر بأنهـا مقهـورة ومسـحوقة، وما قيمـة الكتابة التي تكتب دون الشـعور بالحريـة؟ ولقـد كانـت لي مشـاركة في أحـد المؤتمـرات قدمـت خلالهـا ورقـة بحثيـة حـول المـرأة وتجليـات الـذات المبدعـة في الخطـاب النسـوي، وقلـت مـا نصـه إن حريـة التعبـير هـي الـشرط الأول لوجـود إبـداع صحـي، إبـداع طليـق، يتمتـع بفضـاء واسـع مـن التأمـل، ويحفـل بمنـاخ طبيعـي ومسـاحة رحبـة تتيـح الحـوار الـذي يقبـل التناقـض والخـلاف والاختلاف، ومـن الحرية تتخلـق الإرادة والقـوة والثقـة بالنفـس، وطالمـا ظـل الرجـل يسـحق المرأة في حريتهـا، فمـن أيـن يأتي إبداعهـا الصحـي الطليق؟ ومـا الكيفية التي يتشـكل بهـا إبـداع مسـحوق؟ علينـا أن نعـترف أن الرجـل يبـدو الآن معيقـاً لحركـة الإبـداع النسـوي، ولـو اعترف الرجل بـأن كل مبدع يسـتطيع أن يصنع تجربته الذاتيـة بنفسـه، فهـا نحـن الموصوفات بتـاء التأنيـث نعلنها صريحـة واضحة، لـن ننحنـي بعـد اليـوم لغـير الكتابـة، وشروطها وطقوسـها.

ومن تلك الصور أيضاً قهر المرأة الأم، وقد استطاعت سعاد الصباح أن تجعل قضية المرأة الأم من القضايا الكبرى التي تصب في بوتقة التنمية، وقبل أن نطفئ النار، علينا أن ننظر للتاريخ العربي وطريقة تعامله مع المرأة الأم، ودعونا نكن صريحين مع أنفسنا، ولا نتوهم أن الفترات الحضارية التي مررنا بها كاملة أعطت الأم حقها في التفكير وحريتها في التعبير وحقها في تحمل مسؤوليتها في التنشئة، وعاملتها بما لا يليق بها كمربية أجيال، صحيح أن التاريخ شهد خلفاء وولاة وحكاماً قربوا النساء ومنحوهن امتيازات كثيرة، ودعموا أوضاعهن في بعض الفترات، لا ننكر ذلك، ولكن لا نغفل أن كثيراً من النساء اللاتي وجدن الدعم والرعاية كن من تلك الطبقة المحظية التي تحتمي بالسلطة وتتنعم بجنتها، وتدافع عنها، وهو ما لم يتوفر لمعظم النساء.

ومن صور التعالي والعنجهية وتراث القبيلة داخل العقلية الذكورية أيضاً، التشهير بسيف الوعد والوعيد والتهديد عند الاختلاف في الرأي، والتعرض لسيل من الأسئلة والشكوك تصل إلى حد الطلاق لو بادرت المرأة الأم واتخذت قراراً من بنات أفكارها دون الرجوع إليه، سواء بشأن بيتها أو لنفسها أو لأولادها، وحين تنطق المرأة الأم بالحكمة فهي في نظر الرجل مدعية، ولا تسلم من الهجوم والاتهامات من أدعياء الذود عن الدين وحرماته، ومن الذين ينصّبون أنفسهم أوصياء على حماية حقوق المرأة في الإسلام، ولا يتشدقون وقتها إلا بحقوق الرجل الواجب أن تحترمها المرأة وتحافظ عليها وتنفذها، وواجباتها تجاهه التي لابد أن تلتزم بها قبل أن تطالب بحقوقها وواجباته نحوها.

ناهيك عن القمع الذي تعانيه من مواقف كثيرة طبيعية يمكن أن تحدث في حياة المرأة، من بينها أنه ممنوع أن تتحدث بألفاظ الحب أو الاشتياق أو الوجد، أو أن تشكو قلقها إزاء الوجود أو غياب الرجل، أو أن يظهر في حياتها من يشجعها تحت مبرر أنهم ذوو نيات سيئة، ويجاملونها طمعاً فيها، فضلاً عن انتشار مجالس القيل والقال التي تمنع الاختلاط والاستماع إلى المرأة وإجبارها على الانطواء على نفسها، إلى غير ذلك من مظاهر الرصد الاجتماعي التي تكشف عن حجم ما تتعرض له المرأة من حرمان من التعبير عن نفسها، بسبب علامات الاستفهام والشكوك القاتلة التي تواجهها.

ونقطة أخرى أولتها سعاد الصباح أهمية كبيرة، تتعلق بفكرة المنافسة بين الرجل والمرأة، وفي هذا الأمر نرى طاقات النساء معطلة، والكفاءات العالية ممنوعة من المشاركة، في إصرار على التهميش وتثبيط العزيمة والهمم، ويظل المجتمع يتخبط في المشكلات والصراعات التي يمكنها لو شاركت في وضع الحل، لجاءت النتائج إيجابية، لكن يدور المجتمع في حلقة مفرغة نتيجة هذا التهميش والاستبعاد، وسيطرة النظرة الطبقية الاستعلائية والانتقاص بلا مبرر، تقول سعاد الصباح: «بما أن الرجل -تاريخياً- هو الذي يملك سلطة القرار، ومفاتيح الحكم والمؤسسات، فمن الطبيعي أن يعتبر دخول المرأة إلى مجال عمله وسلطته نوعاً من المنافسة، وكل منافس بصورة عامة غير مرغوب فيه، واستناداً إلى هذا الواقع الذي يلعب فيه الرجل دور المشرع والمنفذ، فإن المرأة، أي امرأة، لا يمكنها أن تؤدي أي دور إداري أو سياسي أو علمي أو ثقافي، إلا إذا كانت ترتكز

عـلى رجـل يقـف وراءهـا، ويكـون مؤمنـاً بقدراتها الذهنيـة والعلميـة. ورغم أن بعـض ديـوك القبيلـة لا يزالـون يتبجحـون بالتقدميـة والعصرنـة والتحضر، فإنهـم يرتعشـون غضبـاً لسـماعهم عـن نجاح أيـة دجاجة في أي فـن. إن قلة مـن رجالنـا هـي التـي تسـتطيع أن تتغلب على عقـدة الرجل الحاكـم، وتقبل أن تتخـلى للابنـة أو الزوجـة أو الشـقيقة عن الامتيـازات التاريخيـة، وصعوبة اخـتراق جـدران الدولـة التـي هـي -شـئنا أم أبينـا- دولـة الرجـل التـي تحكم عـلى طريقة الـشركات محدودة الأسـهم، لصعوبة التشـكيل البنيوي للمجتمع الـذي لا يـزال يعتـبر خـروج المرأة مـن دارها للمشـاركة في بنـاء المجتمع نوعاً مـن الخـروج عـلى التقاليـد، وكل مـا تسـتطيع أن تخطط له هو قائمـة الطعام وألـوان أثوابهـا وأحذيتهـا، حتـى اختيـار أسـماء أولادهـا لا تسـتطيع أن تقرره وحدها».

ولا أحـد يختلـف في أن الإقصـاء المتعمد للمرأة والتعطيـل الإرادي لقدراتها، قـد نتجـت عنـه ظاهرة اسـتفحال أمراض المجتمـع، بكل المجـالات المجتمعية والسياسـية والاقتصاديـة والثقافيـة، بـل إن الأوضـاع المتدهـورة التـي يعانيها المجتمـع العـربي تعـود إلى هـذا الإقصـاء، واسـتبعاد المـرأة مـن المشـاركة في وضـع خطـط التنمية المعتمـدة في البرامج التشريعية والتنفيذية، واسـتبعادها أيضـاً مـن الوقـوف على المـسرح السـياسي والاقتصـادي والثقافي، الـذي يلعب فيـه الرجـل كل الأدوار، ويحتكـر فيـه كل الأفكار، تقـول: «لا صوت يعلو فوق صـوت الرجـل، إنـه المغنـي الوحيـد في أوبرا الحيـاة، وكل النسـاء كورس».

ألا يتطلـب هـذا الوضع تغيـيراً ومراجعة؟ تغيير المـوروث الثقافي ومراجعته، وتغيـير التقاليـد والأعـراف السـائدة ومراجعتهـا، وتغيـير منطـق الرجـل

ومفاهيمه ومراجعتها، وتغيير منطق المجتمع وأفكاره ومراجعتها، وتغيير منطق الدولة وقوانينها وتشريعاتها ومراجعتها، ألا يتطلب هذا الوضع ثورة تحرر الرجل من شهواته الثلاث، سلطة المال وسلطة الجاه واشتهاء النساء؟ فإلى اليوم لا يرى الرجل في المرأة سوى ما يرضي رغباته وفحولته، ولم تفلح الثقافة ولا التحضر في تصحيح ما يستقر في عقله الباطن، تجاه المرأة، حتى إن الانفتاح على المعطيات المستحدثة لم يفلح في إزالة ما يعيق التقدم والنماء ويخالف المنطق في الذهنية الذكورية.

وحتى لا يفهم نضال سعاد الصباح من أجل حرية المرأة على أنه تسيب وانفلات، تقول: «إنني لا أؤمن بالتسيب والفلتان، ولا بالنقل عن نموذج الحرية الأوروبية، فللمجتمع الغربي جذوره وميراثه ومكوناته، وللمجتمع العربي جذوره وميراثه ومكوناته، إن الحرية التي أطالب بها للمرأة، هي الحرية التي تسمح لها بأن تختار دون أن يختار أحد عنها، وأن تقرر دون أن يقرر أحد عنها، أن لا تكون هناك حراسة على أفكارها وأحلامها وتطلعاتها المستقبلية. الحرية رغيف ساخن يقتسمه الرجل والمرأة معاً، وليس من المعقول أن ينصرف صاحب المخبز بكل الخبز، ويترك لزوجته الفتات، وإذا لم يفهم صاحب المخبز أن نظام السخرة قد انتهى، وأن العاملات في المخبز لهن نصيب من الإنتاج، فسوف يأتي يوم يجدون فيه صاحب المخبز محترقاً داخل فرنه».

وهكذا استهدفت الثورة ضد العقلية الذكورية تصحيح وعي الرجل وإيقاظ ضميره، ليعرف أن مصلحته ومصلحة المجتمع في فك الحصار الذي يصنعه على المرأة، وليست الثورة موجهة لكل الرجال، بل الذين

لديهم عقلية متسلطة ويستأثرون بكل المزايا، كما أن المناداة بتحرير المرأة مرهونة بتحرير الرجل، مما لديه من أفكار حول امتيازاته التاريخية التي لا يقبل أن يتنازل عنها، ومن ثم على الرجل أن يتنازل شيئاً عن تلك الامتيازات، لتستقيم أمور الحياة بصورة تلقائية.

ثانياً- ثورة المرأة على ذاتها

في هذا الميدان دعت سعاد الصباح المرأة إلى أن تغير من نفسها، وأن تمتلك القوة على أن لا تشكو من الموروث والعرف، وأن تتمسك بالروح القتالية في مجتمعها شديد الخصوصية الذي يمنعها من أن تتحدث عن سيرتها الذاتية، أو أن تستعرض لمحات من حياتها أمام الرجل، أياً كان الرجل، وأن تتجاوز طور التشكل العقلي والبلورة، وتجنيس أفكارها وأعمالها بصبغة الأنثى، لتصنع من نفسها كياناً فاعلاً في المجتمع ومشاركاً في مسيرة الحياة، من واقع مشاركتها في صنع حياة مستقرة هادئة لأسرتها، وأن تسمي الأشياء بأسمائها الصحيحة والحقيقية، وأن لا تنفر من خواطر الآخرين، وأن تضع أقدامها على الواقع لا على الخيال أو على كوكب مجهول.

وتوصي سعاد الصباح المرأة بأن لا تنساق وراء لحظات الفرح الغامرة أو لحظات الإحباط الهائلة، وأن تصنع من نفسها القدوة لغيرها، أبناء وجيراناً وصديقات، وأن لا تلقي بمطالبها جزافاً في فضاء المثاليات، وأن يكون لها شغف بالتعلم والقراءة، بل والانغماس في بحر العلم والمعرفة، لتسليح نفسها بما يمكنها من أن تؤدي الرسالة التي تتحملها، في خدمة أبنائها وفي خدمة وطنها وفي خدمة البشرية والإنسانية بشكل عام، ولتكسر المقولة

التـي يرددهـا الرجـل دائمـاً مـن أن المرأة بنصـف عقل.

وعـلى المـرأة أن تؤهـل نفسـها لتكـون نـداً للرجـل، وهـذا يقتـضي منهـا أن تتحـلى بسـلوكيات تجعـل منها امـرأة صالحة، تراعـي تهذيب نفسـها واحترام نفسـها ليحترمهـا الآخـرون، وأن تتجنـب التـدني في كل شيء، قـولاً وعمـلاً، وأن تـترك مظاهـر الخلاعـة وتنهـج طريـق الجـد والاسـتقامة، وأن تمـارس دورهـا الأسري والمجتمعـي بمـا يجـب من الوعي والتفهـم والالتزام، وهـذا كله معناه أن تعلـن ثورتها على نفسـها وذاتها، وعلى أمشـاطها ومبـارد أظفارها، وأزيائها وملابسـها، وعـلى حالـة الاستسـلام والخنوع والرضـا بالقسـمة والنصيب.

ثالثاً- الثورة من أجل الطفل

تـرى لـو غـيّر الرجـل مـن أفـكاره القبليـة ومـن قناعاتـه التاريخيـة، وغيّرت المـرأة مـن سـلبيتها، وقامـت بدورهـا الأسري والمجتمعـي كـما يجـب، هـل سـتكون النتيجـة غـير أطفال أسـوياء بـلا عقـد ولا تعقيـدات ولا عصبيات ولا عنصريـة؟ ألا تكـون النتيجـة جيـلاً جديـداً يقـوم عـلى العـدل واحـترام الآخر، الـذي هـو الإنسـان بشـكل عـام، بغـض النظر عن جنسـه وعـن بيئتـه وفقره وغنـاه، لا يمـارس العنـف في الصغـر ولا يمـارس التحرش في الكبر؟ هل سـتكون النتيجـة سـوى مجتمـع يقـود كل فـرد فيـه قاطـرة التنميـة إلى جانـب الآخـر دون تعـال أو عنجهيـة أو طبقيـة؟ ألا تكـون النتيجة وطناً يتقـدم ولا يتقهقر، وطنـاً يتكامـل ولا يتنافـس، وطناً يتكتـل ولا يتفرق أو يتـشرذم، وطناً ينتج ولا يسـتهلك، وطنـاً يصـدر ولا يسـتورد، وطنـاً يشـار إليـه بالبنان؟

إنهـا المعادلـة التـي لـو طبقناهـا لكانـت النتيجـة في صالـح الجميـع، الرجل

والمـرأة والطفـل ذكـراً كان أو أنثـى، فالرجـل سـاعتها لـن يـدور حـول أسـئلة وشـكوك لا تنتهـي، والمـرأة وقتهـا لن تـدور في سرية حول ضفائرهـا وأظفارها وثيابهـا وزينتهـا، والطفـل لـن يـدور حـول نفسـه وعالمـه الصغـير بحثـاً عـن قـدوة يقتـدي بهـا، والمجتمـع لـن يـدور في حلقـة مفرغة مـن المتاهـات التي لا تعـرف اليقـين ولا التسـليم ولا القديسـين ولا الـروح والريحـان، مجتمـع لا يعـرف إلا الـصراع والهـوس والعبـث والجنـون، ولا يعـرف الفـرق بـين الأحمر والأخـضر والأسـود، فـكل الرايـات تعبر عـن الهزيمـة والاستسـلام، وكل المعارك تقـود إلى الهـلاك، وكل الانتصارات محض وهم بغيـض، وكل المقيمين لاجئون.

انظـروا كيـف يمكـن أن يتغـير وضـع المجتمـع برمتـه لـو تغـير وضـع المـرأة فيـه؟ انظـروا كيـف يمكـن أن يسـتفيد المجتمـع من الطاقـات الخلاقـة للمرأة في كل المجـالات، بدايـة مـن تنشـئة الأبنـاء في أحضـان الأسرة وحتى المشـاركة في صنـع القـرار؟ انظـروا لمـاذا سـبَقَنا العـالمُ المتقدم في تحسـين أوضـاع المرأة، بينـما هـي في الإسـلام قد كرمـت أعظم تكريم؟ لمـاذا لدينـا في المجتمع العربي إصرار عـلى أن يظـل دم المـرأة مهـدراً، ننكـر إن سـمعنا صيحته، ونشـهد بأننا لم نـره، وأنـه حـين سـال كان شراباً للعابريـن، وكان كثيفاً لكنـه لم يمس الجباه، وكان شـاحباً بلـون النجـوم، وكان وكان وكان، إلى غـير ذلـك مـن خيال.

لمـاذا لا نعيـش الواقـع؟ ولماذا يظـل مجتمعنا ينظر إلى قضايـا المرأة بوصفها نوعـاً مـن الرفاهيـة الفكريـة؟ أو هي نشـاط مجاني؟ لمـاذا نكتفي بـأن تصيبنا مسـحة مـن الحـزن وتكسـو وجوهنـا هالة مـن الانكسـار لو اسـتمعنا إلى من يتحـدث عـن تهميـش دور المـرأة في المجتمـع؟ أمـا آن الأوان لنحـرك الميـاة الآسـنة لنجعلهـا أكـثر عذوبـة وقابلـة للحيـاة؟ أمـا آن الأوان لنصنـع زلـزالاً

يعيـد الأمـور في حيـاة المرأة إلى نصابهـا، وفي واقعها الاجتماعـي، ويحررها من القيـود التـي أثقلتهـا سـنوات وجردتها مـن آدميتها؟

هـل خلـق اللـه سـبحانه المرأة جسـداً فحسـب؟ المـرأة لم تكن جسـداً بقدر مـا كانـت روحـاً تبحـث عـن فضائهـا وتحققهـا، وعـن اكتمالهـا الحقيقـي مع الآخـر، المـرأة لم تخلـق للتغـزل بهـا فحسـب على أنهـا عنصر جـمالي تجميلي، أو كائـن يسـتهوي الرجـل التغـزل بـه، ويتفنـن في إبـراز عواطفه تجاهه سـلباً أم إيجابـاً، ولا أظـن أن الجـرأة التـي تعلمتهـا المـرأة في العـصر الحديـث، هي جـرأة الخـروج عـلى التقاليـد، لكنهـا كانـت جـرأة البـوح والتعبير عـن الأحلام والضعـف الإنسـاني، جـرأة البكاء بدلاً من الموت كمداً بمـيراث العقد والكتمان وإلغـاء الذات[1].

موضة الخطاب النسوي

أخـذ البعـض عـلى سـعاد الصبـاح، هـي وغيرهـا ممن اتخـذوا مـن موضوع تمكـين المـرأة قضيـة لهـن، أنهـا كانـت مثـل الـذي لا يجـد مـا يشـغله، فـراح يختلـق اهتمامـات مـن قبيـل شـغل وقـت الفـراغ، ليـس إلا، أو هو نـوع من ركـوب الموجـة، إذ انـبرت الكثـيرات من الكاتبـات في الدفاع عن المـرأة واتخاذ قضيـة تمكينهـا مـن العوامـل التـي تحقق الوجـود والشـهرة، وكأن الأمـر مثله مثـل رشـة العطـر التـي تـترك أثـراً في النفـوس حـين تهـبّ عليهـا، وذلـك مـن واقـع كلام سـعاد الصبـاح نفسـه عن نفسـها، تقـول: «لم أعان مـن شيء كهذا، لا في صغـري ولا في شـبابي ولا في زواجـي، لم أعـان مـن ازدواجيـة، كـما لم أعان

1- إسماعيل مروة ـ المرأة في شعر سعاد الصباح.

مـن ظلـم الرجـل أو قمعه أو نرجسـيته».

لقـد تـردد مـراراً أن سـعاد الصبـاح ذات مكانة اجتماعيـة مرموقة وهي من الصفـوة الاجتماعيـة، كـما أنها لم تعان أي مشـكلة مـما تعانيه المـرأة العربية، وليسـت لديهـا مشـكلة في حريـة التعبـير، فهـي تعـبّر عـن نفسـها بالطريقـة التـي تراهـا مناسـبة، كـما أنهـا تملـك الوسـائل التـي توصـل صوتهـا إلى أبعـد مـكان، أليـس أمـراً غريباً أن تحمل شـيخة من سـلالة الملوك والأمـراء والحكام عـلى عاتقهـا قضيـة حقوق المـرأة، وتأبى إلا أن تقاسـمها فيها العنـاء والمعاناة؟ أليـس غريبـاً عـلى امرأة تنعمـت في الدلال والرقـة، طفلة وصبيـة وزوجة وأمّاً وجـدة، وتمتعـت بـكل الحقـوق والحريـة، أن تتبنـى قضيـة الدفاع عـن حرية المـرأة وحقوقهـا؟ بـل هـي التـي اعترفت كثـيراً كثيراً بأنهـا لم تحرم مـن حرية، وبخاصـة في بيـت زوجهـا، ذلـك البيـت الـذي يُفـرض فيـه عـلى المـرأة حـين تدخلـه سـياج مـن المحرمـات والواجبـات التـي تقيدهـا بدرجـة أكـبر مـن أي مرحلـة عمريـة أخـرى، فقـد كان زوجها الشـيخ عبدالله المبارك إنسـاناً عصرياً متفتحـاً إلى حـد كبـير، تشـهد عـلى ذلـك قصائدهـا وكتاباتهـا ومحاضراتهـا ومشـاركاتها في العديـد مـن المؤتمـرات والنـدوات والأمسـيات، إذ لم يتـوان أو يقـصر في مؤازرتهـا وشـد عضدهـا لتسـتغل موهبتهـا الفكريـة والإبداعيـة في النضـال الثقـافي والفكـري أفضل اسـتغلال.

ألم يكـن مـن الأولى بأمـيرة منعَّمة مثل سـعاد الصبـاح أن تكتب حين تكتب، عـن موضـوع إنسـاني مثـلاً يتركز حـول العلاقة بـين الرجـل والمـرأة، وأن تتخذ مثـل هـذه العلاقـة طابعاً رومانسـياً إذ يبـدأ الحب بين الشـخصيتين من خلال لقـاء العيـون لأول مـرة، وسـط أجـواء طبيعية رقيقـة تتوافق واللقاء وتسـاعد

عـلى إنتاجـه؟ ألم يكـن أولى بهـا أن تتنـاول مـن الموضوعـات والمعالجـات مـا يناسـب وضعهـا الأسري والعائـلي، بـدلاً مـن أن تتصنـع الاهتـمام الديكـوري الـذي يضعهـا في مقدمـة من يريدون الظهـور على الشاشـات وأغلفة المجلات وصفحـات الجرائـد وعـلى مختلـف أحجـام الملصقـات؟ ألم يكـن أولى بهـا أن تصـف في شـعرها وكتاباتهـا أنواع وسـبل الحريـة والنعيم والجـاه الذي يمنعها مـن أن تتـسرب إلى أعـماق مجتمـع يزخـر بـكل أنـواع الفقـر والمـرض والعوز حـين نهـوي فيـه إلى القاع؟

ثـم كان هنـاك مطـب آخـر، وجهـوا الاتهـام فيـه إلى سـعاد الصبـاح، تجـلى في موضـة الخطـاب النسـوي المناضـل مـن أجـل حقـوق المـرأة، حيـث راحت النسـاء الكاتبـات والعامـلات في العمـل الخدمـي العـام وفي الجمعيـات والمؤسسـات الأهليـة والمجتمـع المـدني يشـاركن في سـاحة المعركـة، واختلفت النوايـا، فكانـت هنـاك مـن اتسـم نضالهـا بإطـار شـكلاني فـارغ لا يسـمن ولا يغنـي مـن جـوع، وقليـلات هـن مـن اتخـذن خطّـاً ذا إطـار إشـكالي حقيقي، تـدور في نطاقـه أيديولوجيـا الحـركات التحرريـة النسـوية الغربيـة.

ولم يكـن يُفهـم ذلك إلا على أنه يشـكل ركيزة أساسـية ضمـن جملة المعايير التـي تقـوم عليهـا تلـك الحـركات، وبالتـالي فهـو يمثـل بـؤرة مركزيـة مميـزة داخـل النسـق الإبداعـي النسـوي المعـاصر، ويشـكل -في الوقت نفسـه محوراً أساسـياً للوصـول إلى معنـى جملة القضايا التي تثار داخـل الكتابات الإبداعية المختلفـة مـن شـعر أو روايـة أو قصة قصـيرة أو مـسرح، أو أيديولوجيا الأنوثة السـائدة هناك.

وظهـرت في السـاحة النضالية على الطرف الآخـر بالتزامن مع الصنف الأول،

مجموعة من الكتابات النسائية التي قامت على تنوع الخطابات البارزة، كالخطاب الثقافي والتاريخي والسياسي، وبقيت الكاتبات من هذا الصنف أسيرات الأطر التي يتناولنها بمفاهيم مغلوطة، ذلك لأن هذه المفاهيم بنيت لديهن من خلال التعايش مع الأعراف الاجتماعية التي حلت محل الدين -أي الأحكام الفقهية التشريعية- فظلت التجربة الدينية لديهن محبوسة داخل هذا الحيز الضيق والمغلوط، مما رسخ لديهن الوعي بأن القيام بتجربة دينية جديدة لا يكون إلا بتحطيم تلك القيود وتجاوزها إلى الفكر التحرري الجديد، الناتج من منابع ومسارات الحركة النسوية الغربية بالدرجة الأولى، والعربية بالدرجة الثانية.

هؤلاء رسمن لأنفسهن حدوداً للمعرفة الدينية المتجاوزة لمثل هذه المعايير والمقاييس، وحاولن في الوقت نفسه إنتاج مفهوم للدين نابع من واقعه التاريخي إلى جانب التجربة الذاتية، وبهذا سعت المرأة الكاتبة في مسايرة موضة النضال من أجل حقوق المرأة، إلى أن تتحدى الأحكام الدينية القائمة، ونقصد هنا الأحكام العرفية وليست الفقهية، وسعت إلى تكسير قوانينها وتشريعاتها لتؤسس لها ديناً جديداً خاصاً بها، تشرع فيه تشريعاتها الأنثوية الخاصة وتقيم من خلاله طقوسها الدينية الجديدة، وتتمرد عبره على قوانين الدين والعرف والمجتمع، بهدف بناء الذات وتأسيس إمبراطورية الأنوثة التي ترسخ من خلالها أيديولوجيات جديدة، وفق ترانيم لغوية مغايرة.

والحقيقة أن سعاد الصباح بريئة من ذلك، ولن يكون موقفنا مدافعاً عن كاتبتنا بقدر ما هو دفاع عن المبدأ، ودفاع عمن تحملت عبء

النضال من أجل تمكين المرأة من حقوق تاء التأنيث، وقد كنت واحدة من هؤلاء اللاتي بذلن جهدهن في سبيل ذلك، مخلصات لا نريد إلا وجه الله ولا نبتغي إلا رفعة الوطن، واللافت أن المرأة العربية المبدعة بعد أن نهضت بوعيها الجديد، كان سعيها إلى تمزيق الأطر الصلبة للمركزية التي تتسم بضيق الأفق، وإلى القضاء على وحدانية بعدها في فهمها للأدب والفن والحياة، وقد كان السبيل إلى ذلك عن طريق إبداع نصوص وكتابات محملة بالأيديولوجية الأنثوية[1].

وقد أطلقت سعاد الصباح هذه الأيديولوجية الأنثوية وأعلنت صرختها، ورفضت رفضاً صريحاً وقاطعاً فوضى تشتت الذات الأنثوية داخل مجتمع يتبنى الرياء بامتياز، ولهذا كان لزاماً عليها أن تنادي بتأسيس عالم المرأة الجديد الذي يليق بها، لتبحر عبره إلى قضايا الوجود والحياة، دون أن تتيه في غياهب الفكر اللا محدود بعيداً عن الدين والمجتمع، ولترسخ الحضور القوي والوحيد للأنا الأنثوية من خلال النظر إلى الحياة بعيون تطرح آراءها الذاتية وتصوراتها الخاصة، فتكشف الواقع وتفضحه، وتنقد وتوجه، وتعري المركزية المرتبطة بأحكام الواقع المتزمت الذي ينحصر في الوعظ والإرشاد، دون السعي إلى الارتباط بالعلوم ومواكبة تحديات العصر[2].

ولم تكن كلماتها موجهة لإدانة الخطاب الديني المعاصر بقدر ما كانت كلماتها خطاباً ينتقد العجز واللا فعالية في عصر صراع الحضارات وتقاتلها، وينتقد المجتمع الذي لم يسع إلى مواكبة علوم العصر، وبخاصة العلوم

1- حسن حنفي ـ التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ لبنان، ط5 ـ 2002م ـ ص: 113.

2- خناتة بنونة ـ الغد والغضب ـ منشورات وزارة الثقافة ـ 2006م ـ ص: 233.

الإنسانية كالفكر والفلسفة اللذين يحققان الوجود الحقيقي للإنسان، وهي لم تكن تترك المشهد ناقصاً، ولم تكن تعيد ترتيبه وتستكمله من أجل الشهرة أو أن تلم الضوء في عباءتها، بل حاولت أن تتلمس شقاء بنات جلدتها، وأن تتمثل معاناتهن، وما يعشنه من ظروف تحت قمع الرجل، وقد كان قمعاً متعدد الألوان والأشكال، كان منه المتوارث التلقائي، وكان منه الحاضر المصطنع والمتعمد، فضلاً عما يخططه المجتمع الذكوري القابع في معسكر القمع من سياسات جائرة ومعاملات تفقد المرأة كرامتها، وتزيد من عذاباتها، وترفع من درجة تعرضها للتعسف والحرمان واستغلال الأنوثة.

وما يعزز من موقف سعاد الصباح الفكري، أنها أرادت لبنات جنسها أن يحصلن على ما حصلت عليه من حرية، وأن لا تكتفي بأن تعبر عن رأيها، أو تكتفي بالتمني، وأرادت أن تتحرر أرواح الأخريات كما تحررت روحها، كانت مقاتلة وصاحبة رسالة وأمّاً مسؤولة عن المرأة العربية، لم تقف عند ذاتها وآمنت بأن الكلمة سلاح للتغيير فأرادت أن تدافع عن الحقوق المهدرة والأحلام المنكسرة، لدرجة أننا نجد خمسة وعشرين نصاً تتضمن قضايا المرأة، بداية من مجموعتها «أمنية» حتى «خذني إلى حدود الشمس»، وفيها ركزت على موضوع المرأة وعرضت لنا جوانب غير مباشرة بعيداً عن الوعظية، بل كان التناول ثورياً محرضاً على التغيير.

وكمن يحمل الظمأ وحده عن العطشى أو يواجه الليل وحده ليسمع وشيش الريح، أو كمن يملأ عين الماء الصغيرة المفقوءة بلا ماء، اختارت سعاد الصباح أن تنسلخ من جلد الشيخة والأميرة وترتدي عباءة بنات

جنسها الشقيات، لتناضل بجانبهن بإيثار وتضحية، وقد نجحت في قيادة قوارب الكفاح التي شقت العباب المتلاطم لتفضح زيف السياسات، وتفك أسر المقيدات داخل الزنازين المعنوية تحت ديكتاتورية الرجال، شاهرة سيف كلماتها لتستعيد ما انتقص من وجودهن وحياتهن ومكاسبهن.

كان لديها الإصرار على التعبير عن عذابات النساء وحرمانهن من أبسط حقوق الإنسان، وهي الحرية، فقد خلقنا الله أحراراً، مؤمنة بأن صدق الإنسان يتجلى حين يتكلم بلسان الآخرين، وحين يدافع عن كرامتهم المهدرة، وحين يتقمص أدوارهم وهم لا يملكون الدفاع عن أنفسهم، ويبذل كل ما في وسعه من أجل تحقيق هذا الهدف، ألم يقل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «إن لله عباداً اختصهم بقضاء حوائج الناس»، وطوبى لمن كان صوتاً لمن لا صوت له، وطوبى لمن تلمس حوائج الناس ليقضيها، تقول سعاد الصباح: «عندما أتكلم فإنني أتكلم بضمير المقموعات المسجونات اللاتي لا صوت لهن، وأعتبر نفسي صوت من لا صوت له في هذه الأمة، إن استطعت».

ولم تكن إدانة سعاد الصباح للقيود المكبلة للمرأة في عالمنا العربي، وعملها على تكسير هذه القيود، إلا نوعاً من التمازج بين الذات والموضوع، ذات المبدع التي تعاني وهي تخوض تجربة التعبير عن معاناة الآخر، وهو أمر يصعب فصله، كما لم تكن الإدانة لأشكال القمع لصالح المرأة فحسب، بل كانت لصالح الرجل والطفل أيضاً، في تصور البعد الإنساني الذي يتجاوز هوية الذات المبدعة المشخصة في جانبها المجتمعي، وذلك انطلاقاً من أن سعاد الصباح كانت أمّاً حقيقية للإنسان العربي، والأمومة وطن.

هـل تعـرف النسـاء كل الجهـات؟ هـل تـرى السـيدات العلامات الإرشـادية التـي تقودهـن إلى الطـرق السـوية المسـتقيمة الآمنـة؟ هـل يمشـين في اتجـاه السـهم أم عكسـه؟ هـل يعرفـن أن السـهر طوال الليـل مهلكـة للأعماق؟ هل يعرفـن كيـف يمشـين عـلى أقـدام خفيفـة كالأجنحـة؟ الأمـور كلهـا تختلط في عالمنـا العـربي، وكلهـا أمـور تمسـك بهـا في عالمنا العـربي يد متوحشـة، ألا يحق لمـن غـاب هـداه أن يجـد مـن يهديـه؟ كانـت سـعاد الصبـاح أمّـاً، والأمومـة وطـن، تناضـل مـن أجـل أن تعـرف النسـاء حقوقهـن، إذ كثـيرات لا يعرفـن، وكانـت سـعاد الصبـاح أمّـاً والأمومـة وطـن، تبتسـم في وجـه النسـاء وتلقـي عـلى وجوههـن السـلام، كانـت تهرول بالمـاء نحوهن لـتروي عطشـهن، كانت ككل أم تمـلأ الصبـاح تغريـداً والربيـع صداحـاً، ولم تسـمح للشـمس أن تحرق أجسـادهن، ولم تسـمح للغـروب أن يحبسـهن بـين حجريـن أو صخرتـين، ولم تسـمح لرنـين الأجـراس أن يصـم آذانهـن، وكل مـا فعلتـه سـعاد الصبـاح أن جعلـت حنـان الأمومـة طعامـاً وشراباً وكسـاء وأمانـاً لهن، أبعـد كل هذا يقال إنهـا كانـت تركـب الموجـة؟ أو كانـت تمثـل دوراً لا يليـق بها أو لهـا؟ أو كانت تعيـش تناقضـاً وازدواجيـة شـقت لهـا بـئراً في أرض الهزيمة؟

اختـارت سـعاد الصبـاح أن تكون أمّـاً للجميع، والأمومة وطـن، وقفت تصد الريـح عـن المـرأة من الجهات الأربع، ولم يتسرب الشـك إلى أحد على مسـتوى العـالم المتحـضر، في مصداقيـة الشـعور الفعـلي بمعانـاة النسـاء المحرومـات وقضايـا حقوقهـن لـدى المجتمعـات الناميـة، ووجّـه لهـا الأمـين العـام للأمـم المتحـدة الدعـوى لحضـور مؤتمر بكين، وشـاركت مدافعة عن حقوق الإنسـان عمومـاً، كـما وقفـت تقاتـل جراثيم السياسـة بصـدق مع الـذات، وإخلاص في

المشاعر الإنسانية، تعبر عن معاناة الإنسان، وبخاصة المرأة[1].

كم ناضلت سعاد الصباح كأمّ ضد إرث التقاليد والأعراف الجائرة، وكم ناضلت من أجل مواجهة الاستسلام لتلك التقاليد التي يقوم عليها بناء الولد والبنت، الشاب والفتاة، وبدرجة أدق ضد قواعد السلوك التي تفرضها المجتمعات على الشاب والفتاة منذ حداثة سنهما، فالولد يتعلم كيف يقهر الفتاة والفتاة تتعلم كيف تكون خانعة خاضعة لهذا القهر، مهما كانت سنهما، هو يأمر وهي تطيع، ولو بهز الرأس، هو كماء يغور في التراب، وهي كنبتة تشرب هذا الماء لتكبر وتترعرع، هو يتمثل مصاباً بالعرق في شمس الصيف، وهي ريشة ترطب سجدة النجوم فوق الأديم، وهي الظل وهي الدفء وهي الاحتواء، وهي السكن الآمن حين تنبح الكلاب في ظلمة الليل، وهي العود الأخضر حين تكون الحياة يابسة، بل هي جهازه الطبي الذي يحافظ على ضغط دمه منتظماً في معدله، ويمنع نسبة دهونه من الارتفاع، ويحافظ على نسبة السكر في الدم، ويحافظ على ذبذبات مزاجه من التقلب، وعلى ترددات مشاعره من الاختراق.

تقول سعاد الصباح: «حين كنا فتيات صغيرات، علمونا أن قواعد السلوك والحشمة تفرض على الرجل أن يتكلم وحده، وتكتفي المرأة بهز الرأس، كما علمونا أنه عندما يغني الرجل فإن على المرأة أن تطرب بالإكراه»، ألا

1- كثيرة هي النماذج والحالات التي تدخلت سعاد الصباح لرفع الظلم عنها، من بينها مشكلة إحدى المطربات مع الإذاعة والتليفزيون، ولم يكن تدخلها تحيزاً للفن، إنما استجابة لنداء الضمير واقتناعاً بالحق ونصرة للعدل، ثم تعددت الحالات التي كانت على نفس الشاكلة، بداية من المطربين ومروراً بالكتّاب والأدباء والمبدعين والمثقفين، وحتى البسطاء والمتعبين، وكل من طالته شظايا الظلم والجور، أو أنات القيد والمعاناة.

يكـون ذلـك نافـذة للأفعـال الشـاذة والغريبة في المسـارات المتعـددة للحياة؟ ألا يعطـي ذلـك الحـق للولـد أن يفعـل مـا يشـاء، حتى لـو وصل بـه الأمر إلى ولعـه برائحـة الشـواء، أو أن يعتـبر الخـوض في شـؤون الريـاح والبـشر عنـصراً مهيمنـاً في التعامـل مـع الآخريـن، أو ركيزة أساسـية في مسـيرة الحيـاة، أو ربما ينظـر إليـه بوصفـه الطابـع الاجتماعي الذي يتجـلى من خلال الحيـاة اليومية لـلأسرة العربيـة، أليـس ذلـك مـما يدعـو إلى السـخرية، ولعلـه بالفعـل «شر البليـة مـا يضحك».

إن تغيـير مـا يشـكل الفضـاء الاجتماعـي مـن تقاليـد، وما له مـن خصوصية متجـذرة في الحيـاة الكويتيـة، وبخاصـة في مظهرهـا الشـعبي الـذي يحفـل بتفاصيـل الحيـاة اليوميـة، وصراع الخـير والـشر، كان الهـدف الأسـمى الـذي سـعت مـن أجلـه كاتبتنـا، في محاولـة لأن تنصب ميـزان العـدل والإنصاف، إذ كيـف تمنـح التقاليـد للذكـر كل الامتيـازات على حسـاب الأنثـى؟ وكيف تظل نظـرة الرجـل إلى المـرأة منـذ الصغـر حتـى نهايـة العمـر، بوصفهـا مسـتهلكة وغـير منتجـة، وعبئاً تسـكن السـلبية واللامبـالاة، رغم ما حققتـه من تفوق في مختلـف الميادين؟ وكيـف لا يرى الرجل فيـما حققته من نجـاح أي امتيازات تختـص بهـا، مختزنـاً في عقلـه الباطـن ووعيـه الظاهـر أن مـا حققتـه لم يكـن ليتحقـق لـولا تمركزهـا حـول ذاتـه هـو؟ مما يجعـل منه سـيداً وهـي خادمة، في كل المواقـع، ويجعـل منـه بـئراً وحيـدة وهي السـاقية، ويجعـل منه الذئب الأوحـد والجميـع مـن حولـه نعاج.

الهدم البناء

تلك مسألة أخرى، فقد تساءلوا كثيراً -مستنكرين- ماذا فعلت سعاد الصباح بمجتمعنا ونسائنا؟ هل ما تناولته من قضايا في نضالها من أجل المرأة كان هدماً لقيم مجتمعنا وأعرافنا، أم كان من أجل بناء قيم جديدة تؤسس ثورة على كل ما هو معطل ومعيق لحركة المجتمع؟ هل ما فعلته سعاد الصباح كان في صالح المرأة بوصفها زوجة وأمّاً ومربية أجيال، أم كان في صالح الشيطان الذي أغواها لتسير في ركب كل الشعارات الجديدة المزيفة التي نادت بها الكاتبات؟ هل كان الخطاب النسوي هادماً لكل القيم التي ربّينا عليها بناتنا أم كان يعيد صياغة تلك التربية بأفكار ومفاهيم جديدة؟

إننا لو سلمنا جدلاً أن ما فعلته سعاد الصباح كان هدماً، فإنه لم يكن هدماً من أجل التخريب، إنما كان هدماً من أجل التغيير، كان هدماً من أجل البناء، كان هدماً بنّاء، والهدم التغييري متأصل في تراثنا العربي منذ القدم، وقد كان في معظمه خروجاً على المألوف بالاستعانة بالحقيقي الأصيل، فأبو الطيب المتنبي شق الطريق نحو المستقبل بهدم أسوار الاعتقال الفكري، وبناء أنماط جديدة تعكس انغراسه في التراث من جهة، وتجاوز ظلال التركة المعطلة والمعيقة من جهة أخرى، فجعل من معرفته العميقة بالتراث ثورة تفجير داخلي لمكونات ثقافته في الأساس، ليولد من أعماق الثورة الفكرية أسساً جوهرية، بنى عليها حاضراً للمجتمع يقوم عليه المستقبل[1].

1- د.مها خير بك ناصر ـ الأنثى واقعاً ورؤيا ـ الأنثى في شعر سعاد الصباح ـ هيئة الكتاب ـ القاهرة ـ 2004م ـ ص 132.

وفي رأي طه حسين أن عملية الهدم البنّاء في أي مجتمع يشعل فتيلها الأدب، لأنه القادر على إيقاظ المشاعر والأحاسيس، وتحفيز فاعلية الرفض والتمرد، فالأدب في رأيه يمهد للثورة وينشئها، لأنه يثير النفوس ويبغض إليهم بعض أطوار الحياة التي يحبونها.

كذلك دعا جبران خليل جبران -على هذا المستوى من الرؤية العميقة- بالكلمة الجريئة، إلى رفض الموروث المهترئ، وذلك بهدم الأشكال المحنطة المسيطرة على مستويات الواقع كله، من اجتماعية وسياسية وفكرية، ولم يعتدل في الكشف عن آرائه وأفكاره، بل نقل الواقع بكل مساوئه وأخطائه، لأن الاعتدال في التعبير عن الأنا الإنسانية في رأيه يقيد حركة المجتمع كله فيقول: «ومن يعتدل بدنياه يبق حيث ولدته أمه، فلا يسير إلى الوراء، ليعلم الناس أمثولة بتقهقره، ولا يخطو إلى الأمام ليرشدهم إلى الخير، بل يظل جامداً ضائعاً، محدقاً بظله، ومصغياً لطرقات قلبه قابضاً على أنفاسه».

هكذا علمتنا التجارب التاريخية أن الهدم شكل من أشكال الثورة القائمة على الرفض والخروج على المألوف، إنه رفض إيجابي يستهدف إزالة القشرة الخارجية الفاسدة والكشف عن الجوهر الأصيل، وهو اختراق للحصون الوهمية المتوارثة التي تحجب بكثافتها المتراكمة فاعلية الرؤية، يكشفها ويعمقها، وبالاختراق يحدث التلقيح ما بين البذور الحية المتوارية وبين خصوبة الفكر الحاضر الطامح إلى كماله، وبالمزاوجة الطبيعية السليمة تولد الأشكال المغايرة والجديدة، المنبثقة عن جذورها والمتجاوزة لكل ما هو هش وسطحي.

ولعل ما فعلته سعاد الصباح كان هذه الرؤية عينها، حيث عمدت إلى تصوير واقع الأنثى العربية، بكل ما فيه من أشكال المعاناة، من أجل هدمها وهدم المظاهر السلبية القاتلة لوجودها وطموحاتها، وبناء الأسس الصحيحة التي تبعث على خلق واقع عربي إنساني أفضل، وذلك انطلاقاً من أن التصوير الذي يكتفي بنقل المظاهر وتجسيد ظلالها السلبية فحسب، هو تصوير سلبي يكرس الأخطاء ويعمق فاعليتها، وكما قلنا فإن الهدم الذي قامت به سعاد الصباح لم يكن إلا للبناء، والهدم إن لم تكن غايته البناء كان تخريبياً يحطم الشكل الجاهز، ولا يقدم ما يشير إلى الأساس، فهو نوع من اقتلاع الأصل والجذر وتدمير الفكر، وسعاد الصباح لم يأت نضالها مفرغاً من الهدف، لقد ضمّنت كلامها بذور ثورة على الراكد والمستقر في الذهن، ثورة تهدم مظاهر التخلف وتؤسس لبناء علاقات مغايرة قوامها الوعي المنبثق من فهم التاريخ، واختراق حصونه والتخلص من السطحي التراكمي فيه.

إن الهدم البنّاء ثورة حقيقية، لها معاييرها ومفاهيمها وأدواتها، ولا تكون نزوة عابرة، أو حركة اعتباطية، إنها ثورة تهدم أسوار السلب ومسبباته، وتؤسس لإقامة بنية اجتماعية إنسانية قادرة على مواكبة تطلعات الإنسان السائر بفكره نحو الأمام، والثورة الحقيقية التي تقوم على تصوير مساوئ الواقع بالدعوة إلى رفضه وهدم أشكاله السيئة، لا تستهدف إلا وضع لبنة وبنية أكثر سلامة وصلاحية، بنية أقرب إلى فكر وتطلعات إنسانية الإنسان، لأن البناء السليم لن يكون إيجابي النتائج ما لم يسبقه هدم المظاهر والكشف عن أساساته السليمة، والبناء الجديد لن يكون أكثر

صلابة ومتانة، ما لم يحدث تلازم بين عملية الهدم والبناء، فعملية البناء التي كانت سابقة في عملية التأسيس الأولى صارت نتيجة تابعة لسابق الهدم الذي يؤسس أيضاً لبناء جديد.

ومن أقرب النماذج التي كانت تستوجب الهدم أولاً، ثم بناء أسسها من جديد، المظاهر البراقة التي أوهموا المرأة بأنها اكتسبتها، بينما هي في الحقيقة مجرد قشور وهمية تعميها عن الجوهر الأساسي الذي يفترض بها البناء عليه، وهناك الكثير من هذه المظاهر البراقة جميعنا يعرفها، كذلك فإن المرأة تحتل مساحة كبيرة من الإعلانات والدعاية، مشوهة بذلك صورة الإنسان داخلها، فهم يستخدمونها كسلعة رخيصة في عمليات الدعاية والبيع والشراء، وهناك أيضاً نظرة الرجل إلى المرأة، وما زالت تنحصر في الدونية والشهوانية، حيث لا يفكر بها كشريك يقاسمه التفكير والحياة بكل تفاصيلها، معنوية ومادية، وهناك عقدة الرجل تجاه المرأة المتفوقة، فإذا نجحت الحياة يكون الفضل للرجل وإذا فشلت الحياة يكون السبب المرأة، بوصفها السبب وراء كل فشل وخسارة في المجتمع، وكأن المجتمع يمارس ضدها عملية أقرب ما تكون إلى الوأد نفسياً وفكرياً.

ومن هذا كله، أسست سعاد الصباح فكرتها النضالية على قاعدة مهمة، هي أن هدم السلطة الذكورية أمر ضروري، وهو في الوقت نفسه مرتبط بقدرات المرأة الفكرية والنفسية، وبتعزيز الكيان الذاتي لها بما يمكنها من أن تستعيد وجودها وأحلامها لتبدع عالمها الجديد، مولوداً من رغباتها الإنسانية العميقة والأصيلة والمشروعة، وعندما تثبت المرأة جدارتها تهيئ لثورة تتجاوز كل أشكال الظلم والاستبداد والإذعان للأمر الواقع، وتمارس

الأنثى لدى سعاد الصباح الانشطار على ذاتها، فهي تمثل رمز الحياة وديمومة الحركة، وتتصدى للواقع بعزم تستمد شحنته من التاريخ، فتحول القلق والتوتر إلى طاقة وعزيمة لتنطلق من كوامن ذاكرة التاريخ، وما تحمله من مآس ترسم واقعها.

مبالغة الخطاب النسوي

وكمن يدينون للرياح بصنع الدوامات والتوترات، كانت تلك هي التهمة التي وجههوا إلى الخطاب النسوي بشكل عام، وليست كتابات سعاد الصباح فحسب، وإن كانت جزءاً منه بالطبع، فقد قالوا إنهم مع احترامهم الكامل لمطالب المرأة لتمكينها من تحقيق وجودها، عبر أشكال متعددة من النضال، بالكلمة المكتوبة والمسموعة والمقروءة وبالمؤتمرات والأمسيات والندوات وغير ذلك، فإن الأمر لم يسلم من المبالغات في مناهضة المركزية الذكورية المهيمنة على الإبداع، للسقوط في مركزية النص، ومركزية الكلمة المسيطرة على كل المقولات المجاورة، وقالوا إن مناهضة أشكال التحيز في التراث الثقافي الأدبي واللغوي والشعبي من أهم أفكار النقد النسوي الغربي التي حاول المشتغلون بالنقد النسوي العربي تمثلها واتخاذ مبررات تطبيقها على أرضية نصوصية تراتبية مبتسرة متصلة بالمرجعية الثقافية الخاصة بالمرأة العربية[1].

وبينما هم يرددون مثل هذا الاتهام، حدث سجال كبير تضمن الآتي:

• كانت هناك محاولات كثيرة داخل الخطاب النسوي، لاستقراء ثقافة

1- د.ليلى بلخير ـ المرأة المبدعة في المنظور الثقافي العربي ـ جامعة العربي التبسي تبسة ـ مجلة الآداب واللغات ـ العدد 3 ـ 2006م.

الـتراث، وجـاءت الإجابـة واحـدة متطابقـة، هـي حضـور الفحولـة وغياب الأنوثـة. فجـدد المناهضـون للخطـاب النسـوي اتهاماتهـم بـأن الموقـع في الخطـاب الأنثـوي للمـرأة الموضـوع تغـير إلى المـرأة الـذات.

- ردت الكاتبـات بأنـه حتـى لـو كان ذلك قـد حدث، فإن الأمـر يتطلب تغييراً في الذهنيـات الذكوريـة لمواكبـة مـا وصلنـا إليـه مـن تغيير حضـاري. فقال المناهضون إن الخطاب النسـوي يريد أن يقلص مكاسـب التغيير الحضاري كلهـا لصالـح المـرأة فقـط، بينـما الأمر لـه علاقـة بالمجتمع ككل، وتسـيطر عليـه شـبكة كبـيرة من العلاقـات البانيـة لأواصره، والمتعلقة أيضـاً بموروث ثقـافي ضخـم يمثل السـلطة المحددة لموجتـه، والتي لا يمكن الخـروج عليها بأطـر معرفيـة تداوليـة، كأفـكار التمكـين والمكاسـب والمسـاواة والمشـاركة إلى غيرها.
- رفـض الخطاب النسـوي الالتـزام بالقيم التراثية النخبوية والموروث الشـعبي الـذي يرمـي بجـذوره في الأسـطورة والخرافـة والحكايـة السـاذجة للحيـاة اليوميـة. ورفـض المناهضـون في المقابـل المشـاركة في إحياء نمـاذج للعادات والتقاليـد متناقضـة لا تعـرف الثبـات والحقيقـة، متعـددة الروافـد، بحجة أن المرجعيـة التـي تهيمـن عـلى صورتهـا ليسـت واحـدة، فيهـا شيء مـن الثقافـة الوافـدة مـن الغـرب وشيء مـن الخـروج عـلى الديـن، وشيء آخـر مـن التمـرد عـلى خصوصيـة المجتمـع وهويته.

وقـد تطلـب الأمـر عـلى هـذا النحـو مـن الخطـاب النسـوي والقائمـات بمسـؤولياته مـن الكاتبـات بـذل مزيـد مـن الجهد والنضـال من أجـل تحقيق المكاسـب، ومـا أعتقـده الآن عـن قناعـة أن نضال سـعاد الصباح كان يؤسـس مـا يمكـن تسـميته جوهـر ثقافـة المقاومـة الراشـدة بشـكل عـام.

جوهر ثقافة المقاومة

اتسمت جهود سعاد الصباح كأم للوطن العربي، بالعمق وملامسة جوهر ثقافة المقاومة وتجلياتها في الخطابات النسوية الأدبية، سواء كان خطاباً شعرياً أم سردياً، فتجلى تأثير خطاب الثورة النسوية -إن جاز التعبير- باعتباره خطاب مقاومة، في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وليس فقط في الخطاب الأدبي العربي المعاصر، تقول: «إن المرأة العربية ليست مدعوّة للثورة على غيرها، بل على نفسها أولاً لتخرج من قارورة العطر أو قارورة الزيت التي حبست نفسها فيها، كنت أدعو المرأة للثورة على العقلية الذكورية، وأنا اليوم أدعوها إلى الثورة على ذاتها لأنه ما لم تحقق انتصارها على هذه الذات، فكل انتصار آخر يبدو باهتاً».

ولا يختلف المشهد اليوم كثيراً عنه في السنوات والعقود والقرون السابقة، حيث يقف المبدع وحده -كما وقفت سعاد الصباح- في مواجهة تعسف السلطة الاجتماعية والدينية والسياسية، كمن يقف بين المطرقة والسندان، فما إن يمارس المبدع الدور الذي وجد من أجله وهو تقويم ما يراه سلبياً، أو الإفصاح عن أفكاره أو نقد بعض الظواهر المعيقة لحركة تقدم الوطن، أو حتى مجرد ممارسة الحلم والتأمل والتخيل، يصبح مجرماً، وبالطبع إذا لم تعجب بعضَ من يريدون تحصيل كل المكاسب فكرة أو جملة أو قصة أو رواية أو مشهد سينمائي أو لوحة تشكيلية أو مسرحية أو برنامج تلفزيوني، أو أي نوع من الإبداع، فسرعان ما ينفتح صندوق الغضب في وجهه، وتنطلق الأفاعي، ويتناوبون على جلده دون تفكير أو تمحيص أو رحمة، وما أسهل أن يتهم المبدع في هدف نضاله، حتى تعقد له المحاكم وتشهر

في وجهه السيوف والخناجر والسياط والسجون، ودائماً ما يطارد المبدع لترويضه وإدخاله في دائرة الخنوع، سواء بالتهديد والوعيد أو بالإغراء، مما يفرض على الكثيرين أن يكتبوا بطريقة الترميز لإيصال أفكارهم.

وقد تجلى عنصر المقاومة في المنجز الكلي لسعاد الصباح من واقع سعيها إلى تشكيل أنثى جديدة تتمتع بوعي جديد، يفضح الخطاب الذكوري التمويهي ويفتح آفاقاً جديدة لتأسيس خطاب مغاير، يراعى ثنائية «الذكورة - الأنوثة» لا ازدواجية «الذكورة - السلطة»، معتمدة في ذلك على استخدام سمات تعبيرية وجماليات فنية، مستمدة من البيئة الاجتماعية التي لها خصوصيتها المحلية، وموضوعاتها الخاصة ومعيشها اليومي، بما يتجاوز الأبعاد الغريزية إلى جوهرها الإنساني، لتصل إلى النتيجة الأهم وهي تحطيم الكثير من الثوابت في العقلية الرجولية والذهنية الذكورية، التي لا تسمح بإعلاء صوت المرأة عالياً، للتعبير عن «أناها» الأنثوية، بما يمنحها حرية الحديث عن أوضاعها الإنسانية المختلفة.

واعتمدت سعاد الصباح على الخطاب النسوي ذاته، كأداة لتغيير منطلقاته وتجديد آلياته، فسعت إلى إحداث زلزلة في عالم اللغة لدى المرأة الكاتبة، في مواجهة لغة السلطة الذكورية التي تستهدف تكبيل المرأة وتحديد وظائفها ودورها في الوجود والمجتمع، وقد استجابت الكثيرات من الكاتبات، واحتمت كل كاتبة بالكتابة التي تأخذ بعداً ممنهجاً ضد الموروث والثابت، ونجحت الدعوة إلى القيام بثورة لغوية وتخطي المألوف ونقده، مع السعي الحثيث إلى التجديد المتواصل، ويقول د.عبد الله محمد الغذامي: «التجديد لا يحدث من المؤسسة بل من أفراد يخرجون

منهـا وعليهـا، والمؤسسـة لا تؤهلهـم لهـذا الخروج، بـل إنها تعـرض معارضتها لهـم، والخـروج ليـس سـوى وعـي شـقي طامـح لمـا هـو أبعـد وأرقـى، ولكـن عـلى أكتـاف المؤسسـاتي العـرفي»[1].

وطالبـت سـعاد الصبـاح في سـعيها إلى التجديـد والتغيـير، بـأن لا يمـس هذا التغيـير ثوابـت الديـن في حد ذاته، وأن لا يكون الرفض سـوى للأحكام الدينية المكبلـة بالأعـراف الاجتماعية، وأشـكال الممارسـات الدينيـة الخاضعة للوصاية الذكوريـة، بمعنـى آخـر، طالبـت بـأن تتصالـح الكاتبات مـع الدين الـذي ترى فيـه ملجـأ للأمـان والاسـتقرار النفسي، كما تقول أحلام مسـتغانمي على لسـان بطلـة روايتهـا «ذاكـرة الجسـد»: «كيـف تسـمي الديـن رواسـب، إنـه قناعة، وهـو ككل قناعاتنـا قضيـة لا تخـص سـوانا، لا تصـدق المظاهـر أبـداً في هـذه القضايـا، الإيمـان كالحـب عاطفـة سرية نعيشـها وحدنـا في خلوتنـا الدائمة إلى أنفسـنا، إنهـا طمأنينتنـا السريـة، درعنـا السريـة، وهروبنـا الـسري إلى العمق، لتجديـد بطارياتنـا عنـد الحاجة»[2].

كـما طالبـت سـعاد الصبـاح الكاتبـات في سـعيهن إلى تأسـيس لغـة جديدة، بـأن لا تكـون هنـاك معـاداة واضحـة ومعلنـة للـتراث والأفـكار السـائدة، ويذكرنـا ذلـك بقـول أحـلام مسـتغانمي أيضـاً في روايتهـا ذاكـرة الجسـد: «أمـا الذيـن يبـدو عليهـم فائـض مـن الإيمـان، فهـم غالبـاً مـا يكونـون قـد أفرغـوا أنفسـهم مـن الداخـل، ليعرضـوا كل إيمانهـم في الواجهـة لأسـباب لا علاقة لها باللـه»، وأن لا تكـون هنـاك في الوقـت نفسـه قطيعة «ثقافيـة - معرفية» مع

1- د.عبـد اللـه محمـد الغذامـي ـ حكايـة الحداثـة في المملكـة العربية السـعودية ـ المركز الثقـافي العربي ـ بـيروت - الـدار البيضـاء ـ ط3 ـ 2005م ـ ص ـ85.

2- أحلام مستغانمي ـ ذاكرة الجسد ـ منشورات أحلام مستغانمي ـ ط22 ـ 2007م ـ ص 240.

التيـار الـذي يتشـبث بفتات الماضي وشـذرات التراث الإسـلامي، والتـي تتمثل في اللبـاس واللسـان في محاولـة لأن تخلـق كل مبدعة مفهوماً جديـداً للتدين، وهـو تديـن الـروح والنفـس لا تديـن المظهـر الخارجي.

ورغـم العديـد مـن الأعـمال الإبداعيـة التـي عالجـت موضوعـات الديـن في الخطـاب النسـوي، رأت نسـبة كبـيرة مـن النقـاد المناهضـين لحركـة الإبـداع النسـوي وحركـة التحـرر الأنثـوي، أن الخطـاب الدينـي في الروايـة العربيـة الأنثويـة حظـي بحضـور نسـبي، ذلـك لأنـه ارتبـط بمختلـف الخطابـات ولم يتأسـس كخطـاب قائـم بذاتـه، حيـث كان أداة ضمـن جملـة الأدوات التـي سـخرتها المـرأة لتكسـير القيـود والحواجـز الوهميـة المسـيجة حولهـا، وأولى هـذه الحواجـز هـو الديـن نفسـه، اعتقاداً منهـا أنـه العقبة الأساسـية، وهذه مغالطـة فكريـة، وقـد عجـزت الكاتبة العربيـة وفق هذه المغالطـات الفكرية التـي تتبناهـا، كقناعـات عـن تأويل الخطـاب الدينـي إلى أيديولوجيـا، مع أن هـذا هـو هدفهـا الأسـاسي، وبقيـت أيديولوجيـا الأنوثـة هـي المهيمنـة عـلى أغلـب تلـك الروايـات، أي أن الكاتبـة العربيـة كانـت ومازالـت تتمتـع بعلاقة مضطربـة مـع الديـن، فجـاء الخطاب الدينـي لديها إمـا مبتوراً وإمـا مغلوطاً، ويتوجـب عـلى الكاتبـات العربيـات أن يفهمـن الديـن كخطـاب وتشريعـات فهـماً صحيحـاً، لأنـه هـو المرجعيـة في الأمـان والحريـة لا الحـركات التحرريـة الغربية.

كـما دعـت سـعاد الصبـاح إلى تجديـد الأفـكار التـي تتـم معالجتهـا داخـل الخطـاب النسـوي وأن لا تكـون هـذه الأفـكار مسـتمدة من الحركة النسـوية الغربيـة، وإنمـا مـن واقـع خصوصيـة مجتمعنـا، ذلـك لأن تلـك الحركـة تتبنى

الديـن كقيمـة لإعـلاء ذات المرأة، وترسـيخ وجودها دون أن يكـون عائقاً أمام حريتهـا ومانعـاً لتحقيـق كينونتها، وفي حـال ما كان عائقـاً -أي الدين- فحينها يمكـن التخـلي عنـه، وتأسـيس ديـن جديد يتسـم بالذاتيـة والحرية.

ويبقـى في النهايـة أن نقـول إن الحيـاة الاجتماعيـة التي اتسـعت آفاقها مع مشـاركة حياتيـة أعمـق في كل المجـالات الاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافيـة، ربمـا تفـرض عـلى المـرأة الكاتبـة نوعـاً مـن الصعوبـة في أن توفـق بـين عـالم الكتابـة وواقعهـا الحيـاتي، وذلـك ظـرف خـاص ينطبـق عمومـاً عـلى خاصيـة الكتابـة والإبـداع عنـد المـرأة العربيـة، هـذه المـرأة التـي لا تزال تـرزح تحت أعبـاء التوفيـق بـين نجاحها كامـرأة عاديـة ونجاحها كمبدعـة خصوصاً في ظل الـشرط الموضوعـي الـذي لا يـزال يعتـبر المـرأة هي المسـؤول الأول عـن كيان الأسرة ولا يـزال يوظـف فيهـا قيمـة المواهـب المطبخيـة والفندقيـة وتربيـة الأطفـال كأهـم المواهـب، وهـذا المجتمع لم يطالـب مباشرة بإبعـاد المرأة عن الإبـداع لكنـه بأعرافـه وقيمـه وتقاليـده وقوانينـه، لا يعطـي المرأة مـا يعطي الرجـل مـن إمكانيـات التفـرغ الـضروري لعمليـة الثقافـة والإبـداع، وبالتـالي فـإن نجـاح المـرأة الكاتبـة في التوفيـق بـين تشـعبات حياتهـا أصبـح يمثل أهم التحديـات التـي تواجههـا في الوقـت الحاضر.

حرائق على الثلج[1]

أيها الفارس الذي يلفني بعبارة رجولته

من شمالي.. حتى جنوبي

من شفتي.. حتى خاصرتي

يا من يكتب قصائد العشق على تضاريس أيامي

قلبي فاكهة تنتظر القطاف

ومساماتي مفتوحة لمراكبك القادمة مع الريح

فيا أيها البَحّار الذي شقق ملحُ البحر شفتيه

أنا مملكة من النساء

فازرع مرساتك على سواحل وجداني

وامنحني بركات أبوتك

فلا بيت إلا أنت

ولا قبيلة إلا أنت

ولا وطن أنتسب إليه.. إلا أنت

1- سعاد الصباح ـ ديوان خذني إلى حدود الشمس (Take Me To The Borders of the Sun) ـ ترجمة إلى الإنجليزيـة: د.نهاد صليحة.

Fire on the Snow

O knight who enfolds me in the mantle of his manhood

،From my north to my south

،From my lips to my waist

،who pen liove poems on the undulations of my dayes ،O You

My heart is a fruit ripe for plucking And my pores are open

borne homeward on the wind ،to receive your ships

،O sailor whose lips the salty waves have chapped

;I am a whole kingdom of woman

cast your anchor on the shores of my heart ،I pary you

.And grant me your fatherly blessings

،For know you this: I have no home but you

،No tribe but you

.No homeland to belong to.. Except you

الفصل الثالث
سعاد الصباح.. فدائية باحثة عن الحقيقة

عرف المجتمع العربي -والكويتي بالطبع- منذ عشرات السنين، ككل المجتمعات الحية الفتية، الخلاف والاختلاف في الرأي بين أفراده وفئاته واتجاهاته، وتعددت وتنوعت فيه العقائد والرؤى والأفكار والاجتهادات، لكنه كان دائماً خلافاً واختلافاً في إطار الوحدة، وتنوعاً داخل الجسد الواحد، حتى عندما كان الأمر يصل -في أحيان كثيرة- إلى مرحلة المعارك الفكرية والثقافية، ولم يؤثر ذلك على وحدة المجتمع، حيث بقي متماسكاً وموحداً، بل كانت تلك المعارك -على أشدها- سبباً في قبول الآخر، وبخاصة حين كانت تطول بعض الجوانب الدينية[1]، أو حاول البعض أن يصورها على أنها كذلك.

ولم يعرف المجتمع على يد المستنيرين وتيار الإصلاح، التقليل من شأن الآخر، أو تكفيره أو عزله، أو إخراجه من دائرة المواطنة، كان الجميع يتصارعون في ساحات الثقافة والفكر والسياسة، لكنهم كانوا يمثلون نموذجاً حياً للتعايش السلمي المشترك، دون أن يشغل بال النخبة الثقافية توصيف هذه الحالة عبر مصطلح جديد، إذ كان التعايش حقيقة قائمة بالفعل، لا تحتاج لابتكار مصطلحات لها.

1- هاني عياد ـ ثقافة التعايش المشترك الحاضر والمستقبل ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة إنسانيات 2002م ـ القاهرة ـ ص 13.

فـإذا كان هـذا هـو واقع المجتمـع إلى ما قبل عقود قليلـة، فما الذي حدث؟ وهـل صحيـح أن ثقافـة التعايـش السـلمي المشـترك تراجعـت، لتحـل محلهـا ثقافـة نفـي واسـتبعاد الآخـر؟ أم أن الأمـر لا يعـدو أن يكـون مجـرد أحـداث وظواهـر عارضـة لا ترقـى إلى درجـة ثقافـة؟ وهـل حقـاً هنـاك أزمـة تعايش، وأزمـة سـلام مـع النفـس ومـع الآخـر؟ أم أن مـا نراه ليـس أكثر من مشـكلات طبيعيـة تحـدث في كل المجتمعـات؟ ثـم مـاذا عندمـا يمتـد خـط الحاضر على اسـتقامته إلى المسـتقبل؟ كيـف نـرى مسـتقبلنا في ضـوء تشـخيصنا للواقـع، أيـاً كان هـذا التشـخيص؟ ومـا دورنـا وإسـهاماتنا في صياغـة المسـتقبل ورسـم معالمه؟

وعـلى الرغـم مـن أهمية السـجالات الفكريـة والثقافية بين مثقفينـا، وأثرها في توثيـق مراحـل مهمـة مـن تاريخنـا الأدبي والثقـافي، إلا أن الملاحظ أن هناك حالـة مـن الاسـتشراس والعنـف اللفظـي، والإقصاء أحيانـاً بل الإلغـاء للطرف الآخـر، خـلال تلك السـجالات، الأمر الذي يضعنا أمام مفترق طرق في مشـهدنا الثقـافي والفكـري[1]، الـذي لم يعـد يعـرف ولا يحـترم الاختـلاف في الـرأي، عـبر نقـاش أو مناظـرة فكريـة، ولا نغفل أن هذه الحالة من الاسـتشراس تسـتنزف جهـوداً وطاقـات كبـيرة نحـن أولى بتوظيفها، فيـما يفيد ثقافتنـا العربية.

كانـت تلـك هـي الحالة الملتبسـة والمليئـة بعلامـات الاسـتفهام التي حولت سـعاد الصبـاح إلى فدائيـة باحثـة عـن الحقيقـة، وهـي الحالـة التـي دفعـت سـعاد الصبـاح إلى العمـل خلالها عـلى تأكيد قيمـة الحرية الفكرية، والسـعي إلى إعـلاء قيمـة التسـامح الثقـافي بـين الأفـراد، وإعـادة التذكـير بأصـول المناخ

1- عبد الله الحسني ـ المعارك الفكرية عنف واستشراس ـ 2018م.

الثقافي الذي تبلور عبر مسيرة طويلة من الزمن، ابتداء من تعرض المجتمع العربي لحكم قوى وافدة، لها ثقافتها المغايرة -بطبيعة الحال- ومروراً بأن كل قوة من تلك القوى الوافدة، تركت أمور السيطرة على المجتمع لقوى وافدة أخرى[1]، وانتهاء بتلك المتغيرات الحداثية التي شوهت صورة المجتمع، وهدمت ما بناه جمهور المثقفين الإصلاحيين والمستنيرين على مدار التاريخ، فراحت تبذل جهودها في ضوء ما أصاب المناخ الثقافي من محاولة البعض[2]، لوضع المجتمع في قالب ثقافي واحد.

وكطائر قلبه معلق بين الرياح وموزع بين المدن، خاضت سعاد الصباح الكثير من المعارك الفكرية والثقافية، دون أن تجرح أو تسيء أو تتجاوز، ظلت أختاً حنوناً وأمّاً رؤوماً للجميع، تغسل إبريقها كل صباح ليشرب منه الجميع، وتغني لقرص الشمس ليستدفئ به الجميع، وتنتظر على الشبّاك طلعة القمر لتحرس بعينيها الربيع، وما أغنتها كثرة المعارك الفكرية والثقافية إلا بالعزوف عن الجدل وعدم استحسان كثرة اختلاف الآراء، وبخاصة في أمور الدين[3]، تاركة تدبير الأمور للقدرة الإلهية[4] بحيث تتغلب الروح الفنية على كل الجدالات، مما يتيح الفرصة للإبداع في ميادين الفن والأدب والفكر والثقافة.

وقد تعدد المعارك الثقافية التي رفعت سعاد الصباح راياتها، وكانت

1- ابتداء من مجيء الفرس في عام 340 قبل الميلاد، وانتهاء بالاحتلال البريطاني 1882م.

2- محاولات مستميتة ودائمة منذ أواخر سبعينيات القرن العشرين ولا يزالون.

3- انظر ديوان سعاد الصباح «في البدء كانت الأنثى» وهو عنوان مستوحى من التراث الديني.

4- ارتبطت تلك النظرة بعدم الانسياق وراء الخلافات المذهبية الخارجة على أهل السنة، وعدم قبول النزعة التي وردت من بلاد فارس عبر العراق، أو روح التجمد التي جاءت مع فقهاء المغرب عبر سيادة المذهب المالكي، وللمزيد انظر «د.عاصم الدسوقي ـ في تراث مخالفة الرأي».

لـكل قضيـة تبنتهـا معركـة، ومنهـا مـا كان موجهاً لإصـلاح حال الرجـل، ومنها مـا كان موجهـاً لإصـلاح حال المرأة والطفـل، وهو ما يحقـق في النهاية الهدف الأسـمى وهـو إصـلاح حـال المجتمع، وتحقيـق التقـدم للوطن.

الرجل.. المعركة الأولى

كانـت المعركـة الأولى ضـد المأسـاة الكـبرى التي تكمـن في وجود نمـاذج من الرجـال تعيـش في حالـة انفصـام فكـري، وتعـاني مـن ازدواجيـة الشـخصية، فتدعـي الثقافـة وتوهم الآخريـن بالانحياز إلى المعاصرة، وتلهـج بأحقية المرأة في التحـرر، لكنهـا تمـارس النقيـض تمامـاً في حياتهـا الخاصة.

وليـس هنـاك وصـف أدق وأبلغ تعبـيراً للرجـل العربي في بعـض المجتمعات العربية من هذا الوصف الذي وسـمته به سـعاد الصباح[1]، فهو في ازدواجيته وعدائـه للمـرأة، وتظاهـره الشـكلي بمظاهر الحضارة أشـبه ما يكـون بتقدمي ينتمـي إلى عصـور الجهـل والخرافـة والظـلام، وقـد خصصـت سـعاد الصبـاح مسـاحة من شـعرها للتحـاور مع هذا النمـط من الرجال، ومواجهته وكشـف قصـوره الفكري وممارسـاته القمعية ضـد المرأة.

ذلـك لأن هـذا النمـوذج الفحـولي لا يجـد غضاضة في ابتزاز المرأة واسـتغلال مشـاعرها، وفـرض شروطـه عليهـا وامتهان كرامتهـا، وهو لا يعاملهـا باعتبارها إنسـاناً حـراً، يملـك إرادتـه وخياراتـه في الحيـاة، بـل يعاملهـا كأرض للفلاحـة والحـرث، أو كقطعـة أثاث قديمـة مهملة، ولا يتورع في انتهاج أسـاليب القمع

1- د.فـوزي عيـسى ـ مواجهـة مـع تقدمـي مـن العصور الوسـطى في شـعر سـعاد الصباح ـ صـورة المرأة في شـعر سـعاد الصبـاح ـ الهيئـة المصرية العامـة للكتاب ـ القاهـرة ـ 2004م.

والبطش والإيذاء والترويع معاً.

وكانت سعاد الصباح على دراية كاملة بهذه القضية منذ بداياتها مع الكتابة والشعر، فنجد جذوراً لها في ديوانها الأول «أمنية» فتقول في قصيدة «حق الحياة»:

ويلَ النِّساءِ مِنَ الرجالِ إذا استبدّوا بالنِّساءْ
يَبغونَهُنَّ أداةَ تسليةٍ، ومَسْألةَ اشْتِهاءْ..

ومَراوحاً في صَيفِهم.. ومَدافِئاً عبْرَ الشِّتاءْ
وسَوائِماً تلِدُ البَنينَ ليُشْبِعوا حُبَّ البَقاءْ

ودُمى تُحرِّكُها أنانيةُ الرّجالِ كما تَشاءْ
وتَذِلُّ للرَّجُلِ القويِّ كأنّه نجْمُ السّماءْ..

ما دامَ يَمْنَحُها المَؤُونةَ، والقِلادةَ، والكِسَاءْ
لا.. لَنْ نَذِلَّ، ولن نَهونَ، ولن نُفرِّطَ في الإباءْ

لقدِ انْتَهى عَصْرُ الحَريمِ وجاءَ عَصْرُ الكِبرياءْ..
وجَلا لنا حَقُّ الحياةِ، فكلُّنا فيهِ سَواءْ..

وفي ديوانها الثالث "فتافيت امرأة" تقول في قصيدة بعنوان "إلى تقدمي من العصور الوسطى":

لو كنت تعرف كم أحبك
لم تعاملني كفرعون
ولم تفرض شروطك مثل كل الفاتحين
لو كنت تعرف كم أحبك

لم تكرسني كأرض للفلاحة
شأن كل المالكين
لو كنت تعرف كم أحبك
لم تعاملني ككرسي قديم
أو كنت تعرف كم أحبك
ما قمعت
ولا بطشت
ولا لجأت لحد السيف
مثل كل الحاكمين

وهـي تصفـه بالتحجـر واحتـكار الـذكاء وهـو دليـل الغبـاء، لأن الإنسـان الغبـي هـو مـا يفـترض وحده أنـه الـذكي وأن الآخرين أغبيـاء، كما أنهـا تصفه بالأنانيـة، ومـا حرصـه على إثبـات تفوقه وتألقـه وانتصاره إلا تعبـير عن غيرته منهـا، مـما يدفـع بهـا إلى الكراهية والإحبـاط، عنـد النفوس المهيـأة لذلك من ضعـف نفـسي، فتقـول سـعاد الصباح:

أمثقف
ويقول في وأد النساء؟
فأي ثقافة هذي؟ وأي مثقفين؟
أمثقف
ويريد أن يُبقي حبيبته بسرداب السنين؟
أتقدمي في كتابته

ورجعي بنظرته إلى الأنثى؟
فإن ضحكت له امرأة
يخاف من عذاب رب العالمين
يا من ينادي بالتسامح والعدالة
والتحرر في الهوى
آمنت أنك سيد المتعصبين
ما كان يخطر لي بأنك جاهلي
من غلاة الجاهلين
فكرت أنك طبعة أخرى
ولكني وجدتك
طبعة عادية كالآخرين

وفي ديوانها بعنوان "في البدء كانت الأنثى" تخاطب الرجل في قصيدة بعنوان "كن صديقي" ليكون متحضراً ومعاصراً يسلك السلوك الحضاري النابع من التطورات الاجتماعية الحميدة فتقول:

كن صديقي
ليس في الأمر انتقاص للرجولة
غير أن الرجل الشرقي لا يرضى بدور
غير أدوار البطولة
فلماذا تخلط الأشياء خلطاً ساذجاً؟
ولماذا تدعي العشق وما أنت العشيق؟

إن كل امرأة في الأرض تحتاج إلى صوت
ذكي وعميق
وإلى النوم على صدر بيانو أو كتاب
فلماذا تهمل البعد الثقافي
وتعنى بتفاصيل الثياب؟

وتحاصر سعاد الصباح هذا النموذج الذكوري الذي يعيش في ازدواجيته، فتعمد إلى كشفه وتعريته وإدانة تناقضاته ونواقصه، مؤكدة بذلك أنها ترغب في أن تصبح كل امرأة من بنات جنسها مثلها وفي الصفوف الأولى الأمامية، وأن تواجه القضايا، لا أن تظل أمام المرايا، وأن تكون بطلة على مسرح الحياة لا أن تكون "كومبارس"، وأن تعالج الرجل من ازدواجيته التي يختزن خلالها في ذاكرته كل الأفكار والكلمات المأثورة من قيم، وما ورثه عن أجداده من نزعات، محددة تلك النزعات في صفات ثلاث: التملك والسيادة والتعددية النسائية[1]، ويتحدث في الوقت نفسه عن الحداثة والمعاصرة ولا يعيشها.

وهو برغم كثرة أسفاره ورحلاته لم يبرح الخيمة بأفكارها وتقاليدها، ويتمسك بناقته في عصر حرب النجوم وصراع الكواكب، أي أنه يعيش فكرياً في غير عصره، حيث ما زال يبدو إقطاعياً في العصور الماركسية، وما زال يبدو قبلياً في العصور الليبرالية.

إن مشكلة الرجل الكبرى هي التناقض والانفصام والازدواجية، إنه

1- انظر قصيدة «إلى روبوت عربي عاشق» من ديوان «في البدء كانت الأنثى».

يشتري الكتب ولا يقرؤها، ويدخل المتاحف دون أن يتذوق جمال اللوحات الفنية، ولا يلتفت إلى تزاوج الخطوط والألوان، إنه ينزل في فنادق الدرجة الأولى ولكنه يفقد الإحساس بها، إنه نموذج شهواني يعبد الجسد، فيغير النساء كما يغير قمصانه ورابطات عنقه، ويمارس الحب كما يخلع حذاءه، ويستقي معلوماته عن الحب من كتاب "ألف ليلة وليلة" الذي يقهر المرأة.

كانت معركة سعاد الصباح موجهة إلى هذا النمط من الرجال وليس إلى كل الرجال، كانت تحارب بشعرها وفكرها كل من يعيش بمثل هذه العقلية المتخلفة، كانت تواجه من يدعي التقدمية وهو يمارس حياة غلاة الجاهلية، وتحارب كل من يعيش بعقلية الروبوت الآلية، وتحارب كل رجل تحت الصفر، تحارب هولاكو الجديد الذي يضع سيوف القهر على رقاب النساء، ويتقن فن القتل، ولا يفرق بين الحب والدماء، وهي حين تتأمل مثل هذا النموذج من الرجال تشعر بالمرارة والحسرة، تقول في قصيدة "رجل تحت الصفر" من ديوان "في البدء كانت الأنثى":

يا هولاكو
ليس هناك ما يجمعنا
لا أشياء القلب
ولا أشياء الفكر
أنت تحب ثياب البر
وإني أشرس من أسماك البحر
أنت تمارس فن القتل

وإني أتقن فن الصبر

يا هولاكو الأول

يا هولاكو الثاني

يا هولاكو التاسع والتسعون

لن تدخلني بيت الطاعة

وقد وجدت سعاد الصباح صدى إيجابياً لمعركتها الأولى، وانطلقت المرأة الكاتبة لتثبت ذاتها ووعيها برسالة الفن والإبداع من خلال تقويض كل مظاهر التحيز الذكوري في الثقافة الإنسانية، وتعاملت مع الحديث عن مظاهر التحيز ضد المرأة في الذهنية الذكورية، بوصفه حديثاً عن المعيقات والعراقيل أمام ريادة الأنثى في الفكر والثقافة والإبداع، بسبب طغيان عنصر التحيز في الإنسان، وسعيه إلى القضاء على البذور المنتجة في المجتمع[1].

إن اغتيال ريادة الأنثى هو اغتيال للثقافة ذاتها، بوصفها المجال الأسمى والأرقى الذي يمارس فيه الإنسان إنسانيته، سواء نظرنا إلى الثقافة بوصفها بنية مستقلة، معزولة ومحكومة بقوانينها المستقلة عن قوانين المجتمع، أو نظرنا إليها بوصفها انعكاساً أو إفرازاً لنشاط قوى اجتماعية[2]، مع الإشارة إلى أن معيقات الثقافة لم تنقطع عبر جميع مراحل التاريخ، وهي مستمرة إلى عصرنا الحالي، وتتجلى في جانب منها في محاولات حرق الريادة الأنثوية واغتيالها.

1- د.ليلى بلخير ـ المرأة المبدعة في المنظور الثقافي العربي ـ جامعة العربي التبسي ـ تبسة ـ مجلة الآداب واللغات ـ 2016م.

2- صلاح صالح ـ سرد الآخر ـ الأنا والآخر عبر اللغة السردية ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ المغرب ـ ط 1ـ 2003م ـ ص 138.

واعتمدت سعاد الصباح في هذا الإطار على التحليل والمنطق بعيداً عن الانفعال والخطابية لتكون أكثر إقناعاً في ثورتها من أجل استعادة هذه الريادة، فبدت مبدعتنا ليست ثائرة ومقاتلة ومتمردة ورافضة فحسب، بل بدت في الوقت نفسه باحثة عن الاستقرار، وراغبة في أن تجعل من الرجل القاهر نموذجاً للمشاركة الإنسانية الإيجابية في الحياة، مستخدمة في ذلك أسلحة التحدي التي تتراوح بين السلاح الوجداني والروحي والنفسي، والسلاح العقلي والمنطقي، فحاربته بالموسيقى المهذبة للروح، وكانت موسيقى نابعة ومنبعثة من آلات تتسم بالحزن والشجن، وحاربته بالأصالة وبالمكان العربي والزمان العربي، وبتقاليد الشهامة والرجولة في الرجل العربي، وبغير ذلك، وكانت مثالية في حربها وفي أسلحتها، لتصل في النهاية إلى أنه يدفعها لنوع من الانتحار في حالة عدم استجابته لها، والخروج من إيقاع الحياة التي اختارها لنفسه، فتقول في ديوان "فتافيت امرأة"، معبرة عن موقف حاد يمكن للمرأة أن تتخذه ضد الرجل، وهي تعود لتقرر أن فكرة العيش من غير الحبيب انتحار حقيقي:

اكتب

صك إعدامك بيديك

وأنا سوف أكتب صك إعدامي بيدي

تعال نجرب هذه الحماقة الكبرى

فأقول للعالم إنني لا أحبك

تعال نجرب ولو على سبيل التمثيل

كيف يكون الانتحار

استقصاء الفكر الاجتماعي

ركـزت سـعاد الصبـاح في جانـب مـن معركتها من أجـل إصلاح حـال الرجل، عـلى اسـتقصاء مكونـات الفكـر الاجتماعـي، ومحـاورة الواقـع الثقـافي الـذي تأسـس ونشـأ فيـه وعي الرجل بالمـرأة وبذاتهـا، وبقدراتها الإبداعيـة وهويتها الفنيـة الممتـدة في وعـي الإنسـان، والمخترقـة لحـدوده، عـبر سلسـلة تراكميـة مـن التقاليـد والمفاهيـم الفكريـة المتجـذرة في الثقافـة الجماعية، عـلى امتداد الزمان والمـكان[1].

وناقشـت مـا لـدى الرجل من اعتقـاد في أن من أهم تلـك المفاهيم أن قدرة المـرأة الكاتبـة مرهونـة بنمـط تفكيرهـا، وما هـن إلا «ناقصات عقـل ودين»، إذ لماذا هناك أسـماء قليلة تكتب، وأسـماء أقل تسـتمر في الكتابة؟ فلا سـبب إلا أن الأمـر يعـود للقصـور الفكـري والنقـص البيولوجـي في المـرأة، وإذا صـح علميـاً وجـود هـذا القصـور، لم تكن المـرأة العربيـة المبدعة وحدهـا المتخلفة دون غيرهـا مـن نسـاء العـالم، فليـس للفـوارق البيولوجيـة دور في تخلفهـا، وإنمـا لـلإرث الاجتماعـي والثقافي، ولأنهـا بطبيعتها منصرفـة إلى أدوارها الأولى كأم وزوجـة، والمـرأة تتجـه بوجدانهـا إلى هـذه الأدوار عـن غيرهـا، لكـن متى مـا سـنحت لهـا نفـس الفـرص والتجـارب التـي تتـاح للرجـل المبـدع، تميـزت وأبدعـت كتميـزه وإبداعه.

وكثـيرة هـي المأثـورات التي صدّرت بها سـعاد الصباح مجموعاتها الشـعرية لتؤكـد أن مـن يتحدثـون عـن المرأة بمثل هذا الاسـتهزاء يسـيئون إلى أنفسـهم

1- نجمـة عبـد اللـه مـأزق ـ المـرأة الشـاعرة ـ قـراءة في الواقـع الثقـافي ـ عـالم الفكـر ـ المجلـس الوطنـي للثقافـة والفنـون والآداب ـ الكويـت ـ العـدد 2 ـ المجلـد 34 ـ أكتوبر/ديسـمبر 2005م ـ ص 181.

وإلى الأمهات التي أنجبتهم، وكيف أن الشرائع كرمت المرأة وأحاطتها بالاحترام، وكذلك فعل المفكرون والمبدعون عبر العصور.

صدّرت ديوانها «خذني إلى حدود الشمس» بمقولة لامارتين: «كل عمل مجيد وعظيم أساسه المرأة»، ومقولة جلادستون: «أعظم مخلوق هي المرأة إذا عرفت قدر نفسها»، ومقولة ميشليه: «ابحث عن قلب امرأة تجد أمّاً». وفي ديوان «فتافيت امرأة» نجد مقولتين للشاعر الفرنسي أراغون: «لا تزال لدينا فواتير كثيرة، قد لا يستطيع أولادنا، ولا أولاد أولادنا على مدى قرون أن يسددها للمرأة، إن رجل المستقبل سيكون قد تعلم من المرأة ما يكفي ليقدم اعتذاره»، والمخرج العالمي فريديريكو فلليني: «إنني أعتقد أن التاريخ على الصورة التي كتب بها، هو تاريخ الرجال مع محظياتهم وجواريهم، وليس من الممكن أن يكون المستقبل على صورة الماضي، يضاف إلى ذلك أن المرأة كشعب مقهور ومضطهد، سوف تصحح بصورة حتمية أخطاء الرجل الأساسية»، وذلك بالتوازي مع مقولتها: «هذه بلادي لا تريد امرأة تمشي أمام القافلة»، وهو موقف يتسق مع كونها عضواً بارزاً في المنظمات النسائية ومنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان.

ونجد مقدمة نثرية طويلة لديوان «قصائد حب» تصوب سعاد الصباح سهامها خلالها إلى الدفاع عن حق المرأة في التعبير والبوح، تقول: «هذه قصائد حب لا حدود لها، إنها محاولة لهدم كل الحيطان الحجرية التي تفصل بين الأنثى وأنوثتها، بين المرأة وحقها الطبيعي في أن تتنفس وتتكلم وتعيش، وإذا كان حق المرأة في الكلام العادي حقاً مرفوضاً ومكروهاً ومستهجناً في المجتمعات المتضخمة الذكورة، فإن الكلام عن الحب في تلك

المجتمعات يعتبر فضيحة كبرى وجريمة موصوفة، فالصوت الأنثوي كان من خلال مراحل تاريخية طويلة مرتبطاً بفكرة العار والعرض والشرف الرفيع، حتى وصل الأمر ببعض الغلاة والمتزمتين إلى اعتبار صوت المرأة عورة لا يجوز كشفها للسامعين، ولقد قاتلت المرأة طويلاً لاستعادة صوتها المحجور عليه، والخروج من مرحلة الخرس الطويلة، حتى تمكنت من إعادة تشغيل حنجرتها بعدما غطاها الصدأ، نتيجة لعدم التدريب وقلة الاستعمال. إن الحجر على صوت المرأة ووضعه تحت الحراسة، جعل المجتمع العربي ينطق بصوت واحد هو صوت الرجل، بكل خشونته وملوحته ونبرته المعدنية، وهكذا لم تعرف موسيقانا نصف الصوت أو ربع الصوت وظلت السيمفونية التي عزفها كورس الرجال وحدهم سيمفونية ناقصة. في بدايات هذا القرن، ظلت المرأة رغم انفتاح أبواب العلم والمعرفة أمامها، واتساع أفقها الثقافي تعبر عما يدور بعالمها الداخلي، بنصف لغة ونصف صوت ونصف حرية، فالمجتمع العربي لا يزال رغم التحولات التي طرأت على بنيته، يعتبر الصوت النسائي مؤامرة على دولة الرجال وسلطتهم، ويعتبر المرأة الفصيحة ظاهرة شاذة أو مرضية لابد من معالجتها بالعقاقير والمضادات الحيوية. وهكذا ظل فم المرأة مختوماً بالشمع الأحمر، غير صالح إلا لارتشاف الماء ومضغ الطعام، ومثل هذا الامتياز تتمتع به جميع الحيوانات بشكل غريزي. إن لعبة الحب هي لعبة يقوم بها اثنان، رجل وامرأة، فلماذا يلعب الرجل وحده بأوراق الحب، دون أن يعطي الفرصة للمرأة لتشارك في اللعبة وتجرب حظها؟ لماذا يحق للرجل حين تجتاحه عاصفة الحب أن يقول للمرأة أحبك، ولا يحق لها إذا بللتها أمطار الحب أن ترد عليه بلغة، ربما تكون أكثر حرارة وأعذب جرساً وأشد صدقاً؟ وإذا

كانـت المسـاواة البيولوجيـة غـير ممكنـة، فلماذا لا نحقـق المسـاواة العاطفية عـلى الأقـل، باعتبـار الحـب عاطفة إنسـانية، يشـترك فيهـا الذكـر والأنثى، ولا تحتمـل الفصـل العنـصري أو الجنـسي؟ في هـذه المجموعـة الشـعرية، أردت أن أحقـق نوعـاً مـن الاشـتراكية العاطفيـة بعيـداً عـن أي فكـر إقطاعـي أو قبـلي أو احتـكاري، وأن أسـترد حقـي الطبيعـي كأنثـى في نقـل مشـاعري إلى مـن أحبـه دون أي شـعور بالنقـص أو الاضطهـاد، أو بالخـروج عـلى قواعـد الأخـلاق العامـة، فالحـب الكبـير لم يكـن في يـوم مـن الأيـام مناهضـاً للقيـم العليـا، والأخـلاق العامـة، إنـه حـق مـشروع لا يختلـف عـن حـق الأمـواج في التكـسر، وحـق الرعـود في التفجـر، وحق العصافـير في الغنـاء والزقزقة، فلماذا لا يسـمح لي أن أكـون موجـة أو رعـداً أو عصفـورة، تغنـي على نافـذة حبيبها، دون أن تقتلهـا بوارِيـد الصيادِيـن؟ لقد تغـزل الرجل بالمرأة منذ بـدء التاريخ، ولم يـترك لهـا هامشـاً صغـيراً مـن الحريـة يسـمح لهـا بـأن تتغـزل بـه، إذ إن المبـادرة العاطفيـة كانـت دائمـاً في يد الرجـل، بالإضافة إلى امتيازاتـه القانونية والسياسـية والاقتصاديـة والثقافيـة، صحيـح أن بعـض النسـاء في تاريخنـا الشـعري قـد كـسرن هـذا الاحتـكار، كـما فعلـت الشـاعرة الأندلسـية ولّادة بنـت المسـتكفي، حـين أعلنـت أنهـا تعيـش حالـة عشـق، وكشـفت أوراقهـا الغراميـة بـكل شـجاعة، إلا أن الغـزل النسـائي بشـكل عـام ظـل غـزلاً خجولاً، ومـتردداً وخائفـاً مـن لعنة المجتمـع وخناجر القبيلـة، فالمجتمـع العربي -رغم كل مظاهـر الحداثـة والانفتـاح الثقـافي والحضـاري عـلى العـالم- لا يـزال يضع الفيتـو عـلى المرأة العاشـقة، ويعتبرها ناشـزاً، يشـكل كلامها عن الحب خدشـاً للحيـاء العـام، وخطـراً عـلى الأمن القومي. والسـؤال الـذي أود أن أطرحه هنا هـو: مـا علاقـة الأمـن القومـي بقلـب المـرأة وأشـواقها وأحلامهـا وأحاسيسـها

الأنثوية الطبيعية المشروعة؟ ثم أود أن أسأل: لماذا لا يكون العاشق خطراً على الأمن القومي، وقصائد الحب التي يكتبها تهديداً للسلام والأمن الاجتماعي؟ وإذا كنا نؤمن بالديمقراطية أساساً لأنظمتنا السياسية، فلماذا لا نطبق الديمقراطية على علاقاتنا العاطفية أيضاً؟ ولماذا نطبق مبدأ التمييز الجنسي بين الرجل العاشق والمرأة العاشقة؟ وبعد، فهذه قصائد حب، أحاول بها أن أقيم ديمقراطية عاطفية، يتساوى فيها الرجل والمرأة في حرية البوح، بحيث لا يحتكر الرجل وحده بلاغة الخطاب الإيروتيكي، ولا تبقى المرأة مجرد مستمعة لأسطوانة الحب التي يعزفها الرجل ليلاً ونهاراً، إن لدى المرأة كلاماً عاطفياً مخزوناً منذ آلاف السنين تريد أن تقوله، فاسمحوا لها أن تفجر ينابيعها الداخلية، وتطلق آلاف العصافير المحبوسة في صدرها، اسمحوا لها أن تنزع الأقفال عن فمها، وتقول للرجل الذي تحبه: أحبك، دون أن تذبح كدجاجة على قارعة الطريق، اسمحوا لها ولو لمرة واحدة في التاريخ أن تعرف معنى المساواة في الحب، وتستنشق رائحة الحرية».

وهي في ديوانها «في البدء كانت الأنثى» تخصص لهذا المعنى قصيدة بعنوان «الديمقراطية» تقول فيها:

ليست الديمقراطية
أن يقول الرجل رأيه في السياسة
دون أن يعترضه أحد
الديمقراطية أن تقول المرأة
رأيها في الحب
دون أن يقتلها أحد

وهكذا ركزت سعاد الصباح في مقدمة ديوانها على ثلاثة محاور رئيسية هي: المساواة العاطفية، والحرية في التعبير والبوح، والحق في الكلام، أياً كان موضوعه، مؤكدة أن الظلم الواقع على المرأة في هذه الميادين الثلاثة، يحدث بفعل العقول المتحجرة التي ورثت تقاليد القبيلة منذ بدء التاريخ.

ولم يكن هدف سعاد الصباح من هذه الحرية هو الخروج على الأعراف والتقاليد والأخلاق العامة، وإنما أرادت أن تجعل من الحب صنواً للحرية، عكس السائد من حصاره وتقييده وسجنه، فهذا يتضارب مع الفهم الصحيح للحب، وقد لمست سعاد الصباح بعداً جمالياً في تحرير الحب، وهو البعد الذي لمسه التصوف في شكل رائع وحققه المتصوفون حينما جعلوا منتهى الحرية نابعة من منتهى العبودية، إذ إن العبد عبر إخلاصه وصدقه في عبوديته لله، يتحرر من الخوف والخضوع لأي سلطة دنيوية، وهو معنى رائع ودقيق لمن يرتفع إلى مستواه[1].

والمعركة مستمرة لم تحسم بعد، إذ لم يكن الهدف هو نصب العداء ضد الرجل، أو أن يكون خصماً للمرأة، إنما يكون نصيراً لها ضد الأفكار والتقاليد المتحجرة، في مطالبة المجتمع بأن يمنح المرأة حق البوح، دون أن تتهم بالفجور أو أن تطولها سهام الاتهام، وفي مطالبة المجتمع بأن يحطم الفيتو الذي يضعه على المرأة العاشقة، والدعوة إلى إيجاد ما تطلق عليه «الديمقراطية العاطفية» التي يتساوى فيها الرجل والمرأة بحرية البوح.

وتعبر في قصيدتها بعنوان «فيتو على نون النسوة» من الديوان نفسه

1- د. مختار أبو غالي ـ سعاد الصباح والدفاع عن حقوق المرأة ـ صورة المرأة في شعر سعاد الصباح ـ هيئة الكتاب ـ القاهرة ـ 2004م ـ ص 76.

عـن صـورة مـن صـور مصادرة حريـة الـرأي، سـعياً إلى الحصول عـلى حقوقها كاملـة، مـن أجـل أن يتحقـق تحـضر المجتمـع الـذي تعيش فيـه، بحيث يصل إلى مرتبـة سـامية من التعامل الحضـاري والعصري بين الرجـل والمرأة، فتقول:

يقولون:

إن الكتابة إثم عظيم

فلا تكتبي

وإن الصلاة أمام الحروف حرام

فلا تقربي

وإن مداد القصائد سم

فإياك أن تشربي

وها أنذا

قد كتبت كثيراً

وأضرمت في كل نجم حريقاً كبيراً

فما غضب الله يوماً عليّ

ولا استاء مني النبي

كانـت المعركـة إذن تسـتهدف تصحيـح مسـار العلاقـة بـين الرجـل والمـرأة، ويتمثـل تصحيـح العلاقـة في أنـه كما يحتـاج الرجل للمرأة ونيسـاً، فـإن المرأة تحتـاج إلى الرجـل الإنسـان الـذي يتعامل مع إنسـانيتها ويشـعرها بإنسـانيتها ويهتـم بأشـيائها الصغـيرة، ويحاورهـا ويسـمع لهـا، ويبـصر عقلهـا، ويحـترم ذكاءهـا وأفكارهـا، ويحتـوي مشـاعرها وجنونهـا وشـطحاتها، لا مـن يهتـم بشـكلها وزينتهـا وثيابهـا وحليهـا، ويتعامـل معها كشـهريار الـذي يتعامل مع

المـرأة عـلى أنهـا مجـرد أنثـى تشـبع غرائـز الرجـل، إنهـا تريـد مـن الرجل أن يسـاندها في ثورتهـا عـلى الأصـول والجـذور، ويغـير معهـا السـلبية والخـوف والأنانيـة والتملـك، تريـد منـه أن يسـبح معهـا ضـد التيـار، وضـد الجـدران، والأسـوار وكل مـا يقيـد حريتهـا المسـؤولة، في حـدود الأخـلاق المجتمعيـة العامـة، تقـول سـعاد الصبـاح:

من اسمك تبدأ جغرافية المكان
ومن عينيك تأخذ البحار ألوانها
ومن ثغرك يولد الليل والنهار
ومن إيقاعات صوتك
ومن شرايين يديك
أولد أنا

وفي هـذه المعركـة، اتسـمت سـعاد الصبـاح بالجـرأة، والثوريـة عـلى نحو لم نعهـده إلا عنـد شـاعرات قليـلات على مر التاريـخ مثل ولّادة بنت المسـتكفي التـي ورد ذكرهـا في المقدمـة النثرية السـابقة، ومثـل حفصة الركونيـة، ونزهة الغرناطيـة، مـن شـاعرات الأندلـس، وكنّ جميعاً يتمتعن بمسـاحة مـن الجرأة والتحـدي والحريـة في البـوح والتعبـير، وعـدم الخـوف أو الحيـاء، والاكتفـاء بالتحليـق في فضـاءات تهويميـة وتهويمـات رومانسـية، أو الانكفـاء على الذات دون معالجـة قضايـا موضوعيـة تمس المـرأة وعالمها.

وهـا هـي تعيـد الكَـرَّة في أكـثر مـن قصيـدة، نجـد الحـرب ذاتهـا في قصيدة «إلى رجـل لا يُسـمى» وقصيـدة «رجـل تحـت الصفـر» و»هولاكـو العـصر»، و»إلى رجـل يخـاف البحـر»، وفي مثـل هـذه القصائـد وغيرهـا، ترفـع حـدة

الهجـوم عـلى الرجل الـذي تصفه بـ «المُعوَّق والمُعـوِّق»، الأولى بالفتح والثانية بالكـسر، بـل إنهـا تصفـه بالرجـل الآلي في قصيـدة «إلى روبـوت عربي عاشـق» حيـث لا يملـك الخـروج عـلى مـا غـذي بـه وشـحن بـه في ذاكرته، فهو يسـلك سـلوكاً يتسـق مـع المـوروث القديـم دون إدراك متغـيرات ومتطلبـات العصر، وهـي تسـخر في ذات الوقـت مـن المفارقة القدريـة التي أجبرت عليهـا المرأة، حيـث تسـتنجد بالرجـل الـذي تهاجمـه ليحررهـا مـن الحصـار، وينقذها من الظلـم والتعذيـب، عـلى الرغـم مـن أنـه هـو سـبب الظلـم والحصـار والألم والتعذيـب، تقول:

يا سيدي
يا ملك الحب ويا محرر النساء
إليك قد لجأت كي تلمني
من قسوة الأنواء

وهـي تصفـه بثلاث كلمات، سـيد وملك ومحـرر، وفي الأولى تناديه بمقومات السـيادة التـي تصـل إلى درجـة الاسـتعباد والاضطهـاد، وفي الثانيـة تشـير إلى درجـة التملـك والهيمنـة، وفي الثالثـة تسـتخدم سـمة المحـرر، بدلالة عكسـية سـلبية، عـلى طريقـة دراكـولا الروماني الـذي كان يتخلص من الفقـراء بقتلهم، وهنـا تـبرز ازدواجيتـه، ويتجلى عـداؤه للمـرأة، وانشـغاله بالمظاهر الشـكلية الحضاريـة، بينـما هـو في الحقيقـة معبـأ بتقاليد القبيلـة، وتقول:

سيدي
أيها اللابسني ثوباً من النار عليك
هل من الممكن

أن ترفع عن صدري وأنفاسي يديك؟

أحسن الله إليك

هل من الممكن أن تعتقني؟

فأنا لا أبصر الألوان دونك

وأنا لا أسمع الأصوات دونك

وأنا لا أعرف الشمس ولا البحر

ولا الليل ولا الأفلاك دونك

وإلى جانب ما سبق، فإننا نقف أمام اثنين وتسعين نصاً شعرياً، يتسم جميعها بالقصر، وكل نص منها يتناول موضوعاً محدداً، أو فكرة واحدة بسيطة، أو موقفاً معيناً، وأغلب هذه المواقف مستمد من الحياة اليومية المعيشة، أي أنها مواقف حياتية، التقطتها سعاد الصباح لتزيل الجليد الذي يغلف العلاقة مع الرجل، وفي الوقت نفسه ترصد من خلالها صفات الرجل في تعامله اليومي مع المرأة، في محاولة لتصحيح تلك الصفات، وكأنها تعلن أنها اقتربت من حياته اليومية لتزرع الدفء في حياته تلك، ولتبعث الروح من جديد في العلاقة التي تربط بينهما على أساس سليم، من هذه النصوص في ديوان «في البدء كانت الأنثى» نجد «حبة كرز» و«حماقة» و«سر نسائي» و«في بيت موزارت» و«الخاتم» و«حضارة القهوة» وغيرها.

وفي هذه المجموعة من النصوص نجد امرأة تحمل عاطفة لا تكترث بسببها لأي شيء آخر، وهي أنثى معطاءة محبة وعاشقة، وهنا تقدم نموذجاً للمرأة، ربما يجد الرجل فيه القدوة، فيبادلها العطاء والمحبة، بقدر الوفاء والإخلاص الذي تحمله.

ومثلما خاضت سعاد الصباح معركتها الفكرية والحضارية من أجل إصلاح حال الرجل، خاضت أيضاً معركة فكرية مماثلة من أجل إصلاح حال المرأة، وحتى تتمكن من أن تمارس حقها المشروع الذي لا يختلف عن حق الرجل في الحياة، من واقع رؤية حضارية تنبع من إيقاع العصر الحديث، وحتى تضع يدها على التباين الذي تعيشه المرأة، حين تتعامل برفق وحب وحنان مع الرجل، بينما هو رجل انتهازي لا يقدر إنسانيتها، ويكافئها بالقمع والبطش ووأد حريتها، ومن ثم تستعيد كرامتها وحقوقها المشروعة باعتبارها شريكة حياة.

المرأة.. المعركة الثانية

في هذه المعركة لم تتلمس سعاد الصباح وجه الكواكب المجهولة، بل كانت تقف على أقدام ثابتة على أرض الواقع، ولم تكن تدين الرياح التي تصنع الدوامات، بقدر ما كانت تدين المرأة في استسلامها وخنوعها وخضوعها، وعدم قدرتها على تغيير حالها إلى الأحسن، وهناك من النساء من لا يشغلهن إلا صخب الأولاد والبنات، وهناك من لا يشغلهن إلا تصفيف جدائلهن المضفرات بالحنين، وهناك من لا يشغلهن إلا تلوين أعينهن بالوله، أو يجعلن من أياديهن راعيات للجمال وخدودهن واحة للجنون، وهناك من لا يشغلهن سوى المواعيد مع المسرات، وكل معنى يعلقهن بالحياة، ولهذا كانت المعركة موجهة إلى كل ذات أنثوية، تبحث عن ذاتها في مجاهل الحياة، ومتاهة سردها الغامض.

ووقفت سعاد الصباح في مواجهة كل امرأة اختارت راحة البال، وتفرغت

للأضـواء والأزيـاء والرحلات والزينات، والحلي والجواهر والإكسسـوارات، وكل امـرأة اختـارت أن تعيـش كملكـة في مجتمـع مخمـلي، واختـارت أن تعيش في الأجـواء البراقـة، وحاولت جهـد إيمانها أن تقنعهن بأن هـذا المجتمع المخملي، وهـذه الأضـواء والأجـواء البراقـة مـا هـي إلا بـرق كاذب وسراب، وعليهـن أن يتخلـين عـن روح الخنـوع والخضـوع، وصور الاسـترخاء والضعـف والوهن أياً كانت، ويتمسـكن بـروح الجهاد[1].

وتقـول في قصيـدة بعنـوان «أنثـى 2000» مـن ديوانهـا «في البـدء كانـت الأنثـى»، ضاربـة بنفسـها المثـل لتتعلـم النسـاء كيـف تؤخـذ الحيـاة بالجـد، وكيـف أن المـرأة حـين تتحمـل مسـؤولية صناعة الحاضر والمسـتقبل، سـيكون لجهدهـا نتائـج إيجابيـة، تخيـم عـلى المجتمـع بـكل مـا هـو خـير:

قد كان بوسعي
مثل جميع نساء الأرض
مغازلة المرآة
قد كان بوسعي
أن أحتسي القهوة في دفء فراشي
وأمارس ثرثرتي في الهاتف
دون شعور بالأيام وبالساعات
قد كان بوسعي
أن أتجمل

1- انظر إلى قصيدة «أنثى 2000» من ديوان «في البدء كانت الأنثى».

أن أتكحل

أن أتدلل

أن أتحمص تحت الشمس

وأرقص فوق الموج ككل الحوريات

قد كان بوسعي

أن أتشكل

بالفيروز وبالياقوت

وأن أتثنى كالملكات

قد كان بوسعي أن لا أفعل شيئاً

أن لا أقرأ شيئاً

أن أتفرغ للأضواء وللأزياء وللرحلات

قد كان بوسعي

أن لا أرفض

أن لا أغضب

أن لا أصرخ في وجه المأساة

قد كان بوسعي

أن أبتلع الدمع

وأن أبتلع القمع

وأن أتأقلم مثل جميع المسجونات

قد كان بوسعي

أن أتجنب أسئلة التاريخ
وأهرب من تعذيب الذات
قد كان بوسعي
أن أتجنب آهة كل المحزونين
وصرخة كل المسحوقين
وثورة آلاف الأموات
لكني خنت قوانين الأنثى
واخترت مواجهة الكلمات

وفي هـذه القصيـدة تطلـب سـعاد النسـاء مـن كل امـرأة، أن تأخـذ الحيـاة مأخـذ الجـد، وتبتعـد عـن كل السـلوكيات التي دأبـت المرأة على أن تسـلكها، وتؤمـن بـأن قضيتهـا أحـق وأولى بالاهتمام، فـلا وقت لمغازلة المـرآة، ولا وقت لأن تتجمـل أو تتكحـل أو تتدلـل، ولا وقت لاحتسـاء القهـوة في دفء الفراش، أو ممارسـة الثرثـرة في الهاتـف، أو التشـمس تحـت أشـعة الشـمس، أو الرقص فـوق المـوج ككل الحوريـات، أو التزين بالفيروز والياقـوت وأغلى المجوهرات، أو الاستسـلام لراحـة البـال دون فعـل شيء، وتريـح نفسـها من مشـاق الحرب التـي أعلنتهـا على الرجـل الشرقي.

كـما تطالـب المـرأة أن تقبـل على القـراءة وأن تترك التفرغ للأضـواء وللأزياء وللرحـلات، وأن ترفـض الدمـع والقمـع والتأقلـم عـلى المهانـة وعـلى الإذلال، وأن تغضـب عندمـا تعامـل بالقهـر كالمسـجونات، وأن تـصرخ في وجه كل من يمتهـن كرامتهـا، وأن تهـرب مـن تعذيـب الـذات، وأن تتجنـب الجهـر بـالألم أو التـأوه، وأن لا تبـدو في لحظـات الضعـف، حتـى لا يسـتغل الرجـل تلـك

اللحظات لصالحه، وأن تختار المواجهة والمقاومة حتى تصل إلى مرادها من تحقيق أهدافها.

إنها تطالب المرأة أن تعلن غضبها في جرأة، وأن تتخذ من قوتها وغضبها في الحق قوة، كأن تقول للرجل:

ألم أقل لك إني أغضب كأي بحر
وإن داخلي مظلم لا تفلح معه القناديل
وإن بقلبي كنوزاً لم تمس
وكائنات مرتعدة

فهيا تعالَ لتفتش عن هذه الكنوز، ولكن حذار أن تجرح بداخلي ما فيها من كائنات.

وفي هذا كله تحمل سعاد الصباح على النسوة اللاتي تخلين عن روح الجهاد، وبذلك لم تكن تستهدف الهجوم على الرجل فحسب، بل هي تهاجم صور الاسترخاء والضعف أياً كانت، مع الرجل والمرأة، وفي هذا من العدل والإنصاف ما فيه، مما يجعل الرسالة حقاً، ويلبسها ثوب المشروعية والمصداقية والحيادية.

صور الشخصية السلبية

وتدين سعاد الصباح خنوع المرأة لعدد من الشخصيات والصور السلبية التي يتلبسها الرجل، ومن بينها النمط الشهرياري، حيث تقبل أن تعاشر رجلاً، كل ما يطلبه من المرأة هو عاصفة من القبلات، وشكلاً لائقاً جميلاً وزينة، أي يطلب عشقاً كبيراً وعطوراً وجسداً، نجد ذلك في قصيدة «كن

صديقي»، وفي هذه القصيدة تعبر عما يطلبه الرجل من المرأة، وما يجب أن تطلبه المرأة من الرجل، فهي تطلب الرقي في التعامل مع الحالة التي تعيشها المرأة، كما تطلب رقي الحس، وتستنكر على المرأة أن تظل خانعة وخاضعة للنزعة الشهريارية، ورؤيته لها كرمز للمتعة، وأن تظل على استعداد دائم، لمواجهة غضبه وثورة انتقامه في حالة رفضها، أو مطالبته بأن يبصر عقلها وذكاءها، أو أن تخضع لرغباته كلها حتى لو كانت ضد إنسانيتها وكرامتها وكبريائها، أو تسمح لنفسها أن تكون أمامه مجرد مطية لشهواته، تقول سعاد الصباح:

كن صديقي
فأنا محتاجة جداً لميناء سلام
وأنا متعبة من قصص العشق وأخبار الغرام
وأنا متعبة من ذلك العصر الذي
يعتبر المرأة تمثال رخام
فتكلم حين تلقاني
لماذا الرجل الشرقي ينسى
حين يلقى امرأة.. نصف الكلام؟
ولماذا لا يرى فيها سوى قطعة حلوى
وزغاليل حمام؟
ولماذا يقطف التفاح من أشجارها
ثم ينام؟

ومن الشخصيات السلبية أيضاً شخصية الحبيب السجان الذي تستعذبه

بعض النساء، وهو ذلك الرجل الذي يحتكر وحده اللغة الرومانسية، وتظل المرأة مجرد مستمعة لأسطوانة الحب التي يعزفها الرجل ليلاً ونهاراً، وتطالب المرأة أن تمتلك جرأتها لتعبر عن المسكوت عنه بكلمات من قاموسها هي، وأن لا تستعذب شخصية الرجل الذي يقهرها، ويأتي إليها آخر الليل عاشقاً ولهاناً، تقول سعاد الصباح في قصيدة «الحب المعتقل»:

هذه الدائرة التي رسمتها بالحبر الصيني
حول فكري وذوقي وعاداتي
حول كل بوصة من جسدي
وكل موجة من تموجات نفسي
وكل صغيرة وكبيرة في حياتي
هذه الدائرة
بدأت تأخذ شكل المعتقل
فلا تضيق الدائرة عليّ كثيراً
لأنني أريدك حبيبي
لا سجاني

ومن الشخصيات السلبية أيضاً، شخصية الرجل الإقطاعي المستبد والمتملك، فهناك نماذج من النساء تهوى هذه الشخصية، تحت مبرر أنها تحب الشخصية التي تمتلكها، إلى درجة تجعلها تتلذذ بأن تتوسل إليه لأن يعطيها حريتها، أو تتوسل إليه ليظل يحبها، وتتوسل إليه ليظل يغدق عليها بعطاياه، بل وتصل درجة التوسل إلى أنها قد تطلب منه أن يعذبها، إذا كان في ذلك رضاه ومتعته، ويستغل الرجل ذلك فيزيد من نرجسيته

وتعدديتـه وقهـره لهـا، تقول:

فيا أيها الإقطاعي
الذي يتجول على حصانه فوق شرايين يدي
ويمسك بيديه مفاتيح عمري
ويختم على شفتي بالشمع الأحمر
أتوسل إليك للمرة الألف
أن تمنحني حرية الصراخ
وأن لا تقف بيني وبين الغيوم
عندما تمطر السماء

صور الشخصية الإيجابية

وتطالـب سـعاد الصبـاح المرأة بـأن تغذي مقومـات الشـخصية الإيجابية في الرجـل، وهـو الرجـل الرمـز الـذي يتسـم بالحنـان والسـمو الخلقـي، والوفـاء والإخـلاص والتفكـير والتعقـل، والـذي يعطـي المـرأة حقهـا في التفكـير وفي التعبـير، وحريتهـا دون شـعور بالخوف أو القمع، والـذي يمتلئ صدره بالعطاء وقلبـه بالحـب، وتطالبهـا أن تعـزز رجولة هـذا الرجل الرمـز، وقدمت نموذجاً لهـذا الرجـل الرمـز، وهو زوجها الشـيخ عبداللـه المبارك الصباح الذي رسـمت لـه صـورة جميلـة في شـعرها، تعـبر عن أنه يجسـد الآمـال والطموحـات التي تريدهـا المـرأة، فخرجـت به من مقام الـزوج إلى مقام الرمـز، تقول في قصيدة «هـل نسـيتم» في ديـوان «إليك يا ولـدي»[1]:

1- إليك يا ولدي ـ دار سعاد الصباح ـ الكويت ـ ط 1 ـ 1992م ـ ص 18 وما يليها.

كَانَ فِي مَعْشَرِهِ صَدْراً حَنونا
وَسَنىً يُبْهِرُ بِالحُبِّ العُيُونا
وَنَدىً كَالغَيْثِ فِي كَفِّ السَّماءْ
وَإِباءً أَلْمَعيَّ الكِبْرِياءْ
وَلَهُ قَلْبُ الصِّغارِ الأَبْرِياءْ
كُلُّهُ خَيْرٌ وَطُهْرٌ وَوَفاءْ
أَيُّهَا المِقْدَامُ يَا عِزَّ الرِّجالْ
أَيْنَ أَنْتُمْ مِنْهُ فِي أَيِّ مَجالْ؟
أَنَسِيتُمْ أَنَّهُ صَقْرُ الخَلِيجْ
مُشْرِقُ الطَّلْعَةِ، فَوَّاحُ الأَرِيجْ

وكذلك قدمت نموذجاً ثانياً لهذا الرجل الرمز وهو الزعيم جمال عبد الناصر، وقد بدا ناصر في شعرها نموذجاً إنسانياً، تشيد به وتدافع عنه وتتبنى أفكاره، لأنه جسّد الحلم في الوحدة والتحرر، وقد تجلى ذلك في قصيدة "عندما رحل ناصر"، وهي ضمن ديوان "أمنية"، وقصيدة "من امرأة ناصرية إلى جمال عبد الناصر" وهي ضمن ديوان "فتافيت امرأة"، وفيها تركز على المضامين الفكرية، وقيلت بعد أكثر من عقد على وفاة عبد الناصر، تقول في "فتافيت امرأة":

كان هو الحلم الذي يورق في أهدابنا
كان بنا يطير فوق جغرافية المكان
مستهزئاً من هذه الحواجز المصطنعة

وهو الذي علمني أن الشعوب تسجن السجان
وأنها حين تجوع
تأكل القضبان

وتـأتي كذلـك شـخصية الشـهيد البطـل لتمثـل صورة مـن النـماذج الإيجابية في شـخصية الرجـل، وتثمـن سـعاد الصباح في هذا الإطار في عـدد من القصائد انتـماء مثـل هذه الشـخصية، وحبهـا لوطنها، ومـا لديه من رغبـة في التضحية والبـذل والعطـاء مـن أجـل وطنـه، وحـين يكـون الرجل كذلـك، فهـو بالتأكيد سـيكون مـع زوجتـه مثلـما هـو مـع وطنـه، ولدينـا على سـبيل المثـال قصيدة بعنـوان "أم الشـهيد" مـن ديـوان "أمنيـة"، وفيهـا تمثـل صـورة الشـهيد رمـزاً للشـهادة والتضحيـة في سـبيل الأوطـان، وكذلك نجد الأمـر في قصيدة "صيحة عربيـة" أيضـاً مـن ديـوان "أمنيـة"، وفيها تسـتدعي عـدة نماذج إنسـانية من التاريـخ الإسـلامي، لهـا مواقـف مشرفـة في التضحيـة والفـداء، منهـا شـخصية فاطمـة الزهـراء رمـز القداسـة والطهـارة، والخنسـاء رمـز البطولـة الفائقـة في تربيـة الأبنـاء، عـلى روح الشـهادة، وشـخصية يعرب وشـخصية صـلاح الدين، بـل إنهـا تصل إلى اسـتدعاء شـخصية أطفـال الحجـارة في قصيدة "سـيمفونية الأرض" مـن ديوان "خذني إلى حدود الشـمس"، وفيهـا ترمز إلى الدور البطولي الـذي يلعبـه هـؤلاء الأطفـال الأبطـال في الدفـاع عن أرضهـم وقضيتهم.

وفي كتابهـا القيـم الأخـير "الكويـت في عهـدي جابـر بـن عبدالله الصبـاح، وصبـاح بـن جابـر الصباح" تبحـث في تاريخ جابـر العيش وابنـه صباح، حيث تناولـت كل الجوانـب في حياتهـما السياسـية والاجتماعيـة والاقتصاديـة مبينة تواريـخ حافلـة لشـخصيات مهمـة أضافـت بصـمات نـيرة سـاهمت في دعائم

الدولة الحديثة والعلاقة المتميزة بين الحكام والشعب، بحكمٍ تميَّز بالتسامح والتشاور وروح الألفة بين الحاكم والمحكوم، شخصيات تركت بصماتها في سجل تاريخ الكويت. وقد كان للدكتورة سعاد قبل هذا الكتاب دراسات عن شخصيات تركت بصماتها في تاريخ الكويت مثل كتاب عن الشيخ عبدالله مبارك الصباح، والثاني عن والده الشيخ مبارك بن صباح الصباح الحاكم الخامس للكويت، وفي الرابع عن عهد الشيخ محمد بن صباح الصباح الحاكم السادس للكويت.

ويأتي هذا الكتاب الخامس عن الشيخ جابر العيش ونجله اللذين ساهما في إرساء دعائم الدولة الحديثة وتميّز العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتفرُّد الكويت بذلك عن جيرانها، وازدهارها تجارياً عبر البر والبحر، ونزوج الهجرات من مختلف أنحاء نجد، شخصيات تركت بصماتها على تاريخ الكويت على مر الزمان، كما تميز الكتاب بالكثير من الوقائع والأبحاث والوثائق العربية والأجنبية ترفد بها المكتبة الوطنية والعربية.

وكانت صورة الرجل في الذاكرة الأنثوية، تأتي سلبية أحياناً، وتأتي إيجابية أحياناً أخرى، وحاولت سعاد الصباح أن توجه المرأة إلى الاستفادة من الصورة الإيجابية، وأن تدعمها وأن تغذيها، وأن تواجه الصورة السلبية للقضاء عليها، موجهة المرأة نفسها بأن تتمسك بقدرتها على النضال من أجل قضيتها، والدفاع عن حقها، وأن لا تستسلم للراحة وتخضع للظروف، وتخنع لما يمارسه الرجل ضدها، من سلوكيات تتسم بالقهر والظلم والانتقام، وقد غيرت من ألفاظها التي تناديه بها، فبعد أن كانت تناديه بألفاظ من قبيل أميري وسيدي ومولاي، أصبحت تقف بطول قامته، وعلى قدم المساواة، وتناديه وتخاطبه يا صديقي،

وتصفه بالهولاكو والمستبد والسجان.

وقد بينت سعاد الصباح للمرأة نماذج الشخصيات الإيجابية في مجتمعنا العربي، مستدعية بعض الصور والرموز والأسماء الفردية والجماعية، القابلة للتعميم، بحيث تصبح قدوة أمام المرأة في مشوارها النضالي، وذلك بشكل مباشر دون أن تلجأ إلى التورية أو الرمز، كاشفة عن حقها في دفع المرأة إلى رفض النظرة الدونية، المسيطرة على ذهنية الرجل تجاه المرأة، والتي اختزنتها ذاكرته منذ عصور التخلف والانحطاط التي عاشتها هذه الأمة، وهي تلك النظرة النمطية إلى المرأة، بأنها لا تصلح إلا للمتعة والإنجاب.

الطفولة.. المعركة الثالثة

في هذه المعركة يتجلى إسهام المرأة التي هي جزء من هامش اجتماعي، بحكم موقعها وعلاقاتها وعملها والوعي بدورها، مما ينعكس على خصوصية تجربتها المتشكلة تحت وطأة ظروف لا تماثل ظروف تجارب الرجل، فهو جزء من مجتمع ذكوري ساهم باعتباره رجلاً في صياغة لغته وخطابه وأعرافه، بينما تظل المرأة في المقابل صوتاً هامشياً مضغوطاً ومقموعاً مما يلون طريقة خطابها بالكثير من المحظورات والمحذورات والإكراهات، وكأنها تقول عن النساء جميعاً: «وإنا لنحن المحبون المعذبون الراقصون فوق الجمر».

وتخوض سعاد الصباح هذه المعركة بطعم الأمومة، فنقرأ لها مقطعاً من قصيدة بعنوان «عقوق» من ديوان «في البدء كانت الأنثى» تلخص فيها أخطاء السلوك عند الرجل الشرقي والتي ينقلها للطفل منذ الصغر،

معتـبرة أن السـلوك الخاطـئ لـدى الأطفال يعود في الأسـاس إلى مـا تربوا عليه مـن مفاهيـم خاطئة:

يرضع الطفل من ثديي أمه
حتى يشبع
ويقرأ على ضوء عينيها
حتى يتعلم القراءة والكتابة
ويسرق من كيس نقودها
ليشتري علبة سجائر
ويمشي فوق عظامها النحيلة
حتى يتخرج من الجامعة
وعندما يصبح رجلاً
يضع ساقاً فوق ساق
في أحد مقاهي المثقفين
ويعقد مؤتمراً صحفياً
يقول فيه:
إن المرأة بنصف عقل
وبنصف دين
فيصفق له الذباب
وغرسونات المقهى

وتلفـت سـعاد الصبـاح بهـذه القصيـدة النظـر إلى أن الرجل الشرقي، سـواء

كان زوجاً أو ابناً أو أخاً، ينسى بوقوفه ضد المرأة، سواء كانت أمّاً أو أختاً أو زوجة أو ابنة، أنه غير وفي للأصل الذي نبع منه، ونسي أن المرأة هي السبب في وجوده وخلقته، أي أن الأمومة أصل خالق، وهي تعمل في كل الاتجاهات لتربي أبناءها، تربية قويمة مستقيمة، بينما يفسد الرجل ما تصنعه المرأة الأم، ويهد ما تبنيه في شخصية الأبناء، ولهذا السبب ربما تنتهي العلاقات الأسرية الدافئة بعدوانية، وتكشف سعاد الصباح أن الأم مجبرة في كل الأحوال على أن تدفع أمام نزوات الرجل ثمن أمومتها، فتقول في «ثمن الأمومة»:

لا أستطيع أن أقول لك: لا
ولا أستطيع أن أقف في وجه
نزواتك الصغيرة
فأنت تستغل طفولتك بذكاء
وأنا أدفع ثمن أمومتي

وهنا تتكئ أيضاً على فكرة التربية الخطأ التي يتربى عليها الطفل حتى يصبح رجلاً، وحين يكون رجلاً يمارس نزواته ويستغل ما به من بقايا الطفولة، ولا تجد الأم وقتها سوى أن تدفع الثمن من صحتها وأعصابها وصبرها، بما يعبر عن الظروف المحيطة بالمرأة الأم والتي تمتلئ بالصعوبات والآلام المبرحة والضغوط النفسية، وكأنها تشوى بهوادة وهدوء على نار الفحم، وهو ما يستوجب حث المرأة الأم على أن تستعمل إرادتها وأن تغير واقعها، وأن يكون أملها الكبير أن تسقط هذا الاستعمار الذي يحتل وجدانها، ويستغل ضعفها كامرأة، وحنانها كأم، ونقرأ في ديوانها بعنوان

«قـراءة في كـف الوطـن»[1] في الجـزء الخـاص بالطفولـة والأسرة، تعزيـزاً لقدر المـرأة الأم، ومعنـى الأمومـة الجميـل، بعنـوان «الطفولـة بسـاط أخضر»:

الأم هـي الغابـة الخـضراء الوحيـدة التي يمكـن أن ننام تحت أشـجار حنانها.

الأم هي الكتاب الذي يمنحنا الإيمان والثقة وراحة النفس.

الأم هي المدرسة الأولى

نتعلم منها جميع ألوان المعرفة

ونأخذ عنها دروساً في اللغة والتاريخ

كما نأخذ عنها دروس الوطنية والانتماء

وتقول:

يقف المجتمع بأكمله مع الولد لحمله هوية الذكورية

دون امتياز عقلي أو شخصي

ويقف أبي معي

تقف القوانين ضدي كأنثى، ويقف أبي معي

وتصـف سـعاد الصبـاح المـرأة الأم بأنهـا الوتـد الـذي يشـكل عصـب الثبات في الأرض، وفي بنـاء الأسرة، وفي إدارة الأمـور الاقتصاديـة عـلى مـر الأيـام في تاريـخ الكويـت، كانـت أمومتهـا المركـز الأهـم قبـل أن تتقلـد المسـؤوليات والوظائـف، كانـت أمومتهـا أولاً، ومـا بـه مـن دور اجتماعي وتربـوي، ثم جاء دورهـا الاقتصـادي ثانيـاً، خاصـة في الزمن الذي سـبق ظهور النفـط، إذ كانت

1- سعاد الصباح ـ قراءة في كف الوطن ـ دار سعاد الصباح ـ الكويت ـ 2017م ـ ص 54.

قسـوة الحيـاة التـي عانـت منهـا الكويت قبـل الطفـرة النفطية، تجـبر الرجل عـلى أن يغيـب أسـابيع وشـهوراً عـن البيت طلبـاً للـرزق، فتتحمل المـرأة الأم مسـؤوليات الأسرة والسـهر عـلى تربيـة الأبناء، وفقـاً لتعاليم دينهـم الحنيف، وآدابـه وأخلاقـه السـامية، ورعايتهـم وتلبيـة احتياجاتهـم، تقول[1]:

كل شيء قابل للمحو
إلا ذكريات الطفولة
وكل ما يأتي بعد ذلك
هو حروف مكتوبة على الماء
لا تلبث أن تتلاشى مع مرور الزمن

وتقول[2]:

محاولة إخراج المرأة من أمومتها
أو تشجيع تمردها على أمومتها
هما من وسائل قتل أنوثتها
ومحاولة أكيدة لشيطنتها

وتقول:

لا أعترف بثقافة
تلغي دور الأمومة

وبعـد ظهـور النفـط اسـتمر الوضع كما هـو عليه، حيث ظـل الرجل معظم

1- ديوان قراءة في كف الوطن - ص60.
2- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص 71.

وقته خارج المنزل أيضاً، لمتابعة أعماله ونشاطاته المالية واستثماراته، فتحملت عبء المسؤولية كذلك، بل زادت مسؤولياتها أمام مستحدثات العصر التي غيرت كثيراً من المفاهيم والقيم الأخلاقية، فلم يعد الطفل متمسكاً بتعاليم دينه، وأخلاقه التي تربى عليها، بل ذاب ذلك داخله كما يذوب الجليد بفعل الحرارة، تقول[1]:

الروابط الأسرية أخذت بالاندثار

لا أحد يريد أن يساكن أحداً،

أو يطاعم أحداً أو يحتضن أحداً

كل من أفراد الأسرة

صار جزيرة نائية لا علاقة لها بالجزر الأخرى

أو جمهوريات مستقلة

لكل دستورها وتقاليدها وأساليب حياتها.

الطفولة الكتاب الجميل

الذي لا يكتب إلا مرة واحدة.

سقى الله زماناً كنا نغرف من حلة واحدة، وننام في غرفة واحدة، ونتغطى ببطانية واحدة..

سقى الله ذلك الزمان

فلقد كانت فيه الشمس أكثر دفئاً والقلب أكثر حرارة.

البيت والأسرة كينونة الوجود.

1- ديوان قراءة في كف الوطن – ص55، 56.

وزادت الضغـوط الاجتماعيـة على المرأة الأم، حـين آمنت بالدور الذي يجب أن تلعبـه لتنميـة بلدهـا، إلى جانـب أمومتهـا، ولهـذا لم يكـن دخولهـا الحيـاة العمليـة نوعـاً مـن الوجاهـة أو الرفاهيـة أو المباهـاة والفخر، بـل كان بهدف المشـاركة في بنـاء المجتمـع المحـلي، القائـم عـلى الجمع بـين الحداثـة وتعاليم الديـن، واسـتطاعت المـرأة أن تؤكد نجاحهـا في كل المجالات التـي عملت بها، وتقلـدت فيهـا المناصـب، جنبـاً إلى جنـب نجاحهـا في القيـام بدورهـا داخـل الأسرة كزوجـة وأم، رغـم سـيف الخـوف الـذي ظـل دائمـاً مصلتاً عـلى رقبتها، بفعـل جـبروت الرجـل وعنفوانـه في التعامـل معهـا، تقول[1]:

لن أكذب فأقول لم أمزق
ولم أخبئ بعضاً من أوراقي
فكل أنثى من الخليج إلى المحيط
واقعة تحت سيف الخوف
أو سيف المجتمع
أو سيف التاريخ

وتقـول عـن صلابـة الأم والزوجـة في مواجهـة ضغـوط الحيـاة، وكيـف أنهـا تتحمـل المسـؤوليات الجسـام[2]:

علمتني الصحراء فن مراودة الأفق
والتطلع إلى المستحيل
والتحديق في اللانهاية

1- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص58.
2- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص62.

وعلمتني أن أكون قوية كالريح

وصابرة كالنخلة

أما البحر فقد علمني البحث

عن المرافئ التي لا تأتي

والذهاب إلى آخر المسافة

وآخر الأشياء

وهكذا يجتمع بي النقيضان

الصحراء بكل قسوتها وتقاليدها وأعرافها وسلفيتها وثباتها

والبحر بكل حركته وثورته وعنفه وجنونه

واللافت أن بعض النساء خرجن من هذه الدائرة، فوجهت سعاد الصباح لهن اللوم والعتاب، على ركونهن إلى الكسل، وانسياقهن مع رفه النفط، ورغد العيش، ونعيم الثروات، تقول:

في العصر الذي تتضخم فيه عبادة الذات

وعقد الأنانية والفردية

لم يعد لدى الإنسان وقت

يمارس فيه أبوته أو أمومته

الشعوب التي لا تهتم بصناعة أطفالها

لا مستقبل لها[1]

في هذا العالم المتخشب العواطف، النرجسي الأناني

1- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص75.

تبقى الأم هي ينبوع الحنان، الذي نغتسل بمياهه[1]

في هذا العالم المادي الاستهلاكي

الراكض وراء منافعه، وملذاته الأرضية

تبقى الأم هي الجزيرة الوحيدة، التي تتعاطى زراعة الورد[2]

واعتبرت سعاد الصباح أن هذا النوع من النساء أشبه بصخب الأولاد والبنات حين يلاعبن الغزلان البرية، أو يعبثن ببيوت النمل الترابية، فهن يحتجن إلى التوجيه الدائم، حتى لو وصل الأمر إلى أن يطلق عليهن صفير الريح ليفقن من غيبوبتهن، وهي ما أرادت -أعني سعاد الصباح- من الهجوم عليهن غير شمس تدفئ أرواحهن الباردة، وتدخل بعضاً من نورها، في جوفهن الذي يعج بالفراغ، ومهما تكن الإحباطات، سواء التي تأتي من المرأة ذاتها، بسبب كسلها وركونها، أو تلك التي تأتي من المجتمع، فقد استوجبت المعركة التي خاضتها سعاد الصباح من أجل إصلاح حال المرأة أن تستمر في النضال، حتى ترى المرأة وقد تبوأت أعلى مكانة، علمياً وثقافياً، للإسهام في تنمية المجتمع وإدارة شؤونه، مؤمنة على الدوام بأن عقل المرأة يمثل لها الجمال المتجدد، وفي جمال روحها الربيع الدائم، تقول[3]:

ازرع طفلاً صحيح الجسد والروح

وخذ وطناً صحيح الجسد والروح

وظلت سعاد الصباح معلقة بتساؤل تقول فيه: متى ينصف المجتمع

1- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص74.

2- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص76.

3- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص73.

المـرأة؟ متـى ينصـف المـرأة التي تتحمـل مسـؤولية الأمومة؟ متى يـرى المرأة شريـكاً حقيقيـاً في مسـيرته؟ وفي الوقـت نفسـه متـى تعرف المـرأة التي تمارس دورها كأم ومسـؤولة عن أسرة، أنها جدول الماء الذي يسـتطيع إطفاء الحريق الـذي يلتهـب فيه العـالم اليوم، وغصن الزيتون الأخضر الذي بوسـعه أن يعيد السـلام إلى هـذا الكوكـب المتفجـر، الـذي تعصـف بـه الحـروب شرقـاً وغرباً؟ متـى تعـرف المـرأة أن عليهـا أن تكـون دقيقـة الخطـوات، واضحـة الهـدف، لا تتـوارى في الحديـث عـن عواطفهـا تجـاه المحيطـين بهـا، زوجـاً وأبنـاء، حباً وغضبـاً، ولا تتـوانى في الدفـاع عـن قضيتها؟ ومتى تعـرف أن صلابتها أقوى من صلابـة الرجـل الواهيـة، ذلـك الرجل الـذي يراها ناقصـة عقل وديـن، وأنها لا تعـاني ضعفـاً، والتاريـخ مـليء بالأمثلة، فامـرأة واحـدة خلعت ملـك بريطانيا عـن الحكـم، وكليوباترا أشـعلت حـرب القيصرين.

لقـد علمـت سـعاد الصبـاح المـرأة أن تكـون ذات سـمو نفـسي، ترفـض أي حصـار، يقـام حولهـا، لتعيـش عمليـاً كل أبعـاد الحريـة، وتـضرب مثـلاً بتلـك الحريـة الشـخصية في ارتـداء الحجـاب، فتقـول: «إنـه يخلـق لـدى صاحبتـه راحـة نفـس تحتاجهـا، وارتداؤه شـكل من أشـكال التعبـير عن حريـة المرأة»، وتقـول عـن نفسـها: «أرى عبر مـرآة غرفة نومـي، مركباً ينتظـرني، ليأخذني إلى جزيـرة مالهـا سـواحل، اسـمها الحرية».

الطفل العربي

ومثلـما حملـت سـعاد الصبـاح هـمّ أطفالهـا، وأطفـال الكويت وسـعت إلى صـلاح حالهـم، وتربيتهم تربية صالحة، لأنفسـهم ولأمهاتهم ولوطنهم، حملت

أيضاً همّ الأطفال العرب، وتألمت لظروفهم المجتمعية، وبخاصة تلك التي تفرض عليهم أن يعيشوا في ضيق العيش، والفقر والعوز والاحتياج، حيث لا تتوفر لهم مقومات الحياة الكريمة، بسبب الظروف الاقتصادية المتردية، والأحوال المجتمعية المتدنية في بلدانهم، وهو ما يحرمهم من الانتماء الحقيقي لأوطانهم، ويغيّب وعيهم بقوميتهم، ويقتل حماسهم في الدفاع عن تلك الأوطان، تقول[1]:

لقد خذلتنا الحضارة
وسرقت منا أشياء كثيرة
أهمها تلك الفرحة التي عرفناها صغاراً

وتقول[2]:

حين يكون المستقبل العربي سراباً لا يلمس بالأصابع
فإن الإنسان العربي لا يجد أمامه سوى صدر طفولته يبكي عليه

وتقول[3]:

ليس لدي طفولة أولى وطفولة ثانية
طفولتي حالة مستمرة من الضحكة الأولى
إلى الدمعة الأخيرة
من الصرخة الأولى
للحصول على قطرة حليب من ثدي أمي

1- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص57.
2- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص57.
3- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص63.

إلى الصرخة الأخيرة

للحصول على قطرة من ماء الحرية

في مجتمع الملح

وتقول[1]:

الطفولة هي حالة ثورية

بل هي الحالة الثورية الوحيدة في حياة الإنسان

وعندما يكبر الإنسان تتصلب مفاصله الثورية

ترى مما كانت سعاد الصباح تشكو؟ هل كانت تشكو العقل العربي الذي يمنع هؤلاء الأطفال، من أن تنبت لهم قلوب يشعرون بها، أو عقول يبصرون بها؟ هل كانت تشكو تلك الشعرات الجديدة التي لم تنبت كتلك التي سقطت؟ هل كانت تشكو من يجيدون الرقص فوق الماء، حين يظهرون في وسائل الإعلام، ويصرحون في كل مرة، بأن كل شيء تمام، وأن الطفل العربي يتمتع بكافة المواثيق الدولية والحقوق الإنسانية؟ هل كانت تشكو هؤلاء الذين يتأرجحون كورقة شجر في مهب الريح، وهم يميلون حيث تميل؟ وهل تشكو من يشرب في صحتهم نخب الأوطان المتنافرة، والقلوب المتشاحنة، والأكتاف التي لا تعرف العناق إلا في حضن الأعداء؟ تقول[2]:

الطفولة هي هذه الأرض الطيبة

التي يمكننا أن نزرع فيها كل الأحلام المستحيلة

الأطفال

1- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص64.

2- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص78.

هم الخيول الرابحة

في سباق المسافات الطويلة

لعلها كانت الشكوى مما كان في حلقها مراً، وفي قلبها أشد مرارة، كانت سعاد الصباح كمن تضع رأسها في علبة مظلمة، أو في الصندوق الأسود، لتصبح قطرة ماء تغازل أمواج البحر الهادرة ثم تذوب، كانت تحاول عبر مسيرة نضالها أن تجعل الوقت أطول، حتى وإن فرضت عليها ظروف مجتمعاتنا الركض بحذاء ضيق، كانت تحاول أن ترتق قطع القماش المهلهلة في ثوب الأوطان، تقول:

الأم ليست مدرسة بيولوجية أو عضوية

ولكنها مدرسة سياسية كبرى

يتخرج فيها كل الرجال الذين يحكمون

الأبناء بداية ثانية لرحلة العمر

هذه الأجيال البازغة من الشباب

هي حكاية العمر كله

علينا أن نتعهد بالتربية والرعاية

لا بالوصاية والقهر

لمست سعاد الصباح كيف افتقد الطفل العربي القدرة على الحلم، مثلما افتقد القدرة على التكيف مع بيئته، في ظل افتقاد الوطن العربي لمشروع عربي يضم هؤلاء الأطفال، ويحميهم من عوامل التغريب الثقافي التي يتعرضون لها، وفي ظل ما يعرقل مسيرتهم العقلية والفكرية، في برامج التدريس ومناهج المراحل التعليمية المختلفة، والمعاملة التي يعاملون بها

داخـل المـدارس وقاعـات الـدرس، والتـي لا تمـت إلى العلم بصلـة، وفي ظل ما يواجهونـه مـن هجـمات إعلاميـة شرسـة، عـبر الترويج لبرامـج وأفـلام مبتذلة، ومـا تبثـه الإذاعـات والفضائيـات مـن سـموم فكريـة وثقافيـة، لا تسـتهدف سـوى تحويلهـم إلى مسـتهلكين، في المـأكل والمشرب والملبـس والزينة، والجري وراء كل مـا هـو أجنبي، لا يتفق مع صميم تقاليدنـا العربية الأصيلة، تقول[1]:

هل صارت الأمومة والأبوة ألقاباً رسمية
كألقاب البيك والباشا؟
هل نقلت إلينا أوروبا بلادتها العاطفية
أم أن العالم كله أصبح بلا قلب؟
هل توقف الكلام بيننا وبين أولادنا
وانكسر الحوار؟
هل أصبحت غرف البيت مجموعة من الكانتونات
لكل كانتون شخصية وسيادة وأفكار وميزانية؟
شيء مرعب
هذا الذي يحدث في العائلة العربية
فمن المسؤول عن هذا التشرذم والتفكك
ودخول القلب العربي إلى الثلاجة؟
هل انتقلت إلينا المجاعة العاطفية
فصرنا نبحث عن رغيف الحب فلا نجده؟

1- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص68، 69.

الطفل العربي

هو الاستثمار الرابح الأكيد

بقية استثماراتنا قابلة للربح والخسارة

وربما كان الأمر يزداد تعقيداً بالنسبة للطفل الخليجي، الذي رأت أنه فتح عينيه على رفاهية العيش، ولم يع قيمة الكسب والمال وعرق الجبين، ولم يعان الحرمان، فضلاً عن جهله بالجهد الذي بذله الآباء والأجداد، في الحصول على الرزق والكسب الحلال، وما بذلوه من جهد مضاعف لإيصال أطفالهم إلى مراحل التعليم المختلفة، حيث وفروا لهم كل الإمكانيات والاحتياجات، التي تمكنهم من التحصيل الجيد والتعليم المتقدم، وفي هذا الميدان لم تكتف سعاد الصباح بالكشف عن تلك المشكلات، بل بادرت بطرح بعض الحلول، لتصحيح الأوضاع، تقول:

القبلات التي نطبعها على خدود أطفالنا قبل المدرسة

نسيناها

وجبات الطعام التي نتناولها معهم

ألغيناها

نعطيهم المصروف ونقول «دبروا حالكم»!

وتحاول سعاد الصباح هدم كل الأشكال السلبية والصور التي تؤدي إلى التفكك الأسري، بكافة أشكاله، فقد تكون الأسرة ذات إقامة واحدة، أي يعيش أفرادها في مكان واحد، لكنهم مشتتون ومتفرقون وكل منهم يعيش بمفرده في عالمه، وهو السبب الأول في تفكك المجتمع، وهذه الفاجعة كانت تشكل لدى سعاد الصباح معركة جديدة.

في هـذه المعركـة لم يكن سـقف الحجرة يسـقط البالونات الملونـة والحلوى، بـل كانـت الثعابين والخفافيـش تتزاحم وتتدافع وتتسـارع وتهاجم.

كان المجتمـع في نظـر سـعاد الصبـاح ذا قدمـين مثقوبتـين، كان ينـزف، لا يسـتطيع أن يفـك عقـدة مـن خيطـين، أو يكـسر الأسـاور الورقيـة، كان ينـاور ألغامـاً تباغتـه كل ليلـة، كان يقـاوم ارتفـاع منسـوب الانفـلات والانحـلال الأخلاقـي، والتـشرذم المـادي والمعنـوي، كان يتكـور كل يـوم وينطفـئ.

كان المجتمـع في نظـر سـعاد الصبـاح يوقـظ الظـمأ، ويجمـع أحـرف الـكلام مـن الشـتات، فـلا يسـتطيع أن يكـوِّن جملـة مفيـدة، كان المجتمـع مبعـثراً، فكانـت سـعاد الصباح تسـابق الريـح لتحمل إليه سـلة الفاكهـة، كانت تلهث لتـزرع في أرضـه وردة لا تعـرف المـوت، كانـت تحفر بأناملها الناعمـة نهراً من عسـل، وكان الوطـن يبحـث عـن شـماعات ليعلـق عليهـا أخطـاءه، ولا يجـد سـوى الأكتـاف البشريـة، كانـت تجـري في الـبراح ركـض الوحـوش في البريـة، لتصنـع ضحكـة للعابثـين، وفردوسـاً للمتعبـين، وكان الوطـن لا يجـد فرصـة للهـرب، كانـت تمنـح أجنحتهـا الفرصة تلـو الفرصة، لتحلق فوق سـمائه، بينما كان هـو يبحـث عـن أكتـاف التعسـاء لتحمله.

المجتمـع في نظـر سـعاد الصبـاح هـو صنيعـة الرجـل، الرجـل وحـده، طالمـا ظـل يسـتبعد المـرأة مـن المشـهد، ويتعمـد إقصاءهـا وتهميش دورهـا، ويظل هـو المسـؤول وحـده -دون غـيره- عـن كل المشـكلات والقضايـا، والنواقـص التـي يعـاني منهـا المجتمع.

ألم يكـن مـن الأولى بالرجـل أن يدفع مجتمعـه نحو الرؤى المسـتقبلية، بدلاً

مـن أشـكال الترهـل المجتمعـي؟ ألم يكـن أولى بـه أن يؤمن بالمـرأة كشريك له في المسـؤولية المجتمعيـة، ويدفعهـا بقدراتـه وطاقاتـه نحـو الأمـام، ليسـتفيد مـن قدراتهـا وطاقاتهـا؟ وطالمـا هـي مهمشـة ومسـتبعدة، وطالما الرجـل أراد لنفسـه أن ينفرد بقيادة المجتمع، فلماذا لم يثبت نجاحه وفعاليته وإنسـانيته، ويضـع مـن القوانـين والأحـكام مـا يمكن مجتمعه مـن الثبـات والتقدم؟

ونقـف في حالـة كتلك أمام تسـاؤل: إذا كانت الأداة العاملة في خلق الأشـياء غـير صحيحـة، فهل تسـتطيع أن تخرج تلك الأشـكال نتائج صحيحة وسـليمة؟ وهـل يملـك الرجـل العاجـز عـن معرفـة ذاتـه، أن يحـدد إحداثيـات مجتمعه وحياتـه وكونـه؟ وهل يسـتطيع أن يضع قانوناً إنسـانياً سـليماً؟

مـن التسـاؤل انتقلـت سـعاد الصبـاح مـن الشـك إلى اليقـين، وباليقـين عـبرت وصرحـت ووضعـت التصـورات والاقتراحـات والحلـول، ورفضـت مـا يمليـه الواقـع مـن صلاحيـات للرجـل، ويحـرم منهـا المـرأة، ورفضـت انتهاكاته وأحكامـه وقوانينـه المغلوطـة، وأعلنـت انتماءهـا إلى أصالتهـا العربيـة، التـي أسـس الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم أسسـها وأركانهـا، يـوم أعطـى المـرأة حقهـا وكرمهـا أفضـل تكريـم، تقـول:

يا سيدي
سوف أظل دائماً أقاتل
من أجل أن تنتصر الحياة
وتورق الأشجار في الغابات
ويدخل الحب إلى منازل الأموات
لا شيء غير الحب

يستطيع أن يحرك الأموات

هنا تنتصر سعاد الصباح للحياة، ومع حركة الحياة يتم بناء المستقبل، ومع الوقوف على الحاضر واستشراف المستقبل، يكون المجتمع قد عرف ما له وما عليه، واستبصر أفراده مهامهم من أجل بيئتهم ومجتمعهم، الحياة لابد أن تنتصر بعناصر مسكونة بالحركة والحق، إن انتصار الحياة يغيّر شكل العالم، وشكل المجتمع، وينشر السلام، والحب هو القوة التي تكسب الكون حياة وخصبا، إنها القوة العجائبية التي تبعث الحياة حتى في الأموات.

ووجهت سعاد الصباح معركتها من أجل إصلاح حال المجتمع، باتجاه المثقفين باعتبارهم القادة الاجتماعيين الذين يقودون الناس إلى الإصلاح، وإلى التغيير وإلى التطور وإلى تحريك الأفكار، وتقول في ديوانها «قراءة في كف الوطن» تحت عنوان «في البدء كانت الكلمة»:

- كل إنسان عربي مثقف يجب أن يوظف ثقافته لطرد الخرافات التي تعشش في عقلنا الباطن كالعنكبوت.[1]
- كل إنسان عربي مثقف يجب أن يكون له صوت في معركة التغيير.[2]
- الظمأ الثقافي لا علاقة له بالتصنيفات الاجتماعية إنه حاجة روحية تتفجر داخلنا بصرف النظر عن موقعنا وهويتنا والصراع من أجل رفع المستوى الثقافي لا يرتبط بالحاجة المادية أو بمن نكون.[3]

1- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص 13
2- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص 14.
3- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص15.

• الثقافة يجب أن توضع تحت تصرف الآخرين وإلا كانت ثقافة فردية وأنانية.[1]

وتناشد المجتمع أن يهتم بالمعرفة والتحصيل العلمي فتقول:

• للمعرفة الدور الأكبر في بناء المجتمع لأن المجتمع معرفة، والمعرفة قوة[2]

• لا أحد استطاع أن يصل إلى جوهر الحقيقة حسب الإنسان أن يكون إنساناً قادراً على السؤال لأنه لا يموت إلا عندما يتوقف عن طرح الأسئلة[3]

• الثقافة هي السؤال والإنسان الذي لا يسأل يأخذ شكل الحجر[4]

• السياسة شوهت وجه الإنسانية والإبداع جمله الثقافة هي آية العقل وخلاصة الحكمة والسياسة هي خلاصة الميكافيلية[5]

وقد وجهت معركتها من أجل إصلاح حال المجتمع ضد الظلاميين أيضاً، وأعلنت أسلحتها في التحدي، فكانت كمن تعيد ترتيب أعواد القمح، ليطرح طعاماً للجائعين، وكمن يعيد ترتيب أغصان الزيتون تحت أنوار الفوانيس، لتنير دروب المتعبين السائرين في الظلمات، كانت تفرد عباءتها لتلملم الضوء من أجل مجتمعها، ومن أجل الحياة، كانت تنثر الحقائق في وجه الرياح، غير عابئة بما سيحدث من انتثار وشظايا، كانت تتسلل في ضوء القناديل، لتعود بنور الهلال المرتعش بين أهداب الخوف.

1- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص15.
2- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص19.
3- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص20.
4- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص22.
5- من ديوان قراءة في كف الوطن - ص23.

وفي هـذه المـرة لم تعتمـد عـلى المفـردات اللغويـة صعبة المـراس، بل راحت تسـتخدم الكثـير مـن مفـردات القامـوس اليومـي، وتوظـف الألفـاظ اليومية، للدفـاع عـن قضيـة المجتمـع الكـبرى، التي تهـدده في احتشـاد كبير واسـتنفار لـكل القـوى، محطمـة الأسـوار والقيـود التـي تكبـل أقـدام المجتمـع، مـن الحركـة والانطـلاق، بداية من الشرطـة والبوليس الـسري والمحاكم والملصقات والجـدران والإقامـات الجبريـة وتسـجيلات الأشرطـة والإدانـات والمحـاصرات وكتـم الأنفـاس والملاحقـات والمطـاردات والاغتيـالات والمباحـث، وغـير ذلـك مـن المظاهـر التـي تعيـق سـلامة المجتمـع وأمنه، فتقـول[1]:

(1)

كل شيء من حولنا يتساقط

الفرح

والطفولة

ودفاتر الشعر

وشجر الأحلام

كل شيء يضيق

حتى مساحة البحر

ومساحة الحرية

1- من قصيدة «القمر على قائمة المطلوبين» من ديوان «في البدء كانت الأنثى».

(2)

حتى الشمس في هذا العصر الظلامي

أخذوها من بيتها

وحكموا عليها بالسجن خمسة عشر عاماً

بتهمة توزيع رسائلها الضوئية

على نوافذ المواطنين

حتى ضوء القمر

ألصقوا صوره على كل جدران المدينة

وطلبوا إلقاء القبض عليه

حياً أو ميتاً

(3)

حتى سنابل القمح

وضعوها في الإقامة الجبرية

ومنعوا العصافير من زيارتها

حتى كلامنا في المقهى

أو على الهاتف

مسجل على أشرطة

ومحفوظ في أرشيف المباحث العامة

(4)

إنهم يحاولون أن يغتالوا القصائد

ويحرقوا غابات الحب الخضراء

ويستأصلوا رجولة الرجال

وأنوثة النساء

ولكننا

سنتحداهم بكل طاقاتنا عن الحب

لأن الحب وحده

هو الذي سيطرد جحافل البرابرة

ويوقف هجمة عصور الانحطاط

ولم تكن سعاد الصباح في هذه المعركة الشرسة تسير كمن يسير خفافاً خفافاً تحت ظل القمر، أو تسير رويداً رويداً تحت ضوء النجوم، بل كانت بحجم التحدي، تواجه كل من قتلوا في الحياة والمجتمع كل ما هو جميل، كانت تواجه عوامل القبح في كل شيء، وتواجه أسباب الفساد في كل شيء، كانت تقلم الأشجار، وتقص الشوك، وتزيل معيقات الطريق، وتصلح المطبات، وتحلق بأجنحة كالطير لتلتئم الجراح القديمة.

أحبت سعاد الصباح الجمال في كل شيء، فبذلت جهدها أن تجد من يماثلها في حب الجمال، والفرح والطفولة والشعر والأحلام والشمس والقمر والبحر وسنابل القمح والعصافير، وهي تحارب كل البرابرة الذين يحاولون قتل كل هذه المعاني، وها هي تعلن التحدي في ثقة وقوة، بأن الطريق ما زال طويلاً، ولن تتكاسل أو يخفت حماسها في النضال من أجل كل معنى جميل في هذه الحياة، ومن أجل أن يصبح المجتمع مجتمعاً جديراً بالحياة.

وتثمن سعاد الصباح قيمة الصداقة، بين الإنسان وأخيه الإنسان، وترى أن الصداقة هي النافذة الحقيقية لبناء المجتمع، والحياة بين الناس، فلو أن كل إنسان اختار له صديقاً، وتعامل معه بكل معنى الصداقة، من صدق وإخلاص ووفاء، فلن يكون هناك مشرد أو مشتت أو ضائع في خضم الحياة، كما لن يكون هناك جموح المزايدة في الإطراء أو انتهازية في المديح أو الانتقاد.

تقول: «أنا لا أريد صديقاً يحرق لي البخور إطراء، إذا كنت أستحق كلمة الثناء أقبلها، فإذا تجاوزت حدودها عافتها نفسي، ثانيها أن لا تكون غايتها أكثر من الصداقة، وأكثر شططاً، وثالثها أن يعاملني الصديق كصديقة، إنسانة، فلا يصنع لي مكانة عالية، ولا يتصل بي عبر المراسم، الصديق الحق هو صديق الشدة، وكل ما أوده منه أن يتذكرني لحظة الحزن، وليس في ساعات الفرحة، وأن يكون معي في وجه الإعصار لا خلفي، ولي أصدقاء كثيرون من قاع المدينة، وآخرون في القمة مروراً بمن عرفتهم وتربيت معهم، وتعلمت منهم وعلى أيديهم، رصيدي الكبير في هذه الدنيا هم الأصدقاء، كم أنا ثرية بهم، ومعتزة بدخولي عالمهم».

وترى أنه ليس هناك لحظة أشد حزناً على النفس، من غدر الصديق، وقد تقبل غدر خصم اختار خصومتك، ولكن أن يكون الغدار صديقاً، فتلك هي الكارثة، تقول: «لقد تعودت أن أمسح اسم من يغدر بي من أوراقي وذكرياتي، ولا أحسب الغدر طبيعة بشرية، إنه سلوك أعوج، شأن جميع مظاهر السلوك البشعة، ولقد عرفته على الصعيد الشخصي، وعلى الصعيد الوطني، وهذا هو أعمقها جرحاً، لقد كشف لي المال آخر ورقة

تـوت تسـتر أجسـادهم، فـإذا هـم عـراة من كل مـا كانوا يلبسـونه مـن أقنعة الحضـارة والثقافـة والأخلاق».

ولنـا أن نتخيـل لـو أن مجتمعاً قام على هـذه المعاني الصادقة، أو لو أن حياة قامـت عـلى هـذا الود الخالص، حيـاة تملؤها الإنسـانية والتـوازن وطهارة اليد وعفـة اللسـان، والـذكاء والطمـوح والشـجاعة، والمغامـرة والرصانـة ورجاحـة العقـل، والقداسـة والحنـان، والصلابـة والجـرأة والحسـم، والحلـم والحـب والرومانسـية، والوفـاء والتفاهـم والرؤيـة المشـتركة والفـن، حيـاة بنكهـة الإنسـانية المثقفـة والمتحضرة.

ولعل المحصلة كانت تسـتهدف في هذه المعركة إصلاح حال الإنسـان، فطالما أصبحـت الحيـاة صالحـة، والمجتمع صالحـاً، فلن يتحقق ذلـك إلا بصلاح حال الإنسـان، وفي هـذا الميـدان كان اهتمامهـا بالثقافـة المجتمعيـة اهتمامـاً كبيراً، إيمانـاً بـأن الثقافـة سـلاح يملـك التغيـير الحقيقـي للمجتمـع والإنسـان، وأن الثقافـة هـي النـبراس الهـادي والـسراج المنـير، الـذي يملـك أن يـضيء الدروب والطـرق لـكل البشر، فبذلـت جهوداً كبيرة في تشـجيع المشـاريع الثقافية، وفي تشـجيع الأعـمال الفكريـة والثقافيـة، وفي تشـجيع إقامـة المنتديـات والمراكـز الثقافيـة، والدراسـية، وسـاهمت في تأسـيس المنظـمات والهيئـات المحليـة والعالميـة، وفي تشـجيع كل مـا لـه صلـة بميـدان الفكـر وحقـوق الإنسـان، ولا ننـسى أنـه كان لهـا مشروعهـا الخاص الذي حمل اسـمها، واسـتهدف أن يشـع نـوراً ثقافيـاً عـلى كل أرجـاء الوطن العربي، تحت مسـمى «دار سـعاد الصباح للنـشر والتوزيع»[1].

1- سبق الحديث عن هذه الدار.

كانت سعاد الصباح تؤمن بأن الثقافة وحدها هي القادرة على صنع الحياة الجديرة بالحياة، وهي القادرة على تنمية الذوق العام، وتنمية الملكات الإبداعية، وتقوية الروابط المجتمعية، وتنمية الإحساس بالجمال، والنفور من القبح، كانت تؤمن بأن الثقافة هي القادرة على مواجهة الكوابيس المجتمعية، والمصائب التي تصنعها السياسة، وقادرة على مواجهة الأنواء التي تجثم فوق صدر المجتمع، والغصة التي تملأ حلقه، أو المرارة التي تملأ ريقه، أو طعم الخنجر المسموم الذي قد يطعن به غدراً في يوم من الأيام، بل إن الثقافة هي الرحيق الذي يمكن أن تستنشقه الحياة، قبل أن تتذوقه الشفاه، ولهذا ظلت تشهر سيفها الشعري والفكري، من أجل أن تستعيد وجه وطنها ومجتمعها الناضج.

تقول: «لقد ولدت وليس في فمي معلقة ذهب، وإنما صرخة حب وحنان للمجتمع، وإحساس عنيف بالمسؤولية تجاه الإنسان، النضال من أجل حقوق الإنسان وحرياته هو الوجه الآخر للحياة التي أحب ولن أكره، وما الكائن البشري إلا تركيبة من الحنين الدائم للخروج من مملكة التراب، إلى مملكة الضوء».

وما أجمل هذا التعريف الذي يرتقي بالإنسان إلى مرتبة الدرجة السامية، التي أرادها الله سبحانه وتعالى للإنسان، تكريماً له وتمييزاً عن بقية المخلوقات، وتأكيداً على الترفع عن الالتصاق بالتراب، والتسامي إلى حيث يعم التسامح والسمو وصفاء الروح.

هي في هذا ترتقي بالإنسان، ولا شك أن رقي الإنسان هو في حقيقته رقيّ للمجتمع، ورقيّ المجتمع هو في حقيقته رقيّ بالحياة، وحين ترقى

الحياة يمكن لها وللإنسان، أياً كان وفي أي مكان، أن تتلون بلون الفرحة، وأن تتحول الحياة إلى عصفورة تلهو بين الأغصان، أو تلهو وهي تقفز فوق الكراسي، أو تقف خلف الطيور، لتباغتها بالفرحة، دون أن تدري، أو أن تترك للنسيم فرصة أن يداعب ضفائرها، أو أن تطلق ضحكات ملونة، فيتحرك الهواء الراكد، وساعتها يمكن للمرأة أن تجعل من عينيها أغنيتين لا تتعثران، ولا تنشزان، وأن ترفع الحاجبين لبوابات القمر، وأن تنسق الظهور على الطريقة اليابانية، وأن تقلم أظفار القطط، مثلما تقلم أظفار الكلام، فيصبح الكون علبة من موسيقى، وساعتها لن يرفع المهووسون أسلحتهم في وجه المخابيل، الذين يرفعون راياتهم في وجه الليالي المظلمة.

القراءة والكتابة.. المعركة الخامسة

في هذه المعركة كانت سعاد الصباح تعلن التحدي لهؤلاء الذين كانوا يحاولون تكسير عظام المرأة، في تفوقها في أي ميدان، وبخاصة ميدان الكتابة، والحديث عن مظاهر التحيز ضد المرأة في التراث العربي، هو الحديث عن المعيقات والعراقيل أمام ريادة الأنثى في الفكر والثقافة والإبداع -كما ذكرنا- بسبب طغيان عنصر التحيز في الإنسان، ومعناه القضاء على البذور المنتجة في المجتمع.

إن اغتيال ريادة الأنثى هو اغتيال للثقافة ذاتها، بوصفها المجال الأسمى والأرقى الذي يمارس فيه الإنسان إنسانيته، سواء نظرنا إلى الثقافة بوصفها بنية مستقلة، معزولة ومحكومة بقوانينها المستقلة عن قوانين المجتمع، أو نظرنا إليها بوصفها انعكاساً، أو إفرازاً لنشاط قوى اجتماعية، مع الإشارة

إلى أن محارق الثقافة لم تنقطع عبر جميع مراحل التاريخ، وهي مستمرة إلى عصرنا الحالي، وهي لا تزال مرتبطة بصورة ما -عبر صيغ مختلفة- بمحرقة الثقافة الأنثوية واغتيالها[1].

وقلنا من قبل إن أدب المرأة المقاوم، والمدافع ضد كل أشكال القهر المادي والمعنوي، ساهم في تمزيق ستار النفاق الاجتماعي، وفضح الازدواجية التي تعرقل تقدم المرأة المبدعة، وتحد من عطائها في مواجهة أنماط الزيف وأقنعة التصنع، التي يتلبسها المثقف، وكأنه يعيش ازدواجية الخطاب، أو انفصام الشخصية، لأنه غير مقتنع أن المرأة المبدعة، بإمكانها إثبات موهبتها، حتى وإن طاله بعض الإعجاب بتقدمها الفني، فإن هذا الإعجاب، سرعان ما يتبخر إن كان على حساب واجباتها الاجتماعية التي لا تنتهي، وقيامها بهذه الواجبات، لترضي رغبته العارمة في التملك، وأي تخاذل أو نقصان من طرفها، يعرضها لضغوط اجتماعية ونفسية، قاصمة لفكرها، وناسفة لإبداعها[2].

وتفسر فريدة النقاش حالة الازدواجية التي يعاني منها الرجل في نظرته للمرأة وعلاقته بها، بوجه من الاستبداد الأبوي، يحرجه أن تضعه مناقشة ما، أو موقف ما، أمام العقد الذهنية، التي لم تحل، حيث تظهر ازدواجية موقفه من المرأة واضحة.

ومن هنا صبّت سعاد الصباح اهتمامها بالكتابة من أجل إصلاح حال

1- د.صلاح صالح ـ سرد الآخر ـ الأنا والآخر عبر اللغة السردية ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء المغرب ـ 2003م ـ ص138.

2- نجمة عبد الله ـ المرأة الشاعرة ـ قراءة في الواقع الثقافي ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد 2 المجلد 34 أكتوبر/ديسمبر 2005م ـ ص181.

هـؤلاء الذيـن ينكرون على المرأة دورها، حتـى وإن كان الهدف هو دفع المرأة إلى الفضفضـة، وإلى البـوح، بـدلاً مـن كتمان مشـاعرها حتى الانفجـار، ومثلما كان اهتمامهـا بالكتابـة لـدى المـرأة كبـيراً، جـاء اهتمامهـا مماثـلاً بالقـراءة، فحثـت المـرأة عـلى الاهتـمام بالقـراءة، لتزيـد المـرأة مـن وعيهـا بمشـكلاتها، وواجباتهـا، ودورهـا الاجتماعـي، وحتـى لا يكـون لأحـد عليهـا سـبيل، يمكـن أن يتهمهـا فيـه بالتقصـير، وبخاصـة أنهـا مسـؤولة عـن تربية الجيـل الجديد، وهـو الجيـل الـذي خاضت سـعاد الصبـاح معركة مـن أجله، فكأنها تسـتكمل مـا بدأتـه، لتعيـد هيكلـة المجتمع على أسـس علميـة واعية، تقوم فيهـا المرأة بالـدور الرئيـسي، لأن المـرأة هي التـي تقع على عاتقها المهمة الأساسـية، وهي التـي تتحمـل العـبء الأكـبر في التغيـير، سـواء بالنسـبة للأفـكار أو التقاليد أو القناعات.

ولمسـت سـعاد الصبـاح أن هنـاك مشـكلة تمثلـت في أن التطـور الـذي مس شـخصية المـرأة، وشـكل أفـق انطلاقهـا، كان بعيـداً كل البعـد عـن مسـار المجتمـع، ثـم إن تحـرر المـرأة لا يتحقـق إلا بالنضـال مـن أجـل إلغـاء عـالم قديـم، وخلـق عـالم جديـد، تتحـد فيـه طاقـات الرجولـة وقـوى الأنوثـة، لأن نهضـة المـرأة الأدبيـة، مرتبطـة بدورهـا في المجتمـع، وتتحقـق طموحاتهـا في اسـتمالة الآخـر -الرجـل- كي يشـاركها قضاياهـا، والاهتـمام بتعبيرهـا الصـادق ومشـكلاتها، دون إزاحتـه لتحـل محلـه، بمـا يجعلهـا حربـاً عـلى المجتمـع[1].

ولا ننـسى أن هـذه الأفـكار، كانت مـن أهم محاولات النقد النسـوي الغربي،

1- فريـدة النقـاش ـ حدائـق النسـاء في نقـد الأصوليـة ـ مركز القاهرة ـ دراسـات حقوق الإنسـان ـ 2002م ـ ص7.

التـي نـادوا بهـا لتناهـض آثـار وقيـم المركزيـة الذكوريـة، وإحـلال المركزيـة الأنثويـة محلهـا، كقطبـين متنازعـين عـلى السـيادة، وتعـد مـن مظاهـر التأثر بمقـولات هـذا النقـد، لكن رأت سـعاد الصبـاح أنه بالنسـبة لنا، فهي مشـكلة لـن يكـون حلهـا إيجابيـاً، إلا بإحـلال ثقافـة المشـاركة والاتسـاق، بـدلاً مـن ثقافـة الإقصـاء والـصراع، والتنـازع عـلى المواقـع، فمشـكلة المـرأة المبدعـة في بلادنـا، لا يمكـن لهـا أن تحـل خـارج السـياق الاجتماعـي والحضـاري، للأمـة العربيـة والإسـلامية.

تقول[1]:

- المرايـا لا تسـتطيع أن ترى نفسـها، فالصـورة الذاتية للكاتب لا يرسـمها هو، إنما يرسـمها الآخرون.
- الكلمة التي تجرحني لا تقل أهمية عن الكلمة التي تعانقني[٢].
- القراءة بستان بحجم البحر[3].
- أنا من بيت يتنفس القراءة، ويتمرغ في الكتب كل يوم.
- إن المبـدأ الديـكارتي المشـهور»أفكر فأنـا موجـود»، يأخـذ بالنسـبة لي صيغة أخـرى «أكتب أنـا، فأنا مرجومـة»[4].
- أحمل الحزن المضطرب في عيني، وأكتب إليكم.
- الكتابـة عـلى هـذه الصحـراء اللانهائيـة مـن العطـش، تبـدو وكأنهـا انقلاب

1- من ديوان «قراءة في كف الوطن» في الجزء الوارد تحت عنوان «في البدء كانت الكلمة» ص11.
2- نفسه ص 12.
3- نفسه ص 13.
4- نفسه ص 16.

عـلى طبيعـة الأشـياء، أو كأنهـا مطـر لا تعطيـه وزارات الداخليـة تصريحـاً بالهطـول عـلى الأرض اليبـاس[1].

• إن الكتابة موت، في انتظار ميلاد العصر العربي الجميل.

• بانتظـار العـصر الجميـل أن يـأتي، ويمحـو قامـوس الهجـاء، الـذي ازدادت مفرداتـه وصفحاتـه حتـى أصبـح موسـوعة أضخـم مـن أكـبر الموسـوعات[2].

وتؤمن سـعاد الصباح أن الكلمة هي السـلاح الأقوى في التغيير، سـواء كانت قـراءة أو كتابـة، فبالقـراءة تزداد محصلـة المرأة من المعارف وتتسـع مداركها، وبالكتابـة تبـوح المـرأة بمكنـون مشـاعرها المحبطـة، وتسـتطيع أن تعـبر عـن مطالبهـا التـي تحتاجهـا من المجتمـع من حولهـا، وتسـتطيع أن تواجه معركة الحيـاة، وتشـارك في معركـة البنـاء مـن أجل الوطـن والمجتمع، ولهـذا تقول:

• وظيفة الكلمة في هذه الأيام أن تكون سيفاً في وجه البشاعة أو لا تكون.

• عـلى الكلمـة أن تقاتل بالأنيـاب والأظفار حتى تقنع الإنسـان العربي البائس بأن عصر البنفسـج قادم[3].

• الكاتـب يكتـب ليغـير وجـه الحياه ووجه الإنسـان، ولا خير في كاتب يتسـلى في الكتابـة، ولا يضعهـا في خدمة وطنه وخدمـة الأسرة البشرية[4].

وتوضح سـعاد الصباح ظاهرة الاختلاف اللغوي بين الجنسـين داخل المجتمع الواحـد، موضحـة كيـف تصبح اللغة أداة للسـيطرة في يد الطـرف الأقوى، كما تؤكـد ضرورة قـراءة صور المـرأة من خلال موقعها في اللغة، ودراسـة وضعيتها

1- نفسه ص 17.
2- نفسه ص 18.
3- نفسه ص 21.
4- نفسه ص 22.

داخل البنية اللغوية، وأننا بهذا الرأي لا نسجن قضية المرأة في المجال اللغوي، ونعزلها عن كل واقع تاريخي، فحسب، بل نرى أن هذه الوضعية اللغوية التي وجدت فيها المرأة بصفة عامة هي انعكاس لإطار مرجعي يمتد تاريخياً إلى قصة خلق آدم وحواء، حتى العصر الحديث[1]، واللغة التي نسجت حول قصة بداية الخلق ترسم صورة المرأة، فهي المرأة الشر والغواية في مفردات التوراة[2]، وهي المرأة الإنسان في لغة القرآن، لكن الأطر المعرفية الناقلة لتلك الثقافة المتشبعة بصورة الغواية والشر، أكثر من صورة الإنسان.

لماذا؟ لأن اللغة كإطار معرفي ناقل للثقافة والأدب، انحازت لنشر وتأكيد الصورة الزائفة، وأهملت الصورة الأصل والحقيقية للمرأة، كمقارنة بين النص التوراتي المغلق والنص القرآني المفتوح، على كل العصور وعلى كل القراءات[3]، إذ إن الثقافة إنتاج إنساني ذكوري لا يعترف بحق المرأة، ويحتفظ بها كائناً ثقافياً مستلب الحقوق، بينما التشريع الرباني يعطي المرأة حقها، ويعاملها معاملة يتجلى فيها الإنصاف والعدل[4]، تقول سعاد الصباح:

- كل واحد منا يحمل عصره والعصور التي سبقته، ولا أحد يستطيع محو موروثاته الثقافية في دقائق[5].

1- رشيدة بن مسعود ـ المرأة والكتابة ـ سؤال الخصوصية بلاغة الاختلاف ـ إفريقيا الشرق ـ المغرب ـ ط 2 ـ 2002م ـ ص 85.

2- خديجة صبار ـ المرأة بين الميثولوجيا والحداثة ـ أفريقيا الشرق ـ المغرب 1999م ـ ط1 ـ ص 11.

3- علي افرفار ـ صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ 1999م ـ ص44.

4- ليلى بلخير ـ قضايا المرأة في زمن العولمة ـ دار الهدى ـ الجزائر ـ 2006م ـ ص 29.

5- من ديوان «قراءة في كف الوطن» في الجزء الوارد تحت عنوان «في البدء كانت الكلمة» ص26.

• عـلى الأديـب أن يعـبر عـن أمته، لا يسـاوم ولا يتاجـر بمعتقداتـه، ولا يتخلى عـن مواقفـه مهـما كان الثمـن، فالأدب هو الاستشـهاد عـلى ورقـة الكتابة[1].

ولـو فتشـنا في بواطـن هـذا الاسـتلاب، ودوافـع هـذه السـيطرة المترسـبة في الأعـماق، والمشـكلة لتلـك الذهنيـة أحاديـة النظـرة، المتسـلطة المتوارثـة على طـول الأزمـان، جيـلاً بعـد جيـل، لوجدنـا أن الرجـل في سـلب المـرأة حريتهـا، خاصـة حريـة الكتابـة، مصـدره الخـوف مـن فقـده المكانـة التي يمتلكهـا، لذا يحافـظ عليهـا محتاجة دوماً إليه[2]، ولهذا السـبب الأزلي والمسـتمر قالت مي زيـادة بقلـب مكلـوم: «تاريخ المرأة استشـهاد طويـل أليم»[3]، وللسـبب ذاته واجهـت سـعاد الصبـاح الرجـل الكاتب والمثقـف بكلماتها، لتحمله مسـؤولية اسـتلاب المـرأة، وتحريرهـا في آن واحـد، وتبـكي على حـال الكتـاب العربي، وما وصـل إليـه مـن جمود ومـن كآبة، وكيـف أن حال الكتـاب العربي يماثـل تماماً حـال المواطـن العـربي، تقول[4]:

• من أسمى وظائف المثقف زراعة الأمل.

• الكتاب إلى أين؟

ما موقعه على الخريطة العربية؟

ما حاضره ومستقبله؟

1- نفسه ص31.

2- محمـد الغـزالي ـ قضايـا المـرأة بين التقاليـد الراكدة والوافـدة ـ دار الانتفاضة للنـشر والتوزيع ـ الجزائر ـ 1996م ـ ص 16.

3- مي زيادة ـ كلمات وإشارات ـ دار العلم للملايين ـ ط1 ـ ص 43.

4- ديوان «قراءة في كف الوطن» في الجزء الوارد تحت عنوان «في البدء كانت الكلمة».

أسئلة تحفز العقل ليل نهار[1].

- الكتاب العربي والإنسان العربي كائنان متشابهان.
- حاضر الكتاب العربي لا يدعو للبهجة أبداً، لأنه يعيش حالة حصار دائم، ويعامل كما يعامل السجناء والمعتقلون السياسيون[2].
- الكتاب والإنسان كائنان يتشابهان تشابهاً عظيماً، في بنيتهما ودورتهما الدموية[3].
- الكتاب العربي مصاب بشلل الأطفال، ومتجمد في مكانه كسيارة سحبت منها بطاريتها، يولد ويموت في مكانه بعد أن كان قديساً يعلم الناس الحكمة[4].
- في هذا العصر الذي يحترف الجهل والجهالة، أصبح الكتاب العربي قاطع طريق، تعلق صوره على جدران المدينة، ويطلب رجال الأمن رأسه.
- بعد أن كان الكتاب العربي يتمتع بالحصانات التي يتمتع بها الملوك والدبلوماسيون أصبح مواطناً غير شرعي سحب جوازه، وأسقطت حقوقه المدنية[5].
- إن مأزق الكتاب العربي هو جزء من المأزق العام، وهو صورة طبق الأصل من محيطه وبيئته: محاصر أو مطارد أو مسجون، تملأ وجهه كدمات العصر.

1- نفسه ص 24.
2- نفسه ص 25.
3- نفسه ص36.
4- نفسه ص26.
5- نفسه ص27.

• الإنسان العربي يمر بأزمة تنفس واختناق. الكتاب كذلك يشكو العوارض ذاتها، ولا يمكن له أن ينمو نمواً طبيعياً في ظروف غير إنسانية[1].

وتكشف سعاد الصباح زيف الشهرة والشيوع الذي يغري المثقف والكاتب، أكثر من ارتباطه بإبداعه، وهي بهذا تفرض بناء اجتماعياً مغايراً، أو بناء اجتماعياً وثقافياً يستهدف التغيير، ويستهدف مواجهة تلك العراقيل التي تحول بين المبدع ومستقبل مجتمعه، وبين فرص تنمية إبداعه، أو ربما تكون المواجهة لذلك البناء الاجتماعي المعارض لعملية التغيير، الناتجة من العملية الإبداعية، وكذلك على من يواجه أن يمتلك الشجاعة والقوة، لأن النضال بالكلمة والقلم لا يقبل الأيدي المرتعشة، أو القلوب المرتجفة، أو حالة الاختناق والحصار التي يفرضها المجتمع على المبدع، حتى لا يقول كلمته، تقول سعاد الصباح[2]:

• الكتابة عندي ليست عملاً مجانياً، أو عبثياً أو استعراضياً، إنها عمل يستهدف التغيير بالدرجة الأولى، تغيير الإنسان العربي عقلياً واجتماعياً.

• الكتابة لا تقبل أن تكتب بأصابع مرتجفة، والقلم لا يرضى أن يتحدث بصوت مختنق، الكتابة شجاعة والكاتب ملعبه العالم، وحدوده الشمس[3].

• في عالم عربي يتخبط بجراحاته وانقساماته وتناقضاته، لابد للكلمة أن تلعب دورها في إضاءة الطريق وإخراج المواطن العربي من هذا النفق المظلم.

1- نفسه ص 28.

2- نفسه ص 30.

3- نفسه ص 31.

- الكلمة موقف، ولكل موقف ثمن[1].
- إذا كانت مهمة الأدب هي تغيير العالم وتغيير الإنسان فإن موقع الأدب هو الخطوط الأولى في المعركة ومكانته في خط المواجهة المباشر مع العالم[2].
- ليست هناك كتابة تقف في الوسط، إما أن يكون الكاتب مع الناس، أو يكون ضدهم ولا قيمة للكتابة إذا أصبحت عضواً في مجموعة الحياد[3].
- الإنسان هو المادة الأساسية لكل كتابة، وكل كتابة لا تنبع من الإنسان وتصب فيه هي عبث ومضيعة للوقت، ولابد للكاتب أن يتخذ موقفاً من قضايا العصر وأن يكون مع الإنسان، وأن يكون ضد الظلم وضد الابتزاز بكل أنواعه، وإلا كان «شاهد ما شافش حاجة»[4].
- الكتاب يجب أن يكون في خدمة الموءودات[5].
- يستحيل على الكتاب أن يعيش في ظروف غير إنسانية.

ويستحيل عليه أن يستمر في البقاء إذا لم يحصل على الحد الأدنى من الهواء والماء وبروتينات الحرية[6].

- إن الدولة، أية دولة لا يمكنها أن تكون صديقة الكتاب وعدوته في وقت واحد، والنظام الذي يخاف من خشخشة الورق ولديه حساسية من

1- نفسه ص 32.
2- نفسه ص 33.
3- نفسه ص34.
4- ديوان «قراءة في كف الوطن» في الجزء الوارد تحت عنوان «ذاكرة مشتعلة بالحنين» ص 84.
5- نفسه ص35.
6- نفسه ص37.

رائحة الحبر، هو نظام لا جذور له في الأرض[1].

وترصد سعاد الصباح دور الثقافة في حياة الشعوب، وكيف أن بالثقافة وحدها يمكن تغيير وعي المجتمع، وتحقيق نهضته، وبالثقافة يمكن إحياء كل الموءودات -حسب تعبيرها- وتقدم للمثقفين صورة مفزعة، عما أصبح بعضهم عليه، من ترك الثقافة إلى لعبة المقاولات والصفقات الكبرى، وهو ما كان سبباً في غياب المثقف، وتراجع دوره في المجتمع، وغياب المعارك الثقافية التي كانت تزين مجتمعنا العربي، في وقت من الأوقات، فتقول:

- وبالثقافة وحدها يمكن أن نسترد مفاتيح الكلام[2].
- دور المثقفين كبير حين يكون المثقفون كباراً[3].
- ديمقراطية الثقافة التي نفتقدها تجعل كل كتاب متهماً حتى تثبت براءته[4].
- لماذا لم تحدث الثورة الثقافية في الخليج؟ لأن المثقفين الخليجيين كانوا قد غرقوا في لعبة المقاولات والصفقات الكبرى.
- كان لدينا وقت للثراء ولم يكن لدينا وقت للقصيدة.
- كان لدينا وقت لمضاعفة دخلنا ولم يكن لدينا وقت لمضاعفة عدد كتبنا.
- كانت دائماً معاطفنا ثقيلة وزجاج سياراتنا مقفلاً، لذلك لم يسقط مطر الشعر علينا[5].

1- نفسه ص38.
2- نفسه ص 33.
3- نفسه ص34.
4- نفسه ص 38.
5- نفسه ص 41.

ولا تنسى سعاد الصباح أن توجه رسالة إلى الإعلام والدور الإيجابي الذي يمكن أن يلعبه الصحفي والإعلامي، خاصة وهو يمارس عملية الرقابة الذاتية، ويحتكم إلى ضميره المهني فيما يكتبه، وفيما يرصده، بوصفه عين المجتمع، وناقلاً لما يحدث داخله، وتوصي هذا النوع من المثقفين، بأن يحرصوا على أن تكون كتاباتهم نابعة من حسهم الوطني، ووجدانهم القومي، فتقول:

- ما دام الصحافي يمارس الرقابة الذاتية على كتاباته ويستلهم وجدانه القومي والأخلاقي فلا خوف عليه من الانجراف[1].

وفي حالة من المرارة والسخرية معاً، تنتقد سعاد الصباح تلك الحالة الراكدة التي أصابت المشهد الأدبي والثقافي، وكيف خرج من الحركة الثقافية ميتاً لا عزاء له، بعد أن ماتت معاركه وتياراته وأسلحته، فأصبح وكأنه نزيل مستشفى أو سجين لا صوت له ولا إرادة، وفي انتقادها هذه الحالة تحاول سعاد الصباح أن تلفت النظر إلى ما صار إليه الأدب العربي من ركود، في ظل أجواء سياسية غير صحية، وفي ظل تكالب المثقفين على أهداف، هي بعيدة كل البعد عن مهمتهم الأساسية، في تنوير مجتمعاتهم، وهو ما يستنفد من الفرد المبدع طاقات، كان يمكنه استخدامها في حل المشكلات التي تواجه مجتمعه، أو على الأقل تواجه إبداعه، تقول:

- أجواء الأدب العربي تشبه أجواء المستشفيات

هدوء مريب مسيطر

لا يمكننا فيه طرح أي سؤال

1- نفسه ص37.

لا حركة

بحيرة الأدب هادئة هدوء المرضى

لا موجة تخترقها ولا تيار من تيارات الأعماق يعكر صفوها[1].

• أصبحت الحياة الأدبية حياة رتيبة متشابهة الأيام كأسنان المشط

لا تتعرض للخضات الثقافية والاجتماعية إلا نادراً

وبكل حيادية أقول إن الشعر الكويتي

لم يصل إلى أرض الدهشة ومرافئ الغرابة

بعد الشاعر محمد الفايز[2].

ونلاحظ كيف كانت سعاد الصباح ترتدي عباءة الإبداع وهي تتقمص روح النقد، حيث تعاملت مع نصها بوصفه جزءاً من العملية الإبداعية، لتثبت للمتلقي أن معركة الكتابة، تقوم على الكلمة المبدعة الحقيقية، سواء كانت موجهة للناس أو موجهة للمبدعين، وما الأمر في النهاية -برمته- إلا نوعاً من الخلق الفني، وقدمت بذلك أكبر دليل على أن المرأة قادرة على الجمع بين الإبداع في الكلمة، والإبداع في الحياة، والإبداع في النقد، وقادرة على الجمع بين الإبداع الداخلي والإبداع الخارجي، كاشفة عن أن عملية الكتابة وعملية الإبداع أشبه بكائن حي ينمو، ويحتاج في ذلك إلى أن يتنفس هواء الحرية، ويحتاج إلى بيئة مواتية وبيئة صحية، فالبيئة تؤثر تأثيراً بليغاً غير مباشر على الإبداع، وتؤثر على المبدع، ويدخل في هذا الحيز أدواته وإنتاجه والأشكال التي يتخذها.

1- نفسه ص 39.

2- نفسه ص 40.

وترصد سعاد الصباح أمراً آخر ربما غاب عن الكثيرين، هو ما يمكن أن نسميه تنازع الانتماء والانفصال، وهو رغبة المرأة الأدبية في الانفصال عن المجتمع، أو الاندماج فيه للانفصال عن كتلة النساء، وتدعو سعاد الصباح هذا النوع من النساء الكاتبات إلى ترك هذه الرغبة، والخروج من العزلة، وفتح حوار مع الآخر، الرجل أو المجتمع، حتى لو كان في إطار الحدود التي يسمح بها حجم اللغة المتاح لها استخدامها، تقول:

- أريد أن أزرع فكري
  خارج التاريخ والجغرافيا
  وخارج الحدود[1].
- أنا مواطنة عربية كويتية
  اجتهدت وعملت
  واختارت السفر في بحار المعرفة والعقل
  لإيمانها أن امرأة لا عقل لها
  هي امرأة مصابة بالشلل الكلي
  امرأة كالنباتات الطفيلية
  تعرقل مسيرة المجتمع ومسيرة الحياة[2].
  * اللغة هي الوثيقة الوحيدة
  التي نحملها لإثبات هويتنا وإثبات انتمائنا
  إلى أرض ما، وشعب ما، وحضارة ما.

1- نفسه ص36.

2- ديوان «قراءة في كف الوطن» في الجزء الوارد تحت عنوان «حوار الذات».

ومن دون هذه الهوية، سوف نكون كائنات هلامية
تسكن في العدم أو في الفراغ[1].

وتتجاوز سعاد الصباح كثيراً من الخطوط الرسمية، لتقف موقف المواطن العادي الذي يصل في انتقاده لسلبيات المجتمع، إلى أن ينتقد النظام نفسه، وتبرز كيف أن قلقها على مستقبل وطننا الثقافي أصبح في مهب الريح، بعد أن انتقل المثقفون من خانة المهمومين بالثقافة وإشكالياتها، إلى خانة المهووسين بالمال والحريصين على جمعه، وذلك جنباً إلى جنب غياب الحرية في كتابات المرأة، وكيف تحولت هذه الكتابات إلى وسائل دفاعية، وأصبحت الكتابة النسوية -كما تقول نازك الأعرجي[2]- دروعاً لا سهاماً، تكتفي بالدفاع دون اكتساب أي حق.

الحب.. المعركة السادسة

في رحلة الحرف والشعر والألم
حاولت أن أزرع عشبة صغيرة في الأرض المالحة
لأجعل مساحة الحب أكبر
ومساحة الكراهية أقل
هذا كل ما في الأمر[3].

1- نفسه ص 51.

2- نازك الأعرجي ـ صوت الأنثى ـ دراسات في الكتابة النسوية العربية ـ دار الأهالي ـ دمشق ـ 1997م ـ ص22.

3- نفسه ص30.

وتقول[1]:

أنا نهر حنان
أحاول أن أفيض على الآخرين وأسعدهم
وكلمة حب أحاول إيصالها لمن أعرفهم، ولا أعرفهم
ومطر أريد أن يسقط على كل المعذبين في الأرض.

وتقول:

أحاول أن أضيء شمعة
في ليل التائهين والضائعين في الظلام
وأن أعيد للمرأة اعتبارها
كشريكة أساسية في بناء الوطن[2].

وهكذا تلخص سعاد الصباح الهدف من معركتها الوجدانية من أجل أن يعم الحب كافة أرجاء المجتمع، بهذه الأبيات السابقة، مؤكدة أن الهدف الأسمى من هذه المعركة التي خاضتها بأنيات وأظفار شرسة، هو أن تجعل مساحة الحب أكبر، ومساحة الكراهية أقل، فهل يا ترى قد نجحت؟

لقد احتلت هذه المعركة مساحة كبيرة من إنتاج سعاد الصباح الإبداعي شعراً ونثراً، وكان لديها حافز دائم لتحريك هذه المعركة على الدوام، من الناحية الإنسانية التي تسكنها، وحافز مرحلي يتعلق بعملية الكتابة الإبداعية، التي هي إحدى ممارسات الإنسان في حالة كونه شاعراً، بمعنى أن موضوع الحب كان هاجساً إنسانياً، يلح عليها بشكل مستمر، وكان

1- من ديوان «قراءة في كف الوطن» الجزء الوارد بعنوان «حوار الذات» ـ ص 45.
2- نفسه ص 46.

مـادة للكتابـة الإبداعيـة لديهـا في آن، تفـرض الاهتـمام بهـا ظـروف الخطاب النسـوي للمـرأة العربيـة المبدعة.

وقـد تعـددت اتجاهات هـذه المعركة، وتعـددت ظواهرها أيضـاً، في الوقت نفسـه، حيـث وجهت سـعاد الصبـاح طلقاتها وصوبـت رصاصاتهـا الوجدانية باتجـاه الرجـل تـارة، وباتجـاه المـرأة تـارة ثانيـة، وباتجـاه الطفولـة أحيانـاً، وباتجـاه المجتمـع أحيانـاً أخـرى، وليـس ديوانهـا «هـل تسـمحون لي أن أحب وطنـي» ببعيـد، معـبرة في النهايـة عـن حق هـؤلاء جميعـاً في التمتـع بحقوق الإنسـان التي كفلتهـا المواثيق الدولية والأعراف المجتمعيـة والقوانين العالمية.

ومـع سـيادة الحـب يمكـن أن نضمـن حرية هذا الإنسـان، وحقـه في التعبير عـن نفسـه، وحقـه في الشـعور بالطمأنينـة، والاسـتقلال الفكـري والمعنـوي، والوجـداني والمـادي، مـما ينعكـس على باقي الأنشـطة التـي يمارسـها، وبالتالي تكـون المحصلـة مجتمعـاً يتنفـس هـواء نقيـاً صحيـاً، يسـوده الحـب والوئام، والتعـاون والتآلـف، وليـس الكره والانشـقاق، وتقول مما توجهـت به للرجل، وهـي تـرى فيـه القداسـة والخلـق والإبـداع، والحمايـة والعـزوة والهويـة، والحنان[1]:

يا حبيبي
أنت في القطب الشمالي
وأشواقي بخط الاستواء
إنني ضد الوصايا العشر
والتاريخ من خلفي رمال ودماء

1- من ديوان «فتافيت امرأة».

انتمائي هو للحب

وما لي لسوى الحب انتماء

وطني

مجموعة من شجر الليمون في صدرك

والباقي هراء بهراء

ابق يا صغيري على اليابسة

ابق ثابتاً في مكانك كساعة المحطة

ابق أيها الرجل حيث أنت

ابق عبداً لعاداتك اليومية البليدة

ابق بين ملفاتك وبريدك وسيجارك الكوبي

ابق مطموراً تحت أرقامك وأوراقك

ابق واقفاً على مرفأ الطمأنينة

أما أنا

فمسافرة مع البحر

ومسافرة مع الشعر

ومسافرة مع البرق

مسافرة في كل الأشياء

وتقول[1]:

خذ الخريطة

1- من قصيدة «العالم أنت».

ورتبها كما تشاء

فالقارات أنت

والبحار أنت

وأنا أنت

وأهـم مـن ذلـك كلـه تكريـس الثقـة بالنفس، لـدي هـذا المجتمـع وأفراده، وتلـك تعنـي الثقـة فيما لـدى كل أفراد المجتمع مـن أفكار، وثقتـه فيما يقدم عليـه مـن الأعـمال المبتكـرة، بالإضافـة إلى تجديـد النسـق الاجتماعي السـائد الـذي يحـدد مـا على الأفراد مـن أدوار، وكذلـك منح المجتمع فرصـة التدريب عـلى الجديـد، بمـا يمثـل تربـة خصبـة لعمليـة الإبـداع، الإبـداع في كل شيء وليـس الإبـداع الأدبي وحده.

كـما اسـتهدفت سـعاد الصباح مـن وراء معركتهـا، تخليص المجتمـع من كل مظاهـر الخلـل النفـسي، والخلـل التربـوي، واضطرابـات الـروح، والاضطرابات الوراثيـة، ومـا ينتـج عـن ذلك كله مـن عقد نفسـية، ومعيقات روحية لمسـيرة الحيـاة اليوميـة، فالحـب محراب كبير يسـع النـاس جميعاً، به مـن الفيوضات الوجدانيـة مـا يمكنـه إصلاح عيوب البشر، وبه حالة سـماوية لا ترتبط بالميزان الأرضي، ذلـك الميـزان الذي بات الإنسـان أياً كان نوعه أو جنسـه تائهاً في أرض الخـوف والقلـق بـكل فكـره وجوارحـه. وتوجـه رسـالة إلى المجتمـع في صورة رجل تخاطبـه فتقول:

أتوسل إليك

أن لا تقف بين كتابي وبيني

بين كحلي وهدبي

بين فمي وصوتي
أتوسل إليك
أن لا تقف بين مرآتي ووجهي
بين قامتي وظلي
بين أصابعي وورقتي
بين فنجان القهوة وبين شفتي

وتتعدد المفردات وتتشعب وتمتد، في محاولات مستمرة لإثراء اللغة الشاعرية، بإضافة اللمسة السحرية التي تنقلب بها الألفاظ الجافة إلى عالم الوجدان، مما يؤكد أن حالة الحب المسكونة بها سعاد الصباح لكل ما هو جميل في هذه الحياة، هي حالة مستمرة ودائمة، موسومة بالثبات، وما سعاد الصباح في هذا إلا ممثلة للمرأة العربية، وليست نموذجاً للتعبير عن شخصها، ونراها في كثير من تجليات العشق الصافي، التي تتخذ شكلاً محورياً ينطلق من الأمومة بشكل أساسي، حتى وهي تخاطب الرجل كحبيب، تقول في قصيدة «ماذا يبقى منك»:

لست أفكر في تغييرك أبداً
لو غيرت طبائعك الوحشية
ماذا يبقى منك؟
لست أفكر في تأديبك
أو تهذيبك
لو هذبت الطفل الطائش فيك
فماذا يبقى منك؟

هـي تعلـم يقينـاً مـا في طبائع المحبوب من وحشـية ونـزق وطيش وفوضى، وكلهـا مـن لـوازم الطفولـة، وهي المفـردات التـي يكتسي بها المجتمع، بسـبب وجـوده وسـيطرته عـلى مقاليـد الأمـور، في هذا المجتمـع، لكنهـا لا تريد تغيير هـذه الوحشـية التـي تراهـا مـن منظور الـبراءة، وأجمل مـا في الحـب براءته، كـما يقولون.

ظواهر أساسية لافتة

ومـن ظواهـر هـذه المعركـة أن سـعاد الصباح أكثرت مـن التعامل بالشـعر، بدرجـة أكـبر مـن الأجنـاس الأدبيـة الأخـرى، اعتماداً عـلى أن الشـعر يخاطب الضمـير في المقـام الأول، والضمـير هو الذي يحرك الوجـدان، والضمير دائماً هو مصـدر الوحـي والإلهـام، ومـن ثـم كان شـعرها الـذي أدارت به هـذه المعركة إنسـانياً بالدرجـة الأولى، قائمـاً عـلى قـدرة المشـاعر الإنسـانية عـلى إحـداث التغيـير داخـل الإنسـان، وقـوة الوجـدان في عـلاج مـا تعانيـه النفـس البشرية مـن نقصـان وعيـوب، مؤمنـة بأن الشـعر قـادر على تغيـير الوجـدان والضمير داخـل الإنسـان، بوصفـه طاقة إنسـانية خلاقة، ومحركة للمشـاعر تجاه العالم، عـن طريـق البـصر والسـمع، والإحسـاس بعـالم الكائنـات والأشـياء الملموسـة وغـير الملموسـة، فالشـاعر كما يقول أفلاطـون يكمل الصورة الحسـية الناقصة للأشـياء، ويجسـد موضوعيـة الأشـياء خـارج الـذات، أو كـما يقول أرسـطو إن الفـن محـاكاة للطبيعة.

ومـن الظواهـر أيضـاً أن سـعاد الصبـاح تعمـدت أن تصدر في هـذه المعركة لمجتمعهـا، حالـة مـن الصفـاء البشري الذي تخلقـه حالة التأمل، التي يسـبقها

قلق الفعل الإيجابي، بمعنى أن تغيير مساحة الكراهية داخل المجتمع، وتقليصها ليتسع المجال لمساحة أكبر من الحب، كان ذلك يستلزم إحداث حالة من الصفاء البشري، يختل معها التوازن القديم، ليمضي نحو اتزان جديد، بحيث ينقطع وقتها سير العمليات الذهنية، لتدخل في ميدان جديد، تتحكم فيه العمليات الوجدانية، وساعتها تكون هناك حالة وجدانية، تؤدي إلى انسياب سيل من الأفكار والصور الإيجابية الجديدة في الذهن عن المجتمع والناس[1].

وبقراءة دقيقة لكل ما كتبته سعاد الصباح ضمن هذه المعركة الوجدانية، نلاحظ أن هذه الحالة من الصفاء البشري التي حاولت سعاد الصباح أن تصنعها للمجتمع، كانت تتحقق داخلها أولاً، حيث اتسمت بنوع من التوازن الداخلي أثناء الكتابة، وفيه شيء من الاطمئنان، والتأمل الذي ينتهي بنوع من الحدس، وهي لحظات تتسع لها حالة الكتابة الإبداعية[2]، كما ارتبطت بسيل من الأسئلة القلقة التي تبحث عن المعرفة، مثل تلك التي نجدها لدى الأطفال، فالطفل يبدأ بالأسئلة عن الأشياء التي حوله، لأنه يحتاج إلى تفسير لها، ولأنه يحتاجها، وهنا نجد الضرورة لطرح تلك الأسئلة، حيث لا ينمو الوعي دون معرفة، ودون حافز داخلي، ودون قلق، والقلق يظل دائماً سمة الباحث عن الاكتمال، والساعي إلى التغيير.

ومن الظواهر أيضاً أن ما كتبته سعاد الصباح ضمن هذه المعركة الوجدانية من إنتاج إبداعي، لم يكن عبارة عن وميض خاطف، أو حالة

1- تفسير مهم لحالة التغيير الوجداني بالشعر قال به دي لا كروا وفيليكس كلاي.

2- د.فاضل خلف ـ الممارسة الإبداعية في تجربة سعاد الصباح الشعرية ـ هيئة الكتاب ـ القاهرة ـ 2004م ـ ص 36.

مـن التهيـؤ السريـع، أو المفاجـئ نسـبياً، إنمـا كان عبـارة عـن حالـة دائمـة، تواصلت معها سـعاد الصباح سـنوات وسـنوات، عاشـت خلالها حالة شـعرية مفعمـة بالحـماس مـن أجـل الكتابة، وقد ظلـت الفكرة الشـعرية طوال هذه السـنوات واضحـة تمـام الوضـوح في إطارهـا العـام، وتقـول سـعاد الصبـاح: «ومـن خلال تجربتي الشـعرية قـد يولد البيت الأول مـن القصيدة أو الدفقة الشـعرية الأولى، وقـد يتقـرر عنـوان القصيـدة نهائياً، لكن القصيـدة قد تموت رغـم توفـر كل الـشروط بسـبب العوائـق الخارجيـة، لكـن الشـاعر يكـون في حالـة وثـوق شـبه كاملـة مع بعـض القلق عـلى كيفيـة تنفيذ العمـل، واختيار المـكان والزمـان بسرعـة تتعلق بسـاعات محـدودة».

وتـزداد حالـة الأسـئلة في زمـن المفاصـل التاريخيـة والأحـداث الشـخصية والعامـة المؤثـرة والحـادة، كالمـوت أو الفقـد أو الفـراق أو الغربـة، فالشـاعر حين يشـعر بالاغتراب أو تشـق على نفسـه آلام الغربة يكون شـعوره بالغربة قويـاً وحـاداً، ومـا أسـوأ الإحسـاس بالغربـة في مجتمـع تـزداد فيـه مسـاحة الكراهيـة بـين أفـراده، وإن كانـت حالـة الغربـة في نظـر البعـض إيجابيـة، تصبـح حافـزاً للكتابـة الإبداعيـة، بـل نوعاً مـن الكتابـة الإبداعية التي تتسـم بالتحـدي والصلابـة.

ومـن الظواهـر أيضاً أن سـعاد الصبـاح اعتمدت في هذه المعركـة على ذاكرة شـعرية حيـة قويـة، تتسـم بالتركيـز الشـديد، تـضرب بجذورهـا في أعـماق التاريـخ، ولا سـيما تاريـخ المـرأة العربيـة، وذاكرتهـا، مـن النـوع الإيجـابي، لأن إعـادة فـرز وإنتاج المـاضي يمثل دلالة إيجابيـة، فالذاكرة الديناميكية تسـتفيد مـن خـبرة الدمـاغ القديمـة، ويقـوم جـدل بينهـا وبـين الخـارج، يـؤدي إلى

دخـول مرحلـة الكتابـة الإبداعيـة، حيـث تلعـب الذاكـرة هنا دورها الأسـاسي في الكتابـة، والذاكـرة الديناميكيـة هـي القـوى المحركـة، طبيعيـة كانـت أم أخلاقيـة أم فكريـة، في أي حقـل، أو النواميـس الخاصـة بهـا، وتـزداد أهميـة تلـك الذاكـرة القويـة في ظـل المشـاغل اليوميـة التي تقتـل عـشرات القصائد، والصـور والأفكار الشـعرية، وعشرات الانفعالات، بما يصيب الشـاعر بالإحباط المفاجـئ، وبخاصـة إذا كانـت أحداثـاً وطنيـة.

وتؤكـد سـعاد الصبـاح أنها لا تسـتطيع البـدء بالكتابة، إذا كانت مشـتتة بين مشـاغل داخليـة أو خارجيـة، فتقـول: «لـو كنـت مـن الشـواعر اللبنانيـات أو الفلسـطينيات، فـلا يمكـن أن أسـتطيع الكتابـة، في ظـرف مثـل ظـرف الاقتتال الفلسـطيني في طرابلـس لبنـان، حتـى لـو جـاءت الفكـرة الشـعرية، وحتى لو أخـذني الوميـض الخاطـف لأني سـأكون قلقـة، وقلقـي هذا من النوع السـلبي الـذي يراكـم الغشـاوة، بينـما أسـتطيع الكتابة حتـماً لو كنت في بـيروت وهي محـاصرة، لأن قلـق التحـدي في هـذه الحالـة، سـيكون قلقـاً إيجابيـاً فعـالاً، كذلـك فـإن الانفصال فترة طويلة عن اسـتخدام الأدوات اللغوية، يولد شـعوراً بعـدم الثقـة، كذلـك البعـد عـن الـصراع اليومـي، يخلـق حالـة تأمـل بـاردة، لأن الحافـز يظـل منسـياً حتـى لـو كانـت الغايـة واضحـة. ولابـد عندمـا أبـدأ بالكتابـة أن يتوفـر التوحـد التام أو ما يسـميه النقاد بقدسـية الاختفاء، هنا لا يهمنـي المـكان إذا كان قطـاراً أو مقهى، المهم هو أن يتحقق التوحد الشـامل، والانتـزاع مـن التوحـد هـو مـوت للقصيـدة، كأن يلقـي عليـك شـخص تعرفه السـلام، وأنـت في غمـرة التوحد، ويكون ردك السـلام عليه هـو قتل للقصيدة،

لأن الحوار والرؤية، قد ينهيان الحالة الشعرية، كأن السر قد انكشف»[1].

وكأن سعاد الصباح في حالة التوحد تلك، تشبه شيخاً صوفياً يتهجد، أو عاشقاً عذرياً يخشى أن يكتشف هيامه أحد، إنها حالة من الطمأنينة والأمان تسمح بالتأمل الكامل، لفكرة النص الشعري وكتابته، بعيداً عن حالة القلق التي تمثل عائقاً لكتابة نص، من ذلك النص الذي تكتبه سعاد الصباح.

وتكشف سعاد الصباح أنها أثناء الكتابة تكون في ذروة الحماس وتبدأ بالدفقة الأولى، والتي تكون عندها عنيفة، تقول: «أثناء الكتابة أكون في ذروة الحماس، وتبدأ الدفقة الأولى عندي بعنف، ثم تتلوها دفقات متموجة تصل بالقصيدة إلى القرار، قرار الإيقاع، كما أنني أعتمد التوازن الموسيقي الهارموني لسد الثغرات، وتكراري لبعض الجمل الشعرية يهدف إلى خلق هذا التوازن، وتنتابني لحظات انبهار وأنا أرى الألفاظ القاموسية، تتداعى وتتفجر من قلمي، وتنمحي خصائصها الأولى ضمن علاقة جديدة مع القصيدة».

وتأتي من ضمن الظواهر أيضاً أن رؤية سعاد الصباح للحب تنبع من منظور حضاري، فالحب يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإيقاع العصر والحضارة، وكثيراً ما لاحظنا أن أجواء كثيرة للحب، كانت تدور في العواصم الأوروبية، وبعيداً عن الخيمة والصحراء وعصر الحريم وتقاليده، وتظل الحضارة بكافة صورها وأشكالها مصاحبة للحب، ولا سيما الفن والموسيقى.

1- المصدر السابق ـ ص45.

***

قصيدة حب[1]

طالما طرحت على نفسي

أسئلة طفولية لا جواب لها:

هل أنا حبيبتك؟

أم أنا أمك؟

هل أنا مليكتك؟

أم أنا مملوكتك؟

هل أنا أنا؟

أم أنا أنت؟

عاشقانه ي

هميشه

از خودم

سو الهای کودکانه می برسم

وهیچ باسخی نمی کیرم:

آیا من عشق توأم؟

یا مادر تو؟

1- من ديوان قصائد حب (سروده هاى عاشقانه) ـ القصيدة الرابعة ـ مترجمة للفارسية ـ ترجمة: موسى بيدج ـ سمير أرشدي.

شاهبانوی تو

یا کنیز تو

آیا من منم

یا من توأم؟

الفصل الرابع

سعاد الصباح.. ثروتنا الحضارية ومستقبل أمة

كمن ينتظر ولادة قصيدة جديدة في ديوان الحياة الذي لم يكتب بعد، استهدفت سعاد الصباح من مجمل منجزها الإبداعي، حاضر الوطن ومستقبل ناسه الطيبين، وكما دعت الرجل والمرأة والطفل والمجتمع إلى الاهتمام بالتغيير من أجل إصلاح الحال، دعت أهل السياسة وأصحاب القرار إلى الاستجابة، وإلى أن يصبحوا مسكونين بهموم الوطن والمواطن، وقضايا المرأة وحقوق الإنسان وحرية الرأي، وإلى تحكيم الضمير ليعيش الجميع في وطن يتسع الحب فيه للقريب والبعيد، وللقاصي والداني، وفي عالم ملون بالسلام، تقول: "المرأة العربية مغلوبة على أمرها، والأوطان مغلوبة على أمرها، فالتشابه بالحزن والقهر والاستلاب بين معاناة المرأة ومعاناة الوطن، جعلني أضع القضيتين في ملف واحد أثناء مرافعتي"[1].

ومن أجل الحاضر والمستقبل، سعت سعاد الصباح إلى أن تكون الكلمة الطيبة هي لغة التخاطب والحوار بين أفراد المجتمع، لأن الكلمة الطيبة كالشجرة المورقة التي لا ينقطع نفعها، ولا نظير لثمرها[2]، ولفتت نظر

1- قراءة في كف الوطن ـ المرأة وطن ـ ص 283.

2- د.سلطان الحريري ـ الذات الشاعرة وثقافة النص في أدب سعاد الصباح ـ مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين ـ الكويت ـ مارس 2018م ـ ص 3.

المجتمع إلى أنه لا يحق لأي شخص -مهما علت مكانته- أن يحتقر شخصاً آخر، أو يضطهده أو ينتقص من حريته، وبخاصة المرأة التي أراد لها الرجل أن تكون مجرد عباءة سوداء، تقول: "التواضع شرط إنساني للتفاهم مع الحياة، والتصالح معها، أما العجرفة والتشاوف والاستعلاء، فتقطع جذورنا مع الأحباء، وتطمرنا تحت صقيع العزلة"[1].

ودعت سعاد الصباح إلى أن يتم تطبيق نظم الديمقراطية، ليست السياسية فقط، وإنما الديمقراطية الثقافية والاجتماعية والفكرية والعاطفية، ليسود الوئام بين أفراد المجتمع، وتقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على الاحترام المتبادل، والتفاهم والحب والمشورة، لا أن يلغي أحد الأطراف الطرف الآخر، واعتبرت أن إقامة الديمقراطية بأفضل معانيها، نصير وحليف سياسي لمشروع الديمقراطية الحديثة، وإقامة المجتمع المدني والدولة، بقدر ما هي بث لروح المجتمع العادل بعيداً عن الأحوال الزائفة التي تصنعها السياسة[2]، وبعيداً عن الالتزام الأيديولوجي الذي يساعد على ممارسة القياس الفاسد، في الصراع السياسي.

مائدة التنوع الديمقراطي

إن المجتمعات الديمقراطية الحديثة في نظر سعاد الصباح، مجتمعات ممتازة، تقوم على الوسائل والغايات الاجتماعية والسياسية معاً، لا السياسية فقط، كما أن أساليبها وأهدافها تكون مطروحة دائماً على مائدة

1- مرافئ ـ ص 277.

2- ليوتار والوضع ما بعد الحداثة ـ نخبة من الباحثين ـ إشراف وتحرير د.أحمد عبد الحليم عطية ـ هيئة قصور الثقافة ـ القاهرة ـ سلسلة الفلسفة ـ عدد 27 ـ 2017م ـ ص 70.

التنـوع والاختـلاف، وليـس عـلى عنـاصر الشـك والتناحـر والـصراع، ولهـذا تلقـى القـرارات الحديثـة قبـولاً تامـاً، حتى لو كانـت مناظرات تتعلـق بالقوة والحـق والعـدل، أو العدالـة والقانـون، وهـو مـا يكـرس في النهاية لغـة عالمية واحـدة، تتواصـل بهـا المجتمعـات دون انعزال بـين بعضها، وفي حالـة التواصل العالميـة لا يمكـن أن تأخـذ العنجهيـة أحـد المجتمعـات، فتفـرض قدرتهـا على المجتمعـات الأخـرى، أو تقبـض يدهـا عـلى الـكل بصـورة مبـاشرة، كـما هـو الحـال الآن بالنسـبة لأمريـكا والعـالم، وبخاصـة النامـي، حيـث ينطـوي الأمـر عـلى نـوع مـن التحكم القائـم على الجبر، وليـس الإقناع الـذاتي في كل جوانب الحيـاة، وينطـوي عـلى نـوع مـن القهـر لا الحريـة والديمقراطيـة.

وتـرى سـعاد الصبـاح أنـه لـكي تتحقـق الديمقراطيـة بـكل أنواعهـا، علينـا -كمجتمع عربي- أن نرحب بحرية الإرادة، وحرية التناظر والجدل والمناقشـة، وأن نعـد أنفسـنا لإمكانيـة حـدوث مـا لا نتوقـع، ولإمكانيـة الخلـق الجديـد، وهـذا لا يتناقـض مـع الفهـم الـذاتي لأنفسـنا، في ظـل الحـاضر، أو النظـر إلى أنفسـنا في ضـوء المسـتقبل، والفهـم الذاتي الصحيـح يلتمس الأعـذار للأخطاء، دون جلـد الـذات، ويـبرر عـدم العصمـة مـن الخطـأ، في الوقـت الـذي تنفتح فيـه هـذه الـذات، عـلى تشـكيلة كبـيرة مـن الاتجاهـات الفكريـة، القديمـة والحديثـة، والتـي تسـمح برؤيـة أوسـع للاختـلاف، واحـترام الـرأي المضاد.

وقدمـت سـعاد الصبـاح منجزهـا الإبداعـي كلـه، مـن أجـل البيـت العـربي، واسـتقرار أوضاعـه ثقافيـاً واجتماعيـاً واقتصاديـاً، ولم تنتظـر تصفيقـة طويلـة مـن الأيـدي المرتعشـة، أو تحيـة كبيرة عـلى أنغام الموسـيقى الحزينة البائسـة التـي تتصنـع البـكاء، لم تنتظـر إلا اسـتجابة طيبـة وسريعـة مـن هـؤلاء الذين

يكرهـون القـوافي، ويعانـدون القصائـد، ويبعـثرون أكيـاس الحلـوى عـلى الطرقـات، ولم تنتظـر إلا مجتمعاً يتسـع صـدره للتأوهات والنهنهات، ويتسـع قلبـه لرثـاء الأمنيـات التـي لا تتحقق، ويتسـع وجدانـه لخطابات العشـق بين المحبـين، ولم تنتظـر إلا مجتمعـاً يمتنـع عـن التدخـين، ولا يمتنـع عن الابتسـام، ويمتنـع عـن طلقـات الرصـاص ولا يمتنع عن مغازلـة الطيور، ويمتنـع عن نواح المسـاجين والمعتقلـين، ولا يمتنـع عـن ري الزهـور وترنيـم الأناشـيد.

كانـت سـعاد الصبـاح تعـي جيـداً أن المجتمع يسـتحق مـا تبذله مـن جهد، وأن أوضـاع المجتمـع وأحـوال البيـت العـربي تسـتحق جهـداً مضاعفـاً، مؤمنة بـأن الفـرد يظـل خاضعـاً دوماً لتأثير المجتمـع، حتى وإن ابتعـد عنه، إذ يكفي أن يحمـل في ذهنـه بعضـاً مـما يصلـه بأفـراد مجموعتـه الاجتماعيـة، حتـى يشـعر بأنـه مـا زال يعيش في قلـب تلك الجماعـة[1]، وكان على سـعاد الصباح أن تؤمـن بـأن جهدهـا سـيكون في حاجـة إلى معـين، امـرأة كان أو رجلاً، حتى يـؤتي ثمـاره، لأن جهـداً فردياً واحـداً قد لا تكون لـه النتائـج الإيجابية المرجوة بشـكل كامـل في التغيـير، تغيـير مجتمـع بأكملـه، بعاداتـه وتقاليـده السـلبية وبأعرافـه الباليـة، وبأخلاقـه المترديـة، فاختـارت أن يكـون لنصهـا الإبداعـي شـخصية ثقافيـة، تعـوض غيـاب شـخصية مـن يسـاندها في معركـة التحـدي مـن أجـل التغيير.

شخصية النص الإبداعي

وعـلى هـذا النحو، تمتع النص الذي تكتبه سـعاد الصباح بشـخصيته الثقافية

1- موريس هالبواكس ـ الذاكرة الجماعية ـ 1997م.

المستقلة، سواء كان ذلك عن وعي منها أو من دون وعي، فاكتسبت نصوصها الأدبيـة هويتهـا، وتميـز بعضهـا عـن بعض داخـل جغرافيـة الثقافة الإنسـانية، وكان لهـذه الشـخصية الثقافيـة دورهـا في تنبيـه القـارئ إلى طبيعـة تواصلـه مـع النـص، وقـد اسـتقل النـص في منجز سـعاد الصبـاح الإبداعي بشـخصيته، وهويتـه، بغـضّ النظـر عـن جنسـه، فلم يكن هنـاك تعصب عرقـي أدبي لنص بعينـه، أو لجنـس بذاتـه، بـل إن الانتـماء إلى النـص -أيـاً كان نوعـه- هو الذي منـح كل نـص في هـذه المنجـز معناه، وقيمتـه ودلالته.

ولعلنـا نلتفـت هنـا إلى ملحوظـة لم يلتفـت إليهـا النقـاد مـن قبـل، رغـم أهميتهـا، وهـي أن المنجـز الإبداعـي لسـعاد الصبـاح مـن أجـل إصـلاح حـال البيـت العـربي، حـاضره ومسـتقبله، لم يتضمن نصوصاً سـيئة الظـن بالمجتمع، أو سـيئة النيـة بالوطـن، أو نصوصـاً تشريحيـة لأحـوال ومشـكلات المجتمـع بطريقـة سـلبية، إنمـا كانـت نصوصهـا تنتقـد الأوضـاع بطريقـة إيجابيـة، والمعـروف أن النصـوص سـيئة الظـن هـي نصـوص أدبيـة يكتبهـا المبدعـون لإحـراج الواقـع، مـن أجـل أن يصنعوا للقارئ كونـاً بهيجاً فحسـب، أما الكتابة الإيجابيـة، فهـي تضـع القارئ أمـام الحقائـق، وإن كانت حقائـق مؤلمة، وتملأ فكـره بطاقـة ناقـدة هادفـة للتغيـير لـكل مـا هـو سـلبي مـن حولـه، وتقـف ضـد سـلطة هيمنـة الأمـر الواقـع عليـه، بجميـع هيئاتهـا الماديـة والمعنويـة والرمزيـة، وترفـع الحجـب عـن ذهنـه، وتفتح له كـوة ينظر منهـا إلى الممكن، مـا لم يتحقـق في دنيـاه بعـد، ويسـتمع إلى مـا لم يقل بعد، مما يتمنى سـماعه وقوله.

وقد ذهب البعض إلى تمجيد سوء النية في الكتابة، ومنهم الجاحظ[1]، إذ يقول في رسائله: (فاستيقظ عند هذه الأحوال، واستعمل سوء الظن بجميع الأنام، فإنه قيل لثقيف: بم بلغتم من الشرف والسؤدد؟ قالوا: سوء الظن)، وقالوا إن الكتابة سيئة النية، هي أيضاً فضاء ينجز في النص الأدبي قصاصاً تخييلياً من أعوان الظلم، ويمكر فيه من مكر الماكرين، ويعني ذلك أن الكتابة سيئة الظن يمكن أن تعيد الحقوق المسلوبة، وترد كيد الكائدين، على نحو قد يؤخذ فيه الحق المسلوب بالانتقام من الذين سلبوه.

وحتى لا يفهم الكلام خطأ، وحتى لا يكون هناك تعارض في هذا المعنى، والمعنى المفهوم من قوله تعالى: «إن بعض الظن إثم»، فالمقصود هو أن يتعامل الإنسان مع الواقع بقدر من الحرص الإيجابي، وليس بقدر من الشك السلبي، ومن ثم لا تعني الكتابة سيئة النية، عدم الثقة في وقائع الواقع، بقدر ما تعني عدم قبول الواقع، حين يحمله أصحاب السلطة إلى المحكومين، عبر الخطابات التي تزين الباطل، وتقيم داخلهم الأمل، بينما يظل الواقع كما هو، دون تغيير أحواله إلى الأفضل، ودون أن تتحقق تلك الوعود التي وعد بها السلطويون، وبالتالي يصبح الأمر مرهوناً برؤية الواقع بأعيننا نحن، لا بأعينهم هم التي هي في النهاية تعتبر أعيناً مستعارة.

سلاح الشك الإيجابي

كان هدف سعاد الصباح أن توجه المجتمع إلى أن يتسلح بشك إيجابي، يكون سبيله إلى إذكاء روح التفاعل الحيوي، لا التفاعل الخانع الخاضع، أو

1- الجاحظ ـ رسائل الجاحظ ـ كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ـ منشورات دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ـ 2002م ـ ص 94.

التفاعل الذي يتحرك بروح الانتقام، وأن يتسلح بعدم الركون والاطمئنان إلى الأحداث اليومية، ودلالاتها المباشرة التي قد تكون خادعة ومضللة، وأن يعمل على التفكير في المألوف منها، فيكون أول من يرى النور نوراً، والظلمة ظلمة، وأول الناس في خرم القياس، كما يقول ابن رشيق[1].

وكان كتاباها «قراءة في كف الوطن» النثري، و»وللعصافير أظافر تكتب الشعر» الشعري[2]، يؤسسان لهذا المعنى على نحو خاص، حيث تربط الشعر بالماضي، وتبني فيه للحاضر، وتفتحه على المستقبل، وحيث تصرخ في وجه هذا العصر قائلة: «إن الشعر يكمل الحياة ولا يلدها، فإذا كانت الحياة زاخرة بالفوضى، والظلام والضياع والتشتت، فإن الشعر طاقة متجددة وموحية بالنظام، والنور والمعنى والدلالة، وطالما أن الحياة البشرية ستظل ناقصة، فسيظل الشعر بدوره ضرورة ملحّة لإكمالها، وهذا يحتم أن تكون القضية مكتملة بدورها حتى تمنح الإحساس بالتكامل، أو الكمال»[3].

صنعت سعاد الصباح في هذين الكتابين، وهي تلخص منجزها الإبداعي في عدة سطور، معنى ذاتياً، بعد أن صنعت في هذا المنجز الإبداعي معنى مغايراً، فكأنما ذهبت لتصنع صورة كلية ملخصة لكل ما قدمته، لوطنها ولقارئها، بمعنى أنها لم تكن غايتها أن تبحث عن معنى مغاير من خلال نصها فحسب، بقدر ما كانت تقدم معنى ذاتياً، استطاعت به أن تحول

1- وصف ابن رشيق أبا نواس في هذا المقام وقال: «إنك أول الناس في خرم القياس، لأن القياس إثبات للماضي، وتثبيت للحاضر، وهو مخالف للإبداع، إنه عجز محض وتعطيل لصناعة الفكر».

2- صدرا عام 2017م.

3- د.نبيل راغب ـ عزف على أوتار مشدودة ـ دراسة في شعر سعاد الصباح.

خطابها عن الواقع المقروء، إلى خطاب مبدع بالمقروء، وتتمرد معانيه على نظم القراءة، التي تبني مساحة للنفور بين النص والناس، وبذلك لم تكتف بتحرير الرجل من موبقاته، ولا بتحرير المرأة من خنوعها وخضوعها، ولا بتحرير المجتمع من سلبياته وتقاليده البالية، بل حررت النص الإبداعي أيضاً -في الوقت نفسه- من وجوه اضطرابه أمام القارئ، ومن حجم الكراهية التي يحملها المجتمع تجاهه، إذ إن ما يقلل حجم هذه الكراهية هو قراءة هذا الكتاب.

جاء كتاب «قراءة في كف الوطن» نوعاً من التنبؤ بالمستقبل، فما قراءة الكف في الذهنية العربية، إلا طريقاً للتنبؤ بالمستقبل، عبر تفسير وقراءة الخطوط والتعرجات فيه، ولكل خط من تلك الخطوط دلالة موحية ومعبرة ومفسرة[1]، وتبقى هذه القراءة ظاهرة شعبية إلى جانب كونها علمية، أو هي إحدى الممارسات البشرية عند كثير من شعوب الأرض، التي تنتمي إلى علم التنجيم، ومن خلالها يمكن معرفة الشخصية وطباعها، كما في المعتقد العربي، وهنا تجاوزت سعاد الصباح الدلالة من قراءة كف الإنسان العربي، إلى قراءة كف الوطن العربي.

واقعية قراءة الوطن

وحين قرأت سعاد الصباح كف الوطن، بات الوطن في ميزانها حالة وعلاقة عضوية وإنسانية وتاريخية، بين الحاكم والمحكوم، علاقة متكافئة يحكمها العدل والاحترام، والمساواة والطمأنينة الروحية والجسدية، وحين

1- د.سلطان الحريري ـ الذات الشاعرة ـ مصدر سابق ـ ص 8.

يسقط العدل وتنعدم المساواة، وتنهار الطمأنينة، ويصبح القمع هو سيد الأحكام، ويصبح المسدس هو أساس الحكم، تصير الديمقراطية برنامجاً تليفزيونياً يذاع كل ليلة، الوطن ليس مصطلحاً جغرافياً -في رأيها- يتشكل من أرض وبحر، ولكنه عمق روحي، يمتد في داخل الإنسان، وفي داخل التاريخ.

الوطن ليس كيس حلوى نخبئه عن أعين الغرباء، أو نخبئه تحت الوسادة، إنه العدل والحكمة، وهو ابتسامة الحاضر والرهان على المستقبل، وهو الفراش الواحد للعائلة التي يتسع لها الجدار، وهو العبارة الواحدة التي نكتبها بأنامل دمنا جميعاً، لا بالطباشير، وهو العهد الذي لا نخونه أو نفرط فيه، إنه العصافير التي تطير في حرية، وتنشد الجمال والرقة والعذوبة، وهو البعد الأعمق لكل وفاء وانتماء، إنه الجنة التي ندخلها دون المرور على الصراط.

كانت سعاد الصباح واقعية وهي تصف الوطن، كانت تتمنى أن يكون هذا الوصف لهذا الوطن، وكانت تتمنى أن يكون هذا الوطن جديراً بهذا الوصف، وهو وصف أصيل بلا ظلال، وصف يصنع المعنى القابل للتطبيق والتحقيق، لا المعنى الهش المتعالي الذي لا يمكث في الأرض، ويكمن المعنى في قوة التعرف على ملامح هذا الوطن، والمضي حتى غاية التعرف على ملامح كل من أفراده، بما يشكل في نهاية المطاف، الهوية والخصوصية التي تجسد قيم الإنسان، وقناة تواصله مع ذاته ومع الآخر.

كانت سعاد الصباح واقعية وهي تقرأ كف الوطن، وكانت واقعية وهي تكتب الشعر بأظافر العصافير، وكانت واقعية وهي تقدم النص الإبداعي

الـذي تتواصـل بـه مـع العـالم، وقـد قدمـت سـعاد الصباح نصـاً حيـاً لا يموت أبـداً، والكاتـب لا يمـوت أبـداً أيضـاً، مـا ظـل نصـه حيـاً، والكاتـب لا يوجد في النـص فحسـب، بـل هـو النص نفسـه حـين يقـرأ[1]، فالكاتب على هـذا النحو يكـون معجـزة نصـه، لأنه إنسـان يكتب كلماته التـي يختارها بحـذر، ولا يثق فيهـا بسـهولة، يجاورهـا ويحاورهـا، يراقصهـا عـلى إيقاعـه، كي تنـسى إيقاعها، حتـى إذا اكتملـت معانيهـا، عـادت تلـك الكلـمات ذاتهـا تكتـب كاتبها خلال حـدث القـراءة، أي صـارت نصـاً يكتـب إنسـاناً، ويخـبر عـن مزاجـه وأسـلوبه ومواقفـه مـن واقعـه، وهنـا لا توجـد مسـافة بـين الكاتـب ونصـه، ولا توجـد مسـافة بـين النـص وما يتضمنـه، ولا يوجد زمن، ومن ثم كتبت سـعاد الصباح نفسـها ووطنهـا، بـلا فواصـل زمنيـة أو مكانية، تقول سـعاد الصبـاح: «الوطن العـربي واقـف عـلى سـجادة تحـترق، وهو لا يـرى الحريـق ولا يشـم الدخان، البحـر أيضـاً يحـترق، والإنسـان يحـترق، ولا أحـد يشـم رائحـة اللحـم البشري المتفحـم، أكـثر الأزمنـة بشـاعة، هي الأزمنـة التي يفقـد فيها المطعـون قدرته على الـصراخ»[2].

ولم يكـن لسـعاد الصبـاح أن تكتب نفسـها وتكتب وطنهـا، إلا حين تجاوزت معاناتهـا الشـخصية، لتكـون صـوت مـن لا صـوت لـه، تجـاوزت إحساسـاتها -الحزينـة والسـعيدة- ولم يبق إلا إحساسـها بالوطن وناسـه، الوطـن وقضاياه ومشـاكله، تجاوزت كل شيء، ليصبح الوطن هو كل شيء، هو الألوان الزاهية، وهـو الكعـكات الصغـيرة التي تصنعها الأمهـات، وهو دمى الأطفال الباسـمة، وهـو آيـات المعوذتـين التي تنطـق بها الشـفاه كل صباح ومسـاء للرقية، وهو

1- عبد الدائم السلامي ـ كنائس النقد ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ـ 2017م ـ ص 20.

2- قراءة في كف الوطن ـ حقيبة سفر ـ ص 270.

الأمـل في الغـد الذي يتحـرى الطيبات.

أحسـت سـعاد الصباح بمسـؤوليتها تجاه الوطن، ونـادت أن يتحمل الجميع معهـا تلـك المسـؤولية، وتمنـت أن يسـتجيب لندائها القاصي والـداني، وذلك في تسـامٍ عـن موقعهـا الاجتماعـي وانتمائهـا العائـلي ورصيدها المالي، مسـتهدفة رؤيـة جديـدة لمعنـى الوطـن، ومعنـى الانتـماء لـه، ورؤيـة جديـدة لمعنـى الإنسـان، ورؤيـة جديـدة لهمومـه وحقوقـه، مسـتنكرة اخـتراق خصوصيتـه، وانتهـاك حريتـه، فتقول: «أحـب المدن التي تحترم صمتـي، وحريتي، ولا تضع أنفهـا في شـؤوني الشـخصية، وأكـره المـدن التـي تتدخـل في قضايـاي الصغيرة، وتقتحـم طمأنينتـي، وتلاحقنـي في المطعـم والمقهـى وفي المصعـد، كأنهـا مخبر سري»، وتقـول: «ولأننـي أصبحـت أرى الأشـياء بشـكل أوضـح، ولأن ثقافتـي زرعتنـي في قلـب هـذا العـالم، وأتاحـت لي أن أعـرف قضايا النـاس، وأتعاطف معهـا، فقـد كان مـن الطبيعـي أن أوظـف ثقافتـي ككاتبة في صناعة الإنسـان الجديـد، والنضـال عـلى كل المسـتويات مـن أجـل صياغـة المسـتقبل العـربي صياغة جديـدة»[1].

وقـراءة المـدن في نظـر سـعاد الصبـاح تماثل قـراءة الكتب، بل إنهـا أهم، إن المـدن هـي الأولى بالقـراءة، لأنهـا تصنع الإنسـان وفقـاً للظروف التـي تمر بها، سـواء كانت نوعاً من رغد العيش أو ضيق العيش، وفي كليهما يتلون الإنسـان ويتشـكل، وفقـاً لمـا ترتضيـه بيئته، ولا يتسـنى ذلك لمن يشـعر بالغربة، حيث يصعـب أن ينتمـي غريـب لوطـن يعيـش فيـه غريبـاً، أو يكتسـب في وطـن الغربـة أسـمى الفضائـل، بـأن يحـب لأخيـه مـا يحـب لنفسـه، ويعمـل عـلى

1- حقيبة سفر ـ ص 266.

انتشاله من مخالب القمع والاستغلال والاحتكار والاحتقار، أو يعينه على أن يتمتع بكامل حقوقه الإنسانية، تقول سعاد الصباح: «هناك غربتان، غربة النفس وغربة الجسد، فغربة المكان أو تغيير العنوان أو الأصدقاء، لا يُسمّى في نظري غربة، لأن الاغتراب الحقيقي في دواخلنا، فالمواطن الذي حكمت عليه ظروفه بالحرمان من حرية الحوار، هو الذي يستطيع أن يصف لنا ما هو المنفى الداخلي، ويصف لنا عذاباته، إن المنفى الداخلي هو منفاي الحقيقي، وأنا لا أخترعه، وكثيرون مثلي، لأن دموع الإنسان لا تخترع، وأحزانه لا تصنع»[1]، وتقول: «أحب الأمكنة التي لا تشعرني بالغربة، أبحث دائماً عن زاوية من الأرض أشمّ فيها رائحة التراب، ورائحة الإنسان، لأتدفأ بنار التاريخ»[2].

التوجه الذهني والوجداني

قدمت سعاد الصباح عبر هذا المعنى كتابها «حقوق الإنسان في العالم المعاصر»، وفيه سعت إلى زرع نواة التوعية بتاريخ وحركة حقوق الإنسان، مؤكدة أن حقوق الإنسان أصبحت تحتل مكان الصدارة في حياتنا المعاصرة، وأنه في ظل قضايا حقوق الإنسان يجب أن لا تتسول الديمقراطية على الرصيف، ويجب أن تكون الحريات هي أولاً وثانياً وثالثاً، يجب أن تكون الحريات في المقدمة، وفي الصدارة، حرية ضحايا الحجر الفكري، وحرية ضحايا الاستبداد السياسي، وحرية ضحايا الظلم والتعسف، وحرية ضحايا احتكار سلطة القرار والرأي المنفرد، وحرية كل الشرائح المضطهدة والمنبوذة

1- حقيبة سفر ـ ص 265.

2- نفسه ص267.

والمهمّشة، فالحرية حق أصيل ومطلب مشترك بين الجميع، وضرورة حياتية لهم لا يعوضها أي شيء آخر.

وكانت سعاد الصباح تدرك أن الناس يعيشون حياة سريعة محمومة، ووقتهم ذو قيمة كبيرة، وهم في الوقت نفسه يعانون عبء المعلومات الزائد، إن قدر المعلومات الجديدة التي عرفناها خلال الثلاثين سنة الأخيرة، يفوق المعلومات التي عرفناها خلال الخمسة آلاف عام السابقة[1]، تقول: «الوقت هو بوصلة يحركها الإنسان بيديه، ووفق إرادته وطموحه، فالوقت في يد الكسول ميت ومكسور، في حين إن الوقت في يد أصحاب الطموح والرؤيا، هو وقت متجدد وواعد»، وهي هنا تتكئ على المعنى الذي صاغه الإمام ابن باز رحمه الله تعالى، حيث يقول: «الوقت هو الحياة، ومن أضاع وقته أضاع حياته، ومن أضاع حياته ندم، ولا تنفعه الندامة»[2]، وتقول سعاد الصباح: «الوقت هو مرآة صاحبه، يعكس شخصيته، وقدرته على العطاء، وأنا امرأة لا تستطيع أن تدور في قوقعة الزمن المتشابه، ولا أن تتأرجح بين التفاهة والفراغ»[3].

إن قدر المعلومات المتاحة في العالم تضاعف في السنوات الخمس الأخيرة، ولا يزال مستمراً في التضاعف كل يوم، وكان لابد من سبيل نحو امتلاك توجه ذهني سليم، وتوجه وجداني حي، إن التوجه الذهني السليم

1- جون سي ماكسويل ـ أساسيات التوجه الذهني وما يحتاج كل قائد إلى معرفته ـ العنوان في اللغة الأصلية (Attitude 101what every leader needs to know) ـ ترجمة ونشر مكتبة جرير ومكتبة مؤمن قريش ـ السعودية ـ 2009م ـ ص 40.

2- مجموع فتاوى ابن باز 16-261.

3- حقيبة سفر ـ ص 271.

والتوجه الوجداني الحي، لهما أثر عميق في حياة كل فرد، سواء كان حاكماً أو محكوماً، ولهذا لم يكن من المناسب تجاهل التوجهات الذهنية والوجدانية لكل أفراد المجتمع، الذين نتوقع منهم أن يحققوا النجاح في الحاضر، ويؤسسوا للنجاح في المستقبل.

من هنا اهتمت سعاد الصباح بتلك القضية التي تمس المجتمع كافة، في حاضره ومستقبله، فالتوجه الذهني والوجداني للإنسان يؤثر في علاقاته مع ذاته، ومع المحيطين به، ويصبغ رؤيته للأشياء، ويحدد طريقه للنجاح، التوجه الذهني والوجداني في نظر العلماء هو أساس النجاح والفشل في الحياة، وتصف لنا سعاد الصباح كيف أثرت رحلاتها وكثرة الأسفار في بناء توجهاتها الذهنية والوجدانية، تجاه الوطن والحياة، على اعتبار أن السفر كان أهم نافذة لديها لتحصيل المعرفة، تقول: «كل ما أستطيع أن أقوله هو أن ذاكرتي الثقافية، كانت ثمرة من ثمرات الرحيل، وملامسة الشعوب والحضارات المتعددة، وأستطيع أن أقول بفخر إنني عانقت الكون، ولم أكن في يوم من الأيام، فراشة محنطة على حائط»[1].

تجلت توجهات سعاد الصباح الذهنية، في حالات السفر والترحال بهدف المعرفة، ومع الجمع بين الذاكرة المعلوماتية والمعرفة والترحال والسفر، تكون النتيجة هي العلاقة بين المعرفة والمجتمع والدولة، بما يشكل شمولية ثقافتها وحضارتها، تقول سعاد الصباح وكأنها تضع علامات إرشادية للهداية إلى الطريق: «أهم نماذج الشعر العربي كتبت في حالات الترحال، ولولا أسفار المتنبي ما كان هناك متنبي، ولولا الصعلكة لما كان

1- نفسه ص 265.

هنـاك عـروة بن الورد، وارتحالات رامبو وهيمنجواي وشـوبان ودالي وبيكاسـو وازرا باونـد ورافائيـل ألـبرتي ويونسـكو، هـي التـي أعطـت للعالم هـذه الثروة الشـعرية واللونيـة المسرحيـة الهائلـة، وأغـاني التروبـادور والجيتـان والهيبيـين أليسـت هـي الأخـرى ثمـرة الرحيـل والمغامـرة والحريـة؟».

وهنـا يصبـح تعـدد الحضـارات تعـدداً للثقافـات ومكونـاً للمعرفـة، تقـول سـعاد الصبـاح: «السـفر في قلـب الحضـارات، وفي عمـق التاريـخ والجغرافيـا، علمنـي مـا لم أعلـم»، وكـما يصفهـا «ليوتـار» فهي في الأسـاس علاقة الوسـائل بالغايـات[1]، فتقـول: «لم أكـن في رحـلاتي الكثيرة مجرد سـائحة تتفرج، ولكنني كنـت امـرأة كويتيـة تريـد أن تتعلـم»[2]، وتقـول: «السـفر كتـاب بـآلاف الصفحـات يغنـي عقـل الإنسـان، ويزيـد مـن شـمولية ثقافتـه»[3].

ونحـن نـدرك أنـه لا توجـد أشـياء كثـيرة في الحيـاة، أعظـم قيمة مـن توجه ذهنـي يدفـع الإنسـان نحو العـزم الإيجـابي، في التغلب على مشـكلات الحياة، وفي التعامـل معهـا بمأخـذ الجـد، وفي تجاوز عراقيلهـا ومعيقاتهـا، وفي التفاؤل بالمسـتقبل، رغـم مـا في الحـاضر مـن منغصات ومطبـات، وليس هنـاك أعظم قيمـة مـن توجـه وجداني ينتـج طاقة إيجابية، وشـحنة حـماس في الإقبال على الحيـاة، ويدفـع الإنسـان إلى التخلـص مـن الطاقـات السـلبية التـي بداخلـه، وتمنعـه مـن الانسـياق إلى نمـط مـن التفكـير السـلبي في تفاعلـه مـع الحيـاة، والتفكـير السـلبي هـو أبـرز الأسـباب التي تـؤدي بالمجتمـع إلى الهلاك، سـواء

1- ليوتـار ـ الظاهراتيـة ـ ترجمـة: د.خليـل البحـر ـ سلسـلة مـاذا أعـرف؟ ـ المنشـورات العربيـة ـ بيروت ـ وترجمـة: أحمـد حسـان ـ دار شرقيـات ـ القاهـرة ـ 1994م ـ ص 23.

2- حقيبة سفر ـ ص 264.

3- نفسه ص 263.

ارتبـط ذهنيـاً بالحاكـم أو بالمحكوم.

وأذكـر أن الزعيـم مهاتيـر محمـد[1]، كان ضيـف شرف في حفـل الأنشـطة الختاميـة، لمدارس كوبانج باسـو في ماليزيا، واقترح فكرة مسـابقة للمدرسـين، وليسـت للطـلاب، وهـي توزيـع بالونـات عـلى كل مـدرس، ثـم طلـب منهـم نفخهـا وربطهـا في أرجلهـم، وفعـلاً قـام كل مـدرس بنفـخ وربـط البالونـة في رجلـه، وهـم في سـاحة مسـتديرة ومحـدودة، وقـال: لـدي مجموعـة مـن الجوائـز، وسـأبدأ مـن الآن بحسـاب دقيقـة واحدة فقـط، بعدها سـيأخذ كل مـدرس مـازال محتفظـاً ببالونته جائزة، وبـدأ الوقت، وهجم جميع المدرسـين بعضهـم عـلى بعـض، كل منهم يريد تفجيـر بالونة الآخر، حتـى انتهى الوقت، ووقـف الزعيـم الماليـزي بينهـم مسـتغرباً، وقـال: لم أطلب مـن أحدكم تفجير بالونـة الآخـر، بـل قلـت سـيأخذ كل مـدرس مـازال محتفظـاً ببالونتـه جائزة، ولـو أن كل شـخص منكـم وقـف في مكانـه، مـن دون اتخـاذ قـرار سـلبي ضد الآخـر، لنـال الجميـع الجوائـز، ولكـن التفكيـر السـلبي يطغـى عـلى الجميع، وهكـذا نحـن في حياتنـا، كل واحـد منـا يفكر بالنجـاح على حسـاب الآخرين، مـع أن النجـاح متـاح للجميع.

وشـبه أيضـاً الفيلسـوف الفرنسي فرانسـوا فولتير الحياة بلعبـة الورق، وعلى كل لاعـب أن يقبـل الأوراق التـي تـم توزيعهـا عليـه، ولكـن بمجرد أن تمسـك اليـد بتلـك الأوراق، يصبـح اللاعـب وحـده هـو مـن يحـدد كيفيـة اللعـب، واختيـار الطريقـة التـي تمكنـه مـن الفـوز، وهكـذا يتوفـر لدينـا دائمـاً عـدد مـن الفـرص في أيدينـا، وعلينـا أن نحـدد مـا إذا كنـا سـنخاطر ونتـصرف بنـاء

1- يشغل حالياً وقت كتابة الكتاب رئيس وزراء ماليزيا.

عـلى هـذه الفـرص، أم نخسرهـا؟ ومـا مـن شيء في الحيـاة يسـبب توتـراً، إذا كنـا نتـصرف بشـكل إيجابي، ولكـن في الوقت ذاتـه، كل شيء في الحيـاة يرتبط بتجربـة جديـدة، تتيـح فرصـاً أكـبر للنمو.

وكثـيرون مـن الآبـاء والأمهـات يـرون أنـه مـن الصعب حمايـة أبنائهـم، من التجـارب التـي ربمـا تكـون سـلبية، تقـول سـعاد الصبـاح: "كل فعـل إنسـاني يحمـل مشـكلة، أو يـؤدي إلى مشـكلة"[1]، وتعـبر عـن قدرتهـا عـلى مواجهـة الأزمـات، وضرورة أن يمتلـك مجتمعهـا هـذه القـدرة، فتقـول: "لا أتحمـس لسـفن لا تضربهـا الريـاح، فهـي سـفن مـن ورق، ولا للبحـار التـي لا تغضب، ولا تصيبنـي بالـدوار، أنـا مـع السـفن المجنونـة التـي لا تعـرف مـن أيـن وإلى أيـن"[2]، لذلـك مـن الـضروري إعدادهـم لمواجهـات إيجابيـة، مـن شـأنها بناء ثقتهـم بأنفسـهم، وتكويـن صورتهـم عـن ذاتهـم، إن التجـارب سـواء كانـت إيجابيـة أو سـلبية، يمكـن اسـتخدامها كأدوات لإعـداد الأبنـاء للحيـاة.

لقـد انتبهـت سـعاد الصبـاح إلى ضرورة توجيـه المجتمـع إلى البعـد عـن التفكـير السـلبي، ووجهتـه إلى التفكـير الإيجـابي حتـى في أوقـات المصائـب والمحـن، وللمحـن في نظـر سـعاد الصبـاح إيجابيـات وفوائـد، تقـول: "مـن إيجابيـات المحـن أنهـا تخـرج المعـادن الحقيقيـة، فالمنعطفـات تضعـك في مواجهـة الشـعارات التـي كنـت ترفعهـا، فتعـرف حينهـا هل هي قناعـات، أم شـعارات زيـف"[3].

1- حقيبة سفر ـ ص 269.

2- نفسه ص 268.

3- ضوء نجمة بعيدة ـ ص297.

كما أنها انتبهت إلى أنه من المستحيل أن يستقيم الأداء الفردي أو الجماعي بشكل منظم، دون أن يتوافق هذا الأداء مع الطريقة التي نرى بها أنفسنا، بمعنى آخر، إننا عادة ما نتصرف في صورة رد فعل مباشر للصورة المنطبعة لدينا عن ذواتنا، ومن ثم ليس هناك أصعب من تغيير التصرفات الخارجية، دون تغيير المشاعر الداخلية، ومن أحسن الطرق لتحسين شعورنا الداخلي، هو وضع أشكال النجاح خلال تجاربنا، وما التجارب إلا صفحات تتقلب برأس الإنسان وعقله، وبوابات مفتوحة على حب الحياة، لا تعرف الشقاء.

نمط التفكير الإيجابي

ويرتبط نمط التفكير الإيجابي والرغبة في التخلص من الشحنات السلبية والطاقة المعاندة والمعاكسة داخل الإنسان، في نظر سعاد الصباح، بقدر كبير من الحرية، تقول: «ثمة نساء لا يرغبن في مغادرة السجن، ويخفن مواجهة شمس الحرية»[1]، وكلما توفرت الحرية، كانت اتجاهات الإنسان إيجابية، لأنه وقتها يكون متمتعاً بالقدر الكافي من القدرة على اتخاذ قراره، دون ضغوط، وتقول سعاد الصباح معبرة عن أمنيتها في وطن عربي حر، ومواطن عربي حر: «أمنيتي أن يخرجوا الأمة العربية من الزنزانة، وأن يحجزوا لها جناحاً في فندق الحرية»، فبالحرية يستطيع الإنسان أن يخطو خطوات إيجابية نحو التطور والنماء، وأن يحقق أمانيه بالشكل الذي يرتاح إليه، مهما كان متميزاً ما دام لا يمس مصالح الغير.

1- المرأة وطن ـ ص283.

والتفكير الإيجابي يجسد أمامنا حقيقة أن الطريقة التي ننظر بها لأنفسنا، تعكس الصورة التي يرانا بها الآخرون، وإذا كنا نحب أنفسنا، فإن هذا يزيد من احتمالات أن يحبنا الآخرون، ودائماً علينا أن نركز على الحاجة إلى أن نحيط أنفسنا بالإيجابيين، فعادة ما تكون أكثر التعليقات إيلاماً، هي تلك التي نتلقاها من شخص يقول: «إن شريك حياته سلبي، ولا يريد التغيير»، وعندما يكون شريك الحياة غير راغب في التغيير، يصبح الطرف الإيجابي أسيراً داخل السلبية.

وفي هذه الحالة، ينصح خبراء الأسرة وعلماء الاجتماع الزوجين، بأن يتذكر كل منهما أن شريك الحياة، هو نفس الشخص الذي كان يحبه خلال فترة الخطبة، وسوف تتحسن الحياة الزوجية بينهما، إذا لم يتم التركيز على نقاط الضعف في الطرف الآخر، ولكن الحال ينتهي بالطلاق في أغلب الأحوال، بسبب تجاهل نقاط القوة، إذ يصبح كثيرون يتوقعون الأسوأ من الطرف الآخر، بعد أن كانوا يتوقعون منه الأفضل، والتركيز على نقاط الضعف، بدلاً من الاستفادة من نقاط القوة، تقول سعاد الصباح: «ما الذي تتمناه العاشقة الطالعة على الدنيا، أكثر من عاشق تهرب من عينيه إلى عينيه»[1]، وتقول: «أنا مطار الجنون، وأنت مطار الحكمة والهدوء والغفران، قل لبرج المراقبة يسمح لي بالهبوط، لم يعد عندي وقود يكفي للطيران حول مطارك المضرب عن الحب»[2].

وتمتزج كل العوامل السابقة لتشكل التوجه الذهني، ولتؤثر على كينونة

1- في جنة الحب ـ ص 149.

2- نفسه ص139.

كل منا، وعلى الأشخاص الذين نقودهم، وعلينا أن نتذكر دائماً، سواء كنا نبلغ من العمر 11 عاماً أو 42 عاماً أو حتى 65 عاماً، فإن توجهنا الذهني تجاه الحياة، يظل رهن التكوين، لا يفوت الأوان أبداً، بالنسبة لأي شخص، لتغيير توجهه الذهني، إما أن نكون مسيطرين على التوجه الذهني لدينا، أو نكون ضحايا له، وهذه مسألة اختيار شخصي، وترى سعاد الصباح أن الحال التي نحن عليها اليوم، هي نتيجة الاختيارات التي قمنا بها أمس، وغداً سوف يتحدد حالنا من خلال الاختيارات التي قمنا بها اليوم، ولكي نتغير يجب أن نختار أن نتغير.

وتنبه سعاد الصباح إلى أن أولي الأمر هم الذين يتحملون مسؤولية عدم استفادة الوطن، من تلك العقول المستنيرة، التي نطلق على أصحابها «الطيور المهاجرة»، وكيف أنهم قادرون على تغيير المجتمعات التي يهاجرون إليها، بعقولهم وأفكارهم واختراعاتهم واكتشافاتهم، بينما نحن في الوطن نظل (مَحلَّكَ سِرْ)، نخسرهم ولا نبكي عليهم، فتقول: «من المسؤول عن هذه الأدمغة التي تضخ معارفها في أرض غير أرضها، وتحت سماء غير سمائها، وفي بحار غير بحارها؟ من المسؤول عن هذه الشبيبة العربية، التي تكبر تحت السماوات الرمادية، من دون طفولة ولا تاريخ ولا ذكريات ولا لغة؟ من المسؤول عن هذه الأجيال اللامنتمية إلى وطن، أو تراث، أو عقيدة؟ من المسؤول عن هذا كله؟ نحن العرب، لأننا نريد وطناً بغير مواطنين، ونريد سلطة بغير معارضين، ونريد صحافة بلا صحافيين، ونريد فكراً بلا مفكرين»[1]، وتقول: «وجه الوطن اليوم هو وجع الأرواح المغتربة

1- على مشارف الوطن ـ ص 234.

عـن بيتهـا، والهاربـة مـن غربـة أخرى، بـدت مخيفة في مسـقط الـرأس»[1].

وهكـذا عملـت سـعاد الصبـاح عـلى تكويـن وبنـاء توجـه ذهنـي ووجـداني لـدى أبنـاء الوطـن، يعيـد وصـل مـا انقطـع، مـن مبـادئ وقيـم الانتـماء إلى هـذا الوطـن، فتقـول: «نحـن وحدنـا نقرر صفتنـا، نحـن وحدنا الذيـن نختار مصيرنـا»[2]، و»نحـن المسـؤولون عـن إلغـاء فكرة الوطـن والوطنيـة في نفوس الشـعب، فالوطن ليس مفهوماً تجريدياً، ولا نشـيداً مدرسياً، ولا طابعاً بريدياً، ولا برنامجاً إذاعياً، ولا مسلسـلاً تليفزيونياً، ولا استعراضاً عسكرياً»[3]، «الوطن هـو علاقـة عضويـة وإنسـانية وتاريخية بـين حاكـم ومحكوم، علاقـة متكافئة يحكمهـا العـدل، والاحترام، والمسـاواة والطمأنينـة الروحية والجسـدية، وحين يسـقط العـدل، وتنعـدم المسـاواة، وتنهـار الطمأنينـة، ويصبـح القمـع سـيد الأحـكام، والمسـدس أسـاس الحكـم، تصـير الديمقراطيـة برنامجـاً تليفزيونيـاً يـذاع كل ليلـة»[4]، و»الوطـن جعـل مـن قلبـه مـزاراً لأولاده الذيـن أدمنـوا عشقه»[5].

وتـرى سـعاد الصبـاح في هـؤلاء الأبنـاء الذيـن يعشـقون الوطـن، الأمـل للمسـتقبل، لـو ركزنـا اهتمامنـا بهـم، واكتشـفنا مواهبهـم ورعيناهـم حـق الرعايـة، ووجهناهـم ذهنيـاً ووجدانيـاً، بمـا يمكنهم مـن التعامل مـع متغيرات الحيـاة، وخبراتهـا الجديـدة، ومسـتقبلها المشـحون بالمتغـيرات، تقـول: «الأمة

1- نفسه ص 239.
2- نفسه ص 242.
3- نفسه ص 232.
4- نفسه ص 233.
5- نفسه ص 236.

العربية مليئة بالمواهب، ولن تتوقف عن ولادة المبدعين، اللؤلؤ مازال مخبوءاً داخل الإنسان العربي، فقط ينتظر من يكتشفه، ويصقله، ويطلق سراحه»[1].

وأذكر واقعة حدثت لجارتي وابنتها، وقت أن كانتا تقيمان بالخارج وقت الدراسة، وجاءتني ذات يوم ترويها لي لتكشف عن حجم الاهتمام والرعاية التي يلقاها الأبناء، في نظم التعليم المتقدمة بالخارج، وكيف تصنع منهم هذه النظم أبناء قادرين على قيادة المستقبل، بينما نحن لا نلتفت إلى ذلك، وهو الأمر الذي تنبه إليه سعاد الصباح.

تقول: «تتسم ابنتي بالخجل، وعادة ما تحجم عن التجارب الجديدة، ولكن في إحدى المرات تعرضت لموقف تعيّن عليها فيه أن تتحلى بأكبر قدر من الطاقة الإيجابية، وعندما كانت في الصف الأول من الدراسة، أقامت مدرستها حملة لبيع الحلوى، وتم خلالها إعطاء كل تلميذ وتلميذة، 30 قطعة حلوى لبيعها جميعاً، وعندما توجهت لأخذ ابنتي من المدرسة، كانت تمسك قطع الحلوى في يديها، وكانت تحتاج إلى بعض التشجيع الإيجابي، لذلك قررت أن الوقت قد حان، كي أتحدث مع مندوبة المبيعات الجديدة، عن أصول البيع. طوال الطريق إلى البيت، علّمتها كيف تبيع قطع الحلوى، وعندما كنت أبلغها بأي قاعدة من قواعد البيع، كنت أشجعها دائماً، وأقول إن بإمكانها النجاح، وإن ابتسامتها ستجتذب إليها المشترين، وإنني أؤمن بإمكانياتها، وبحلول نهاية رحلتي التي استمرت 15 دقيقة تقريباً في اتجاه طريق عودتنا، تحولت الفتاة الصغيرة التي تجلس بجواري،

1- نفسه ص 247.

وتخوض أولى تجاربها في الحياة، إلى مندوبة مبيعات ملتزمة، ولها القدرة على الجذب، وتوجهت على الفور إلى الحي، ومعها شقيقها الأصغر الذي كان يأكل قطعة حلوى، وقال إنها أفضل قطعة حلوى أكلها على الإطلاق. وفي نهاية اليوم كانت قد باعت القطع الثلاثين، وكان شعور ابنتي رائعاً، ولن أنسى الدعاء الذي توجهت به لله، عندما كنت أضعها في سريرها ليلاً، قالت: الحمد لله على نجاحي في حملة بيع الحلوى التي أقامتها المدرسة، اللهم ساعدني واجعلني ناجحة، آمين، ويعكس هذا الدعاء الذي نطق به لسان ابنتي، الرغبة الداخلية لدى كل شخص، كلنا نريد أن نكون ناجحين. عادت ابنتي في اليوم التالي من المدرسة، وهي واثقة في نفسها، ومعها صندوق آخر من قطع الحلوى، مما مثل لها اختباراً كبيراً وجديداً، هذه المرة لن تبيع الحلوى للجيران الودودين، بل أصبحت في مواجهة العالم القاسي، المتمثل في المشترين المجهولين، وأقرت ابنتي بأنها خائفة، وعندما ذهبنا إلى مركز التسوق مرة أخرى، شجعتها وأعطيتها المزيد من النصائح، في فن البيع، ثم المزيد من التشجيع، وتحديد المكان الصحيح، ثم المزيد من التشجيع مرة أخرى، وكانت النتيجة أنها نجحت في مهمتها، وتحولت التجربة إلى يومين من البيع، تمكنت خلالهما من بيع كل ما لديها، وأسفرت عن شخصية سعيدة ناجحة، وتعزيز الصورة المنطبعة عن الذات لديها».

وهكذا، يحتاج الأبناء إلى طمأنتهم، والإشادة بهم بشكل دائم، عندما تكون تجاربهم غير إيجابية بالقدر الكافي، وكلما كانت التجربة سلبية، احتاجوا للمزيد من التشجيع، ولكن في بعض الأحيان نشعر بالإحباط، عندما يتعرضون هم للإحباط، إن ما يعبر عنه الآخرون بالنسبة لوجهة

نظرهـم عنـا، يؤثـر على الطريقـة التي نرى بها أنفسـنا، إذ عادة ما نسـتجيب لتوقعـات الآخريـن، وتصبـح هـذه الحقيقـة ظاهـرة للوالديـن، عندما يذهب أبناؤهـم للمدرسـة، إذ يصبـح مـن المسـتحيل عـلى الوالديـن أن يتحكـما في البيئـة المحيطـة بأبنائهـم، وما قـد يزيد من صعوبـة الأمـر، إدراك أن الآخرين يحكمـون أيضـاً على قيمتنـا، من خلال مظهرنا. وتحيل سـعاد الصباح المشـهد مـن صـورة الأبنـاء في أذهاننـا، إلى صـورة الوطـن الـذي يحتـاج إلى المزيـد من التشـجيع، وهو يخوض غمار الفشـل، والتفكير السـلبي في كل الأشياء، فتقول: «أصبـح العـالم يقـول لنـا، هـذه مائـدة لحـم أخيـك، تفضـل شـاركنا لقمة من كبده»[1].

وتلـك هـي الصـورة الذهنية المنطبعة لدى سـعاد الصباح عـن ذواتنا، والتي تحـاول أن تصدرهـا إلينـا، لنتمسـك نحن أيضـاً بالأمل، رغم كل مـا في صدورنا وقلوبنـا مـن ألم، بسـبب الأوضاع التي تحيـط بالوطن، والتـي تلخصها بقولها: «الوطـن العـربي مسرحيـة من مـسرح اللامعقول، ليس لها سـياق ولا موضوع، ولا ينظمهـا منطـق»[2]، وتقـول: «نتأمـل أوضـاع العـرب، ونسـتدعي ملامـح الأرض الحبـلى بالنفايـات السياسـية، فيحتـار الإنسـان، أي موقـع نظيف يقف عليـه، وهـو بـين كماشـة، واقـع رديء وحلـم مسـتحيل؟»[3]، وتقـول: «وحزني وطـن لـه مسـاحة الكون»[4]، وتقـول: «سـيطلع ورد من تحت الخـراب»[5].

1- نفسه ص 246.
2- نفسه ص 251.
3- نفسه ص 246.
4- نفسه ص 229.
5- نفسه ص232.

الصورة المنطبعة عن الذات لدينا قاتمة، وحين تضع الحدود اللازمة لبناء توجهنا الذهني والوجداني، تكون الحدود قاتمة أيضاً، نحن نتصرف كرد فعل للطريقة التي نرى بها أنفسنا، ولن نتجاوز أبداً الحدود التي تحدد شعورنا الفعلي عن أنفسنا، ولن نتمكن من اكتشاف أي مناطق جديدة داخلنا، إلا عندما تكون الصورة المنطبعة لدينا -عن ذواتنا- قوية بالقدر الكافي، وإيجابية ومضيئة بالقدر الكافي، بحيث تدفعنا إلى التوجه لهذه المناطق، تقول سعاد الصباح: «التجارب الحارقة التي مررنا بها، يجب أن تدفعنا لنفكر تفكيراً جديداً، ونواجه العالم بعقل جديد»[1]، وتأمل كيف تفكر سعاد الصباح إيجابياً في وضع الوطن وصورته، وهي تنتقل من العام إلى الخاص، إلى وطنها الكويت، فتقول: «سميتك الأمل يا جرحاً في خاصرة الزمن، سمّيتك الأطفال حين يولدون، والريح والبرق والأمطار، سمّيتك السفينة والبحر والمرافئ، سمّيتك الوطن»[2].

وتقول: «الانتماء للوطن هو انتماء إلى أرض وتاريخ وقضية، فوطني الذي أعطاني اسمي وهويتي وكياني، لا أستأذن أحداً عندما أرسم مواقفي، وأختار خطي الكتابي، فلي حبيبان أتغزل بهما، هما وطني وزوجي»[3]، وتقول: «كلما حالفني الحظ وحطت قدمي على هذه الأرض الكويتية التي يظللها علم وطني، يكبر قلبي لما تقدمه من خدمة، على المستوى العملي والإنساني، وتمطر نفسي ألماً على ما يكبلها من عوائق»[4]، وتقول:

1- نفسه ص 243.
2- نفسه ص251.
3- نفسه ص228.
4- نفسه ص236.

«الخطـوط الجويـة الكويتيـة لهـا في قلبـي مكانـة خاصـة، كبرنـا معهـا، وتهتز قلوبنـا كلـما رأينـا طائراتهـا في المطـارات الدوليـة»، وتقـول: «إنهـا الكويـت التـي تمـلأ المسـافات، بـين السـماء والأرض، وتحملنـا في رحمهـا، الكويـت هي قبـل كل شيء رحـم تكوّنّـا جميعـاً داخـل جدرانـه الدافئـة، وشـجرة طيبـة أكلنـا منهـا أطيـب الثـمار، الكويـت بنايـة ارتفعت بحجـارة الحب، وبسـواعد الكويتيـين وعرقهـم، ودموعهـم وضـوء عيونهـم»[1]، وتقـول: «وجـه الوطـن كوجـه الإنسـان، تغـيره ظـروف الزمـان، وتقلبـات الأيـام، وتترك عليـه الأحزان بصماتهـا العميقـة»، وتقـول مؤكـدة أنـه لا شـعور بالوطـن مـن دون الحرية: «إن الحريـة هـي إرادتنـا الكبـيرة في الكويـت، وبفضلهـا اسـتطعنا أن نقـاوم الغـزاة، ونكـسر سلاسـل الحديـد في أرجلنـا»[2]، وتقـول: «الحريـة المسـؤولة، تحـاول إيصال السـفينة إلى شـاطئ السـلامة، وحريـة التخريب تحـاول إغراق السـفينة بمن فيهـا»[3].

تلـك هي الحرية المسـؤولة التي تنشـدها سـعاد الصباح، وتلـك هي الحرية التـي تحقـق سـعادة الإنسـان، ذلك الذي ظل هدفاً أسـمى لمنجزهـا الإبداعي إجـمالاً، تقول: «الإنسـان هو هدفي الأسـمى وهو دائرة الضـوء في حياتي، فعلى سـجادة الإنسـانية الخضراء، أتمدد وأجد نفسي أقاسـم الإنسـان دمعته، ويردد صـوتي صـدى ضحكتـه»، وتقـول: «إن الانتـماء إلى أحـزان النـاس وهمومهـم، ليـس مسـألة طبقيـة، ولا يتحكـم فيهـا برنامـج حياتـك اليوميـة، ولا يلغيهـا الانتسـاب إلى اليـسر»، وتقـول: «يحزنني حـزن من أحب، يحزننـي العجز عن

1- نفسه ص 242 وما بعدها.

2- نفسه ص256.

3- على أجنحة الحرية ـ ص 120.

أن أكـون يـداً لـكل مـن يحتـاج، وعينـا لـكل مـن يطلب بـصراً، تحزننـي رؤية عجـوز تعـبر شـارع الحياة، دون أن تجـد من يأخذ بيدهـا»، وتقول: «صديقي الإنسـان هـو غايتـي، وهو عنـواني الدائم، هـو خيـاري الوحيد، وأنا مسـتعدة أن أعطـي ضـوء عينـي مـن أجله، بـصرف النظر عن جنسـه ولونـه ولغته».

صحيـح أن أمـر الحريـات لا يرتبـط بالإنسـان وحـده، ولا بمـا لديـه مـن قـدرات فقـط، كي يحقـق كل أحلامـه، بل بمـا يحالفه من توفيـق في تحقيق ما يسـتطيع تحقيقـه منهـا، ولا يتمكن الإنسـان مـن تحقيق أحلامه إلا بمسـاعدة الآخريـن، بوصـف الإنسـان كائنـاً متصـلاً بغيره، كائنـاً يصعـب أن يعيش دون جماعـة تحيـط بـه، يعاونهـا وتعاونـه، والأمـر عـلى هـذا النحـو ينطبـق عـلى وضـع المـرأة في المجتمـع العـربي، إذ تضعـف إمكانياتهـا عـن تحقيـق أحلامها كاملـة، بالطريقـة التـي تريدهـا، تقول سـعاد الصبـاح: «أنا امـرأة عربية تريد أن تعيـد لعقـل الأنثـى اعتباره، بعد عصـور من التعتيـم، كان فيها هذا العقل ملفوفـاً بالقطـن، ومحجـوراً عليـه، ومرمياً عـلى رفوف النسـيان»[1].

عنصرية اللغة

وهـذا الـكلام ليـس فيـه مبالغـة أو رغبـة في ليِّ عنـق النصـوص إلى وجهـة معينـة، وأعنـي عـلى وجـه الدقـة، اللغـة التـي تمثـل فصـلاً عنصريـاً في وجـه المـرأة، فاللغـة ليسـت حياديـة، وليسـت بعيـدة كل البعد عن التحيـز، والأمر لا يخـرج عـن قضيـة الـدور الاجتماعـي الذي تقـوم بـه المـرأة، المحافظة على تواصـل الأجيـال، وهـو مـا حـذرت منـه سـعاد الصبـاح، والدليـل عـلى ذلـك

1- نفسه ص 238.

أن الحرية المطلقة، التي كانت مطلباً وهدفاً في فترة ما، لدى الحركات النسوية الغربية، دفع المجتمع فاتورتها ثمناً باهظاً، والكل يطلق صفارة الإنذار، في وقت أصبح التراجع ليس بالأمر الهين، لأنه لا يمس فرداً بذاته، بل له علاقة بشبكة من العلاقات بالغة الدقة، وبالغة التناسق، تفريقها ليس سهلاً، وترقيعها صعب المنال.

والسؤال الهاجس: كيف تتعامل اللغة مع المرأة؟ يلعب الجنس دوراً قواعدياً مماثلاً للدور الذي يلعبه صاحبه في الحياة الفعلية، لذا تميل قواعد اللغة العربية إلى إبراز الذكورة، مساهمة منها في إحكام الحصار التاريخي بالعلاقات غير الطبيعية وغير الإنسانية وغير الحضارية، بين الرجل والمرأة[1]، تقول سعاد الصباح: «اللغة هي الوثيقة الوحيدة التي نحملها لإثبات هويتنا، وإثبات انتمائنا إلى أرض ما، وشعب ما وحضارة ما، ومن دون هذه الهوية، سوف نكون كائنات هلامية، تسكن في العدم أو في الفراغ»[2].

وتحذر سعاد الصباح من تحويل المرأة إلى كائن هلامي، يعيش في العدم أو في الفراغ، بسبب تحيز وعنصرية اللغة، خاصة وهي المعبر الوحيد عن الهوية، حتى وإن لم يكن إطلاق الأمر على عواهنه ممكناً، مادام هناك بعض النماذج التي تدل على الحياد، مثل تغليب التأنيث على التذكير في بعض الحالات، وعلاوة على ذلك، فقد أجازت العربية جمع المذكر في بعض حالاته، جمعاً مؤنثاً، لكن يظهر أحياناً أن هناك ميلاً وعناية لدارسة

1- خديجة صبار ـ مصدر سابق ـ ص41.

2- حوار الذات ـ ص 51.

التأنيث أكثر من التذكير، بهدف إحداث ذلك الحصار، ولا يمكن أن نتوجه إلى أهل اللغة بالسؤال: هل هو إشعار لغوي، يتمثل في أن المشكلة تكمن في التأنيث، أم هو دلالة فنية، وخصوصية تنبع بالجمال؟ وبخاصة أن صناع اللغة وأقطاب النحو هم الرجال، وتنبه سعاد الصباح إلى ذلك فتقول:

يقولون
إن الكلام امتياز الرجال
فلا تنطقي
وإن التغزل فن الرجال
فلا تعشقي
وإن الكتابة بحر عميق المياه
فلا تغرقي
وها أنذا قد عشقت كثيرا
وها أنذا قد سبحت كثيرا
وقاومت كل البحار ولم أغرق[1]

وحتى في تغليب اللغة المؤنث على المذكر في بعض المواضع، كان الأمر مجرد استثناء من القاعدة المقررة سلفاً «الأصل هو التذكير»، ودفع أهل اللغة إلى ذلك دفعاً، المعايير الصارمة التي وضعوها لضبط اللغة، وهذا الاستثناء كان محمولاً على المعنى، أو على السماع، أو يؤوّلونه بالمذكر، لأنه أصل، ويمكن قياس الفرع على الأصل، لاقتران العلة، وهم في ذلك

1- ديوان «فتافيت امرأة» دار سعاد الصباح ـ ط1 ـ 1992م ـ ص17.

متأثـرون بأصـول الفقـه والمنطق[1]، وهذا ليس إلا مثالاً عـلى أن ثقافة الاقصاء والتهميـش، لهـا جـذور في اسـتعمالاتنا اللغويـة، مـن حيـث لا ندري.

ولم يكـن بـد مـن أن تواجـه المـرأة بنفسـها هـذا الإقصـاء والتهميش، بسـنّ أسـنان المقاومة، ورفع راية النضال، وترك الكسـل جانباً، تقول سـعاد الصباح: «هنـاك كسـل تاريخـي لـدى المـرأة جعلها تخـسر قضيتهـا، وجعـل الرجـل يسـحب السـجادة مـن تحـت قدميهـا»، وليـس هنـاك سـبيل للتخلـص مـن الكسـل التاريخـي الـذي أفقـد المـرأة قضيتهـا، سـوى أن تعـود المـرأة لامتلاك قوتهـا ونشـاطها، وحماسـها وإيمانهـا بعدالة القضيـة، وأن تبنـي ثقافتها طوبة طوبـة، ويـأتي ذلـك مـن اسـتيعابها لحاصـل الجدلية الحـادة، التـي تدير رحى المجتمـع، بـين ماضيـه وحـاضره ومسـتقبله، مـع عنـاصر معيشـته المختلفـة، مثـل الجغرافيـا والتاريـخ والعقيـدة والفـن والمظهـر والمطبـخ السـياسي، والعقليـة الاجتماعيـة ووحـدة الضمـير، وأشـكال التواصـل وغيرهـا، مـما يميزه عـن المجتمعـات الأخرى.

وعـلى هـذا النحـو تؤمـن سـعاد الصبـاح بأن عـلى المـرأة أن تنهض بنفسـها ثقافيـاً واجتماعيـاً، وليـس ذلـك مـن قبيـل الاختيار، بـل إن دورها الـذي تقوم بـه كأم، ودورهـا الـذي يجـب أن تقوم به تجـاه مجتمعها، يفـرض عليها ذلك، يفـرض عليهـا أن تعـي مجمـوع رؤى المجتمـع وأشـيائه وأحيائـه وطرائقه، في التواصـل معهـا تحويـلاً وتأويـلاً، متجـاوزة عنصريـة الرجـل، وعنصريـة اللغـة التـي يصنعهـا، وعليهـا أن تتـصرف باعتبارهـا كائنـاً حيـاً، فاعـلاً لا مفعـولاً بـه، ومُصـدِّراً لا مُسـتقْبِلاً، وعليهـا أن تكـون نصـاً يمـشي في الأسـواق، ويمطـر

1- خديجة صبار ـ مصدر سابق ـ ص101.

صمت المارة بالأسئلة، وأن تكون الإيجابية أكثر العناصر التي تكونها عقلياً ووجدانياً.

وتقول سعاد الصباح في هذا الشأن: «تكتب المرأة كي تعيد العدالة إلى نصابها، وتعيد توزيع الأراضي الثقافية، وتكون حارسة على أفكارها، وتطرح قضيتها من دون وسطاء أو وكلاء»[1]، وتقول: «كنت أدعو المرأة العربية إلى رفض العقلية الذكورية، والخروج عليها، لكنها اليوم مدعوّة للثورة على ذاتها، لتخرج من قارورة العطر التي حبست فيها نفسها»، وتقول: «المرأة العربية اليوم، ليست مدعوة للثورة على غيرها، بقدر ما تحتاج من ثورة، على نفسها، وما لم تحقق انتصاراً على الذات، فكل انتصار آخر يبدو باهتاً»[2].

ولعل وضع المرأة لن يتغير إلا إذا بذلت جهداً من أجل ذلك، ولن يتغير إلا إذا أصبحت الواقع غير المتوقع، والماضي الذي لم ينجز، والحاضر الذي لم تعبث به يد، والخارج الذي يتخفى في اللغة، وفي الفن وفي الموسيقى وفي الألوان، ولن يتغير وضع المرأة إلا إذا أصبحت نصاً تتهامس فيه كل الأجناس، ونصاً تتنافس عليه كل الأجناس، ونصاً تزكيه كل الأجناس، ونصاً ينقذنا من النار، بما يحمله من قيم أخلاقية، ونفسية، واجتماعية، وثقافية.

صنع اللغة

وهل يمكن أن تشارك المرأة الرجل في صنع اللغة؟ أو تصنع لغة لها؟ ترى

1- المرأة وطن ـ ص 284.

2- نفسه ص 285.

سعاد الصباح أن المرأة يمكنها ذلك، حين تستعيد ما لديها من عقل، وما لديها من وليمة معنى، وليس وليمة أكل، وأكثر ما يمكنها من ذلك، أن تعي جوهر قيم الإنسان، وأن تحرص على تأصيل هذه القيم في سردياتها الحياتية، فعلاً وانفعالاً، عبر أزمنة وجودها المختلفة، وبهذا يمكنها أن تُشبِع جوع مجموعتها الاجتماعية، سواء أسرتها أو إخوتها أو جيرانها أو تلاميذها، إلى معنى جديد، تتجاوز به عادات اللغة العنصرية، وتؤسس به لغة لها، وتتجاوز به عاداتها المستهجنة، وعليها في كل الأحوال، أن تكون مشغولة بمعنى ما يقع، وليس كيفية ما يقع حولها، من حوادث وأحداث.

تقول سعاد الصباح: «أحد أهم أسباب الخراب الشامل في مجتمعاتنا المسكينة، غياب قطعة المحرك الذي يصنع طاقة الأمة وإمكانياتها، تلك القطعة هي عقل المرأة»[1]، وتقول: «إن عقل المرأة يعيش في المنفى، فهو كأي لاجئ سياسي ممنوع من ممارسة اختياراته، قولاً وتصرفاً وتعبيراً»[2]، وهنا تلتمس سعاد الصباح الأعذار للمرأة في استلابها عقلياً، وكيف أنها مجبرة على أن تعيش في مجتمع، ينفي وجودها العقلي، وتقول: «وعندما دعوت إلى تحرير فكر المرأة، كنت أدعو دائماً إلى تحرر الرجل من عقده التاريخية، ومن فكره الاستبدادي»[3]، وتقول: «لا يمكن القول إن عمل المرأة نوع من الرفاهية، بقدر ما هو حاجة يمليها الواجب الوطني»[4].

تعني أن المرأة -وربما هي تتحدث هنا بلسانها عن نفسها- صاحبة

1- المرأة وطن ـ ص 286.
2- نفسه ص 291.
3- نفسه ص 286.
4- نفسه ص 287.

رسالة فكرية، لم تقف عند ذاتها، ولا ترى فيها ترفيهاً لها، في أوقات فراغها، بل هي متفاعلة مع وسطها، ومجتمعها، وتربطها به علاقات متميزة ومتواصلة، تنطلق من امرأة متفتحة الذهن، واسعة الأفق، لا تصادر تجارب الآخرين، بل ربما يكون الرجل في المقابل، هو الذي يتسم بنقيض تلك الصفات، تقول: «الرجل يكتب في أوقات فراغه، والمرأة تكتب في أيام خصوبتها، واحتشادها بالبروق، والفاكهة الاستوائية»[1]، وهذا القول ليس من باب الانتقاد للرجل، وتسطيح فكره ووعيه، بقدر ما هو دفاع عن المرأة، تقول: «ليست لدي عقد ضد الرجل، لكنني أرفض أن يكون فم المرأة مختوماً بالشمع الأحمر، وأن تسجن في زنزانة الماضي، المرأة هي الملح الذي يحفظ العالم، المعركة ضد المرأة هي معركة ضد الحياة، إذا كان الرجل يباهي بأنه الرأس في هرم النظام الاجتماعي، فليتذكر أن لكل هرم قاعدة يرتفع عليها، وأن الرأس كي يكون رأساً، لابد له من أقدام ترفعه»[2].

قضايا ما بعد الحداثة

ولعلنا في هذا المقام لا نعيد ما ذكرناه بشأن هذه القضية، قضية الرجل والمرأة في المنجز الإبداعي لسعاد الصباح، وإنما نعيد تأكيد سعاد الصباح أنه لا استقامة لمجتمع، تظل فيه هذه القضية هامشية، وهي قضية تلح كل حين، ولا يمكن أن نتجاوزها، فهي نبض المجتمع، ولا يمكن أن يتجاوز الإنسان نبضه، مهما انشغل بأعضاء أخرى في جسده المعتل، إنها قضية تشبه إلى حد كبير، العلاقة المتوازنة بين الأخلاق العامة وعلم الجمال، وهو

1- نفسه ص 288.

2- نفسه ص 289.

المفهوم الذي أولته مؤلفات الفلاسفة، فيما بعد الحداثة، أهمية كبيرة، وجميعها مؤلفات تسعى لبحث تلك العلاقة، ما بين السامي والعبثي في الأخلاق، وما يربطها في هذا الإطار بعلم الجمال.

والعلاقة المتوازنة بين الأخلاق العامة وعلم الجمال، تعرّف الشيء الجميل بأنه رمز الخير الأخلاقي، والمسافة بين الجميل والخير توضح لنا أن قاعدة السلامة النفسية في المجتمع، قادرة على تحقيق الاستقرار، فهي الحرية والكونية والنزاهة[1]، والجميل في نظر العلماء أكثر مباشرة ووضوحاً، من الحكم الأخلاقي، والمعنى أن الجمال في العالم الحسي، بمثابة المجتمع الذي تكوّن بالسليقة، والذي يخضع لأحكام بلا قواعد، تفترض الخير المباشر، بلا تأويل، لذلك فالشعور في حالة الجميل، يكون مشتركاً بين الجميع وبشكل مسبق، فالمجتمع يتعامل مع الجمال كذائقة، أما في حالة الالتزام الأخلاقي، كما يتجلى في التسامي الأخلاقي، فنحن جميعاً نحتاج لمجتمع يتوسطه مفهوم ما للعقل من فكرة الحرية، وهذا لم يتحقق بعد، لأن المجتمع لم يتحقق كإجماع عقلاني.

الخيال والعلم والمعرفة

ومن أبرز ما يقال بشأن هذه القضية، هو أن الحدث المنطقي لا ينجو من الفهم الرمزي، إلا عندما يركز على الحدس الحسي، وحسب فلسفة كانط فإن المعنى المجرد، من دون حدس يظل فارغاً[2]، وهذا

1- كريستوفر نوريس ـ نظرية لا نقدية ما بعد الحداثة ـ المثقفون وحرب الخليج ـ ترجمة د. عابد عباس ـ دار الكنوز الأدبية ـ الطبعة الأولى ـ ص 114.

2- كريستوفر وانت / أندرجي كليموفسكي ـ أقدم لك كانط ـ ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام ـ المجلس

يعني ببساطة أن فهم ما يحدث حولنا في الطبيعة، ليس ممكناً إلا عن طريق الأنا، ولكل حدث ألف معنى، وألف احتمال، وهذا يعني بدوره، أن تحليل الأحداث المعيشة حولنا، هو الأساس لكل معرفة، والمعرفة لا تجد صلاحيتها داخل ذاتها، ولا داخل نظرية تحدد مواصفاتها، بل تجدها في الذات البشرية نفسها، وتبرز سعاد الصباح هذا المعنى الفلسفي في الحياة، فتقول: «للمعرفة الدور الأكبر في بناء المجتمع، لأن المجتمع معرفة، والمعرفة قوة»[1].

وتشيع مقولة إن انتشار الخيال العلمي في ثقافة مجتمع ما، يمثل دلالة غير مباشرة عن مدى اهتمام هذا المجتمع بالمستقبل، ولعلنا نلاحظ مصداقية هذا الانطباع، حين نلاحظ أن أبرز اسمين من أسماء رواد الخيال العلمي في العالم، هما هربرت جورج ويلز وهو بريطاني مؤلف العمل الشهير «آلة الزمن» بين أعمال أخرى كثيرة، وجول فيرن وهو فرنسي مؤلف «عشرون ألف فرسخ تحت الماء» بين أعمال أخرى أيضاً، وكلاهما ألهم أجيالاً عدة من كتّاب الخيال العلمي في العالم، كما مثّل كل منهما تياراً من تيارات كتابة الخيال العلمي، أو الكتابة المستقبلية[2].

إذن السؤال الآن: كيف يتحقق مجتمع المعرفة؟ ترى سعاد الصباح أن هذا التحقق يرتبط بعدة عناصر، يأتي في مقدمتها الإنسان، فكل إنسان عربي مثقف -كما تقول- يجب أن يكون له صوت في معركة التغيير، والظمأ

الأعلى للثقافة ـ القاهرة ـ 2002م ـ ص110.

1- في البدء كانت الكلمة ـ ص11.

2- إبراهيم فرغلي ـ لا مستقبل من دون خيال وعلم ـ الخيال العلمي الصارم أصبح ضرورة وليس ترفاً ـ مجلة العلم والحياة ـ أكتوبر 2017م ـ ص 116.

الثقافي لا علاقة له بالتصنيفات الاجتماعية، إنه حاجة روحية تتفجر في داخلنا، بصرف النظر عن موقعنا وهويتنا، والصراع من أجل رفع المستوى الثقافي، لا يرتبط بالحاجة المادية، أو بمن نكون[1]، والثقافة تعني السؤال، والإنسان الذي لا يسأل يأخذ شكل الحجر، ولا أحد استطاع أن يصل إلى جوهر الحقيقة، حسب الإنسان أن يكون إنساناً قادراً على السؤال، لأنه لا يموت إلا عندما يتوقف عن طرح الأسئلة[2].

هذا يعني أن الإنسان حين يبدو كائناً ثقافياً رمزياً، فهو يستخدم اللغة -كما يرى ريكور- ويقرؤها للوعي بالذات، وللإرهاص للمستقبل، ويتفق مع ريكور في ذلك، علماء اللغة والاجتماع والنفس والأنثربولوجيا والإدراك المعاصرون، من أمثال مورين وغاردنر وهانت وتشومسكي وغيرهم، واللافت أن رأي سعاد الصباح يتفق مع توجهاتهم الفكرية، فهم جميعاً يتفقون على أن الكائن الإنساني هو كائن ثقافي بالطبع، أي أنه الكائن الوحيد الذي يتميز عن غيره من الكائنات بنسق معقد، يسمونه عالم الرموز، وتقول سعاد الصباح: «كل إنسان عربي مثقف، يجب أن يوظف ثقافته لطرد الخرافات التي تعشش في عقلنا الباطن كالعنكبوت»[3]، وعلى هذا المستوى يتفوق الإنسان كلياً، على غيره من المخلوقات، من عوالم الحيوانات والدواب والحشرات من جهة، وعوالم ما يعرف اليوم بالذكاء الاصطناعي، أمثال الحاسب الآلي والكمبيوتر، من جهة أخرى[4].

1- في البدء كانت الكلمة ـ ص 15.

2- نفسه ص 22-20.

3- نفسه ص13.

4- فيكتور فركس ـ الإنسان التقني ـ ترجمة: إميل خليل بيدس ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ص157.

ومـن بـين مكونـات هذا النسـق الرمـزي عند الإنسـان، والـذي لا يوجد عند الكائنـات الأخـرى، اللغـة المكتوبـة، والمنطوقـة، والقيـم والمعايـير الثقافيـة، والمقـدرة على اسـتعمال أدوات ورموز العلـم والمعرفة، وهي مكونات جماعية وليسـت فرديـة، تقول سـعاد الصبـاح: «الثقافة يجب أن توضـع تحت تصرف الآخريـن، وإلا كانـت ثقافـة فردية وأنانيـة»[1]، وتقول: «أجهل تجـارة العقائد والأيديولوجيـات، وتجـارة المبـادئ والشـعارات، بحثـت عـن مهمـة نظيفـة، فلـم أجـد أطهـر من إشـعال شـموع الثقافـة في ظـلام الجاهليـة العربيـة»[2]، فالإنسـان هـو الكائـن الوحيـد الـذي يتمتـع بأنسـاق رفيعـة المسـتوى، في المجـالات الرمزيـة، أمثـال الديـن والأسـاطير والسـحر، وهـو كذلـك فريـد في تميـزه بالمقـدرة عـلى التفكير وتطوير عـالم الأفكار، إلى مسـتويات معقدة جداً، ومتشـابكة التركيب، تقول سـعاد الصباح: «وبالثقافة وحدها يمكن أن نسـترد مفاتيـح الـكلام»[3]، ومـن هـذه الأمثلـة، يصبـح من الشرعية تسـمية الإنسـان بالكائـن الثقـافي، أو الكائـن الرمـزي[4]، بـشرط أن لا يخـرج الرمـز عـن معناه، كوسـيط شـفاف، ينـم عـما وراءه مـن عـالم المعنـى، أو كحقيقـة، تهتـم بإزالة المعنـى الزائـف والسـطحي، والكشـف عـما يخفـي وراءه من معنـى حقيقي.

إذن لا توجـد معرفـة دون ثقافـة، ولا توجـد ثقافـة دون قـراءة، ففعـل القـراءة يعـد اسـتعادة متجـددة للنصـوص، والرمـوز والحكايـات التـي هـي مجمـل المعرفـة، والتي هـي بدورها فعل أسـاسي، لفهم الذات بشـكل مغاير،

1- في البدء كانت الكلمة ـ ص 15.

2- ضوء نجمة بعيدة ـ ص295.

3- في البدء كانت الكلمة ـ ص 33.

4- د.محمـد الـزوادي ـ في الـدلالات الميتافيزيقيـة للرمـوز للثقافيـة ـ مجلة عالم الفكـر ـ المجلد 25 ـ العدد 3 ـ مـارس 1997م ـ الكويت ـ ص11.

ويمر فهم الذات عبر فهم الرموز الثقافية، التي تتوثق الذات داخلها وتتكون[1]، فالذات لا تعي ذاتها على نحو واضح ومباشر، إلا إذا مارست هذه الذات وجودها، ولا تفهم هذا الوجود، إلا من خلال فضاء رمزي دلالي من المعرفة، وتقول سعاد الصباح عن هؤلاء الذين يجهلون ذواتهم، ارتباطاً بغياب فعل القراءة، والمعرفة والثقافة في حياتهم: «هناك أشخاص يعشقون بعضهم من الوريد إلى الوريد، وبعد دقيقتين يذبحون بعضهم من الوريد إلى الوريد، ولا تعرف لماذا؟»[2].

ومثلما تغيب القراءة والمعرفة والثقافة في عالمنا العربي، تغيب الكتابة للمستقبل، فليست هناك كتابات تركز على التفاصيل العلمية أو التقنية، أو على الدقة العلمية، أو على كليهما، كما ليس هناك تصنيف إبداعي يستعمل للإشارة إلى قصص الخيال العلمي، التي تنتمي إلى التركيز العلمي، وذلك بسبب عدم معرفة الكتّاب بالعلوم معرفة جيدة، تمكنهم من الإبداع فيه وعنه بالكتابة، وما هو موجود الآن في عالمنا العربي، مجرد كتابات أو نصوص، تنثر جانباً من العلوم المبسطة داخلها، وهي كتابات غير قادرة على هذا النحو، على فتح آفاق التفكير العلمي، أو تغذية الخيال، مشفوعاً بالتقنيات العلمية الحديثة أو المستحدثة.

تكنولوجيا المستقبل

وتعول سعاد الصباح في هذا التحدي المستقبلي، على بناء الطفل العربي

1- بول ريكور ـ النص والتأويل في كتابه (Du texte a l action) ترجمة: منصف عبد الحق ـ مجلة العرب والفكر العالمي ـ العدد 3 ـ صيف 1988م ـ مركز الإنماء القومي ـ بيروت ـ ص 47.

2- نفسه ص296.

-منذ البداية- بناء يؤهله للمستقبل، لأن الثابت أن أجيالاً جديدة اليوم، تتمتع بحب العلوم والتكنولوجيا، وأخرى ربما تجد من خلال الخيال، منافذ تفتح لها آفاق الولع بالفيزياء، أو الكيمياء، أو الأحياء، أو تقنيات الاتصال أو غيرها، حيث ترى أنه لابد أن نخترع فجراً جديداً في هذه العتمة، ولابد أن نزرع ورداً في الأرض المالحة، ونكتب عن الحلم والحرية، وإن كنا في أعماق البئر[1].

وتتكئ سعاد الصباح على الكثير من المعاني، التي ترتبط بالطفل وصناعة الأجيال، فتقول: «فإما أن نربح الجائزة الكبرى، وننقذ آخر ما تبقى من أشجار الوطن الخضراء، وإما أن نفشل، فتحترق الغابة بكل ما فيها، من شجر وعصافير، ونحترق معها»[2]، ولنكن صادقين مع أنفسنا في أن إعداد الطفل للمستقبل، الإعداد الحقيقي بمفاهيم علمية، ليس بالأمر السهل أو الهين، ويحتاج لاستعداد ومعرفة واطلاع على العلوم والقوانين العلمية، لكن لا بأس في نظر سعاد الصباح، من بذل الجهد، من أجل نتائج نبيلة وطيبة ومبدعة وإيجابية، فتقول: «الطفل العربي هو الاستثمار الرابح الأكيد، بقية استثماراتنا قابلة للربح والخسارة، وازرع طفلاً صحيح الجسد والروح، وخذ وطناً صحيح الجسد والروح[3]، والشعوب التي لا تهتم بصناعة أطفالها لا مستقبل لها[4]، والطفولة هي هذه الأرض الطيبة، التي يمكننا أن نزرع فيها كل الأحلام المستحيلة، والأطفال هم الخيول الرابحة في

1- على أجنحة الحرية ـ ص 123.
2- حوار الذات ـ ص47.
3- الطفولة بساط أخضر ـ ص 73.
4- نفسه ص75.

سباق المسافات الطويلة»[1].

وتربط سعاد الصباح وهي تنظر بعيون المستقبل، بين الحرية الحقيقية والثورة التكنولوجية، التي يمكنها إزالة كل الأنظمة المستبدة بديلاً عن الثورات السياسية، أو تلك التي أطلق عليها ثورات الربيع العربي، وبخاصة أن تلك الثورات لم تحرر الوطن العربي من قيوده، ولم تمكن الفرد من رغد العيش، بعد أن ظل ينادي «عيش حرية عدالة اجتماعية»، فتقول: «إن الثورة التكنولوجية يمكن اعتبارها الضمان المقبل على انتقال الثورة السياسية العارمة، التي ستدمر في طريقها الأنظمة والأيديولوجيات اللاديمقراطية، وتؤكد أنه لا بديل عن الحرية الحقيقية»[2]، وتقول: «إن حتمية التحول نحو الديمقراطية في الوطن العربي أمر مفروغ منه، فمن نتائج الثورتين التكنولوجية والسياسية اللتين يعاصرهما عالمنا، يصبح من المستحيل تحويط نتائجهما، بحيث تقتصر على شعب بذاته، أو منطقة بذاتها»[3].

مدارس المتفوقين

وكأن سعاد الصباح تريد أن تمنح قطرات من أصابع مبتلة بماء الندى، لأشجار بحلوق جافة وأجواف خاوية، وأن لا تعفي الوطن العربي من صراع مصيري على امتلاك المعرفة، نتيجته الطبيعية أن عقل الإنسان سيصدأ لقلة الاستعمال، وعقل الكمبيوتر سيزدهر لكثرة الممارسة، ومن هنا لابد

1- نفسه ص 78.
2- على أجنحة الحرية ـ ص 118.
3- نفسه ص 117.

مـن رعايـة الأطفـال المتفوقـين، علميـاً وأدبيـاً وإبداعيـاً، ولابـد أن نحذو حذو تلـك الـدول التـي نـشرت لديهـا مـا يسـمى بمـدارس المتفوقين، وهـي مدارس تؤهـل الأطفـال للتعامل مع مسـتحدثات الحاضر والمسـتقبل في القرن الواحد والعشريـن ومـا بعده.

وتهـدف هـذه المدارس إلى رعاية المتفوقين في العلوم والرياضيات والهندسـة والتكنولوجيـا، جنبـاً إلى جنـب الاهتـمام بقدراتهم الإبداعيـة ومواهبهم، ومن وجهـة نظـر سـعاد الصبـاح أن الثـورة الصناعيـة في القـرن الثامـن عـشر في أوروبـا لم تـأكل الشـعر ولا الشـعراء، بدليـل أنـه بعـد الثـورة الصناعيـة، جـاء بودلـير وفاليري وراجـو وأراغـون وت.س.إليـوت وغيرهـم، ومـن ثـم فإنهـا -بالمثـل- لا تظـن أن ثـورة التكنولوجيـا بـكل ما أوتيـت من قوة، تسـتطيع أن تكتـب شـعراً عـلى طريقـة مجنون ليـلى[1]، ومن هنـا لابد من تطبيـق مناهج وطـرق تدريـس جديـدة، تعتمـد -كـما يـرى خـبراء التربيـة المسـتقبلية- عـلى المشروعـات الاسـتقصائية، والمدخـل التكامـلي في التدريس، وتحقيـق التكامل بـين منهـج العلـوم والرياضيـات والهندسـة والتكنولوجيـا، وبـين منهـج تنمية المجـالات الإبداعيـة، دون الفصـل بـين هـذا وذاك، مـن تلك العلـوم المختلفة، بمـا يكشـف عـن مـدى الارتبـاط بـين هـذه المجـالات، لإعـداد طالـب لديـه القـدرة عـلى التصميـم والإبـداع والتفكير النقـدي، تقول سـعاد الصباح: «بعد أن كان العقـل العـربي في المـاضي عقـلاً جدليـاً ناقـداً وخلاقـاً، أصبـح في أيامنـا هـذه -للأسـف- عقـلاً مذعناً، وتابعـاً، ومقلـداً»[2].

1- قدري أن أكتب ـ ص 222.

2- في البدء كانت الكلمة ـ ص 29.

كـما أن هنـاك ضرورة لإكسـاب الجيـل الجديـد مهـارات التعلـم التعـاوني، بالإضافـة إلى إعداد قاعدة علمية متميـزة، ومؤهلة للتعليم الجامعي والبحث العلمـي، حتـى يخـرج مـن بـين طـلاب تلـك المـدارس العلـماء والمفكـرون والباحثـون، لينضمـوا إلى صفـوف العلـماء الكبار الذيـن أدوا خدمات حقيقية لمجتمعاتهـم، وأحدثـوا فارقاً في تاريـخ أوطانهم، تقول سـعاد الصباح: «مؤمنة باللـه، ثـم بـأن في الأمـة العربيـة طاقات سـوف تعبر جـسر الخنـوع، إلى ذروة الكرامـة، مخلفـة وراءهـا ذكريات المـرارة»[1].

ولابـد عـلى القيادات السياسـية أن تؤمن بتطوير التعليـم، وتصدر تكليفاتها للمسـؤولين، بتوفـير كل الإمكانيـات لتنفيذ هـذا التطوير، مثل شـبكات الواي فـاي والفايـبر ودي إس إل والشـبكات الداخليـة للاتصـال بشـبكة الإنترنـت بالفصـول التعليميـة، وأماكـن تمركـز الشـباب وتجمعاتهـم المختلفـة، تقـول سـعاد الصبـاح: «التاريـخ ملـك من صنعـوه، لا ملك مـن يجلسـون في المقاعد الخلفيـة، ويتفرجـون عـلى حركـة التاريخ بالنظـارات المكبرة»[2]، كـما لابد من تنظيـم وعقـد حلقات نقاشـية ثريـة وناجحة، حول محـاور النظـام التعليمي الجديـد، والخـروج بتوصيات تنبثـق عنها برامج عمل حقيقيـة، قابلة للتنفيذ.

وفي زمـن التسـلح بالأرقـام والمعرفـة، نحتـاج إلى مزيـد من العقـل والبصيرة الموضوعيـة، في عـالم عـربي هلامـي، سرق منـا السـلام وجعلنـا جرحـاً يمـشي عـلى أرض الوجـع[3]، ولا مفـر مـن السـعي إلى تـدارس وتبـادل الخـبرات والتجـارب والنـماذج العالمية، في مجـال تعليم العلوم والتكنولوجيا والهندسـة

1- على مشارف الوطن ـ ص 242.
2- نفسه ص 242.
3- نفسه ص 240.

والرياضيات، وكذلك تدارس آليات واستراتيجيات ومتطلبات نشر وتعميم نموذج المدارس الحديثة، وإداراته في الوطن العربي، وتدارس مداخل وأساليب برامج إعداد معلمي هذا النموذج، والوقوف على أحدث وأهم استراتيجيات التعليم والتعلم في المجالات المختلفة، وتطبيقاتها الإبداعية في الصفوف الدراسية المختلفة.

ويجب أن يكتسب الجيل الجديد المهارات الحياتية المختلفة، مثل التفكير النقدي، والتفكير المنظومي، ومهارات المعرفة الخاصة بالمعلومات والوسائط، ومهارات التعامل والتعاون مع الآخرين، وتحديد المشكلات وصياغتها وحلها، والتوجيه الذاتي، بالإضافة إلى المسؤولية الاجتماعية.

وعلينا أن نضع في أذهاننا أنه من التحولات اللازمة للتطوير، التحول من الحفظ والتكرار إلى الإبداع والابتكار، والتحول من القفز على النتائج، إلى معاناة الحصول على المعلومة، لتيسير الحصول على المعلومة، والتحول من التمركز حول المعلم إلى التمركز حول المتعلم، ومن ثقافة الاستهلاك إلى ثقافة الإنتاج، ومن المناهج المنفصلة إلى المناهج البينية والمتكاملة، ومن ثقافة التسليم إلى ثقافة التقويم، ومن ثقافة العنف والتعالي ورفض الآخر، إلى ثقافة الحوار وقبول الآخر، والتحول من الاعتماد على الآخر إلى الاعتماد على الذات.

ويلزم لتحقيق هذه الأهداف، إعداد مناهج دراسية متخصصة، ترتبط بشكل مباشر بالتحديات الكبرى التي تواجه المجتمع العربي، كالتكدس السكاني والتلوث ومصادر الطاقة البديلة، واستصلاح الصحراء وزيادة القاعدة الصناعية وغيرها، وبهدف تنمية الولاء والانتماء للوطن، وكذلك

وضع معايير للمناهج الإنسانية، بحيث يعتمد نظام الدراسة على أساليب البحث والتقصي، والعمل في مجموعات، سواء في مناهج العلوم الإنسانية أو مناهج العلوم الطبيعية، وتعتمد الدراسة على النظام التكاملي بين المواد، وعلى البحث والمناظرات وعمل المشروعات، وتوفير الإقامة والإعاشة الكاملة للطلاب[1].

كما لابد من الاهتمام بالتعلم الإلكتروني وتطبيقاته المختلفة، ومنظومة التعليم عن بعد، إلى غير ذلك من الأنظمة التعليمية المساندة لمنظومة التعليم في المؤسسات التعليمية، بشكل فعال في تكوين بيئة تعليمية تفاعلية، محفزة للتعلم والإبداع وتنمية المهارات والخبرات، بما يحقق إنتاج المعرفة، وزيادة التحصيل، وتطوير الإنتاجية في جميع الجوانب، ويضمن مخرجات عالية الجودة، للوصول إلى معالم التعليم المستقبلية، حسب تطلعات النظام التعليمي الذي يسعى إلى الكفاءة والفاعلية.

مرحلة ما بعد النفط

ومثلما كان هيغل أول من وضع يده على الطابع الأساسي للحداثة، كانت سعاد الصباح أول ما وضعت يدها على هذا القضية المستقبلية، وكما يتمثل طابع الحداثة في وعيها بالزمن ووعيها بذاتها، تمثل وعي سعاد الصباح بذلك البوار الذي يمكن أن يعم الأرجاء بعد زوال النفط، وكان على الجميع أن يصبوا اهتمامهم بهذه القضية التي لا تخص الكويت وحدها، وإنما تخص كافة الدول التي تفجر النفط على أراضيها، وأحدث بتفجره

1- د.عبده الراجحي ـ التعايش المشترك نحو مستقبل أفضل ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ـ 2012م.

نقلة اقتصادية على صعيد الحياة بأكملها، وهي بهذا تقر بوجود أزمة وتدعو في الوقت نفسه إلى استشراف مستقبل أفضل، تقول: «كم كنت أتمنى أن يساعدنا النفط على تأسيس حضارة، تقوم على العقل والتخطيط العلمي للمستقبل، ولكن هذا لم يحدث، فقد جاء النفط وأوشك على الذهاب، دون أن يلامس سوى قشرتنا الخارجية، لقد لعبنا بالنفط، ولم نوظفه لخدمة مؤسسات العقل، وإرساء دعائم المستقبل»[1].

وفي نظرها، يمثل ذلك شرخاً من الشروخ الجزئية التي تهيمن على السياق العام، وعارضاً لا يتعلق بالمنتج الجانبي أو الثانوي للمناخ السياسي والاجتماعي الاستهلاكي فحسب، وإنما يتعلق بالعوارض الكلية التي تسوق المجتمع للإحباط، تقول سعاد الصباح: «أرتدي الأسود وأخرج وحدي والكويت، في عباءة صراخها المؤجل، تنتظر الولادة»[2]، وهذا يماثل ما يحدث داخل بيوتنا حين يشعر أحدنا بالإحباط، أو انسداد الأفق، أو اليأس من تحقيق رغباته وطموحاته وآماله، بسبب تعنت الوالدين أو انشغالهما بأمور أخرى، غير تحقيق الاستقرار الأسري، فيلجأ إلى إفساد جهاز في البيت أو ضرب أخته الصغرى، أو شتم أخيه الأكبر، كنوع من الاعتراض أو لفت الانتباه، مما قد يبدو أزمة في العيش المشترك داخل الأسرة.

ولا تغمض عين الألم داخل سعاد الصباح، وتظل تعبئ شراعها بنسيم الأحزان على وطن يزحف في الرمال، متعثر الخطوات، لا يأبه بجيل المستقبل ولا جيل الحاضر، وتكرر سعاد الصباح صراخها آلاف المرات، علها

1- نفسه ص 229.

2- نفسه ص 228

تصيب أذناً صاغية، قادرة على اصطياد المعنى، وقادرة على أن تراقب انفلات العبرات، وعلها تشعل ما تيسر لها من أقمار، حين يجن الليل، أو تلقي بالكواكب للمدى، تقول: «وجه الوطن كوجه الإنسان، تغيره ظروف الزمان، وتقلبات الأيام، وتترك عليه الأحزان بصماتها العميقة»[1].

وكمن يتفتق حجابها فتبكي، أو تنفلت ألوان الطيف من بين أصابعها فتبكي، بكت سعاد الصباح كلما تذكرت ما آل إليه الوطن، وهي لا تنسى، إذ لا يغيب حال الوطن عن بال المخلصين المنتمين، تقول: «لنمنع القطار العربي من السقوط في الهاوية، لابد أن نفتح النوافذ للركاب الذين لا يعرفون أين يتجهون، وفي أي محطة ينزلون»[2]، وتقول: «بينما كنا نستعد لركوب طائرة القرن الجديد، أرغمونا على ركوب القطار المتجه إلى القرون الوسطى»[3]، وتقول: «كلما أبصرت هذا الوطن الممتد بين القهر والقهر، بكيت، كلما حدقت في خارطة الأمس وفي خارطة اليوم، بكيت»[4].

وبنظرة فاحصة للتاريخ، تنبه سعاد الصباح إلى أنهم صاروا بالتاريخ بعيداً عن مساره الطبيعي، وفرغوا مضمونه من المستقبل، تقول: «كان بإمكاننا أن نقوم بثورة على صعيد التصنيع، والتحديث، وتشجيع البحث العلمي، واستيراد الخبرات العالمية، بدلاً من إغراق السوق بالمنتجات الاستهلاكية، وكان بإمكاننا أن نؤسس للأجيال القادمة كياناً عقلانياً علمياً، يواجهون به

1- نفسه ص 239.
2- نفسه ص 244.
3- نفسه ص 248.
4- نفسه ص254.

عـالم الغـد، بـدلاً مـن أن نـترك لهـم أرصـدة مصرفيـة تأكلهـا النـار»[1]، وتقول: «كان انبثـاق النفـط في أرضنا فرصة ذهبية لدخولنا عصر الكشـوفات العلمية، لكننـا تفرجنـا عليه، كـما نتفرج عـلى أي مسلسـل تليفزيوني»[2].

وكيـف بإمكاننـا أن نعيـد التاريـخ إلى نصابـه وإلى صوابـه وإلى مجـراه الصحيـح؟ وهـل التاريخ شيء غير ملايين الملايين مـن الأحداث التي لا تتوقف، بـل تلتـف لتبـدأ مـن جديـد؟[3]، أليـس التاريـخ أحداثـاً تتبايـن في مضامينهـا، وتتشـابك في قواعـد صياغتهـا؟ أليـس هناك كارثـة أكبر من أن يتحـول صانعو التاريـخ إلى مجـرد جماهـير تشـاهد أحداثه، لا أبطال يصنعـون تلك الأحداث، وهـم يقومـون بأعمالهم السـلطوية، ولا يهتمون إلا ببنـاء حوائطهم المحصنة، وتحقيـق أهدافهـم المتعالية؟

كان بإمـكان أصحـاب القـرار والمسـؤولية في نظر سـعاد الصبـاح، أن يجعلوا مـن عصر النفـط عصراً ذهبياً للاكتشـافات العلمية، والابتـكارات التكنولوجية التـي تواكـب مسـتحدثات العصر، كان بإمكانهـم أن يفتحوا الأبواب لتنشـيط عقـول أجيـال الغـد، ليمتلكـوا الكنـز الحقيقـي، وهـو العلـم، بـدلاً مـن الكنز الوهمـي وهـو النفـط، وكان بإمكانهـم كـما يصنـع القـادة في كل الـدول المتقدمـة، أن يقومـوا بمسـاعدة سـواعد الشـباب وعقولهـم الذكيـة بثورة على صعيـد التصنيـع، والتحديـث، وتشـجيع البحـث العلمـي، واسـتيراد الخـبرات العالميـة، بـدلاً مـن إغـراق السـوق بالمنتجات الاسـتهلاكية.

1- نفسه ص 230.

2- نفسه ص 231.

3- د.يحيـى الجبـوري ـ الحنـين والغربـة في الشـعر العـربي (الحنـين إلى الأوطـان) ـ دار مجـد لاوي ـ عمان ـ الأردن ـ ط1 ـ 2008م.

وتظل سعاد الصباح متمسكة بالأمل، يبرق في عينيها، فلا يكون تراباً يتمخض أو يرتعد، ويمسك اشتعاله قبل أن ينصهر، فيصبح فيروزاً ويحلق، تقول: «سوف نعمر الكويت بحجارة العقل والعلم والحداثة، ولن ننسى طبعاً أن نكون مؤمنين أقوياء»[1].

وبالإيمان والعلم يمكن للعرب جميعاً، وليس أبناء الكويت وحدها، أن يصنعوا المستحيل، أو على الأقل يشاركوا في صنع المستقبل، وهناك صناعات ومشروعات مستقبلية حديثة كثيرة، باتت تدخل في دائرة اهتمام معظم الشعوب وقياداتها، تجسد الثورة الحقيقية في مجال التصنيع والتحديث، تقوم في الأساس على البحث العلمي، واستيراد الخبرات العالمية، ومنها ما يطلق عليه «منظومة استرجاع وتدوير المخلفات الإلكترونية»، وتمثل أكثر المشروعات العلمية الحديثة في إطار تحول المجتمع العالمي إلى مجتمع رقمي، يستخدم تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، في مكتمل نواحي الحياة.

صناعات المجتمع الرقمي

والتحول إلى المجتمع الرقمي، يعني بشكل مباشر استهلاك أكثر للأجهزة الإلكترونية وزيادة المخلفات الإلكترونية لها، ويلزم هذا النوع من المشروعات الجهات الحكومية لإدارة كل أعمالها بالأرقام، وإعداد منهج لبناء القدرات الخاصة، وهناك من الدول المتقدمة من بدأ المرحلة الثانية من مشروع إدارة المخلفات الإلكترونية والاستفادة منها ومستخرجاتها من المعادن، وبخاصة الذهب والذي يفوق المستخرج من الذهب الخام[2]،

1- نفسه ص 231.

2- محمد أحمد علي ـ الطاقة المتجددة هدف عالمي ـ مجلة الثقافة العلمية (العلم والحياة) ـ الهيئة

ويعطي طن المخلفات من الأجهزة كيلو و700 جرام ذهباً، أكثر من الخام، وفي تلك البلدان هناك 400 ألف طن تستخرج سنوياً، تحقق مليون دولار في السنة على الأقل.

وتعتمد تلك المشروعات على دراسات علمية، خاصة بنوعيات وكميات المخلفات الإلكترونية في القطاعين الرسمي وغير الرسمي، واحتياجات القطاع الرسمي والخاصة بالجهات الحاضنة لمشروعات إعادة التدوير، مع تطبيق نظم للشركات العاملة في هذا المجال، على أن تكون الجهة المنوطة باعتماد هذه الشركات هي وزارة البيئة، إلى جانب اعتماد مفتشين، وعقد ورش عمل للتفكيك، بأحد مصانع إعادة التدوير، وإعداد نموذج عمل من قبل خبراء المشروع، يتم تطبيقه لإدارة صناعة تدوير المخلفات الإلكترونية، وتشكيل لجنة وطنية لإدارة منظومة الاسترجاع للمخلفات الإلكترونية، وتغيير المناخ الملائم لدعم تلك الصناعات، باعتبارها صناعات وطنية، وأيضاً لجذب الاستثمارات الأجنبية والمحلية، للنهوض بمفاهيم الاستفادة من إدارة هذه النوعية من المخلفات، وإعادة تدوير آمنة واسترجاع خامات يمكن الاستفادة منها في عمليات صناعية أخرى.

الصناعات المستحدثة

من هذه العمليات الصناعية استخدام الخامات النباتية، التي تعتمد في الأساس على الزراعة، مثل القطن والكتان والجوت والسيزال والبامبو، واستخدام الخامات البروتينية التي تعتمد أساساً على تربية الحيوان، مثل

المصرية للكتاب ـ القاهرة ـ العدد الرابع ـ الإصدار الثالث ـ أكتوبر 2017م ـ ص 35.

الصـوف ووبـر الجمـل وشـعر الماعـز وشـعر الأرنـب، واسـتخدام الخامـات البروتينيـة التـي تعتمـد على تربيـة دودة القز وعلى ورق التـوت، مثل الحرير الطبيعـي والخامـات الطبيعية المعدنية، مثل الاسبسـتوس والصوف الزجاجي، واسـتخدام الخامـات التركيبيـة الصناعيـة المبلمـرة الناتجـة مـن المركبـات الكيميائيـة، فضـلاً عـن الصناعـات البتروكيماويـات، مثـل خيـوط النايلـون والتيريلـين والتريفـيرا والترجـال والبـولي بروبلـين ولدائـن البولي فينيـل، وكذلك المسـتحدثات الصناعيـة، مـن صناعـات الغـزل والنسـيج والألياف الصناعيـة، وصناعـات قطـع الغيـار، وصناعات الأصبـاغ والمواد المسـاعدة، إلى غير ذلك[1].

وتـزداد أهميـة تلـك المشروعات والصناعـات، لأنها تدر أرباحـاً طائلة، وتعد مـورداً جيـداً مـن مـوارد الدولة، ولهذا لجـأت بعض الـدول إلى وضع تعديلات تشريعيـة، وإلى اسـتحداث قانـون جديـد لإدارتها، ووضع بعـض التعديلات في قانـون البيئـة نفسـه، إلى جانـب بعـض القوانـين الأخـرى، بالإضافـة إلى بعـض المعايـير والإجـراءات التنفيذيـة التي تؤهل لحوكمة رشـيدة، لهذه النوعية من المشروعـات والصناعـات، بالإضافـة إلى إنشـاء جهـاز مسـتقل لتنظيـم إدارتها، يعمـل بالتنسـيق مـع المعنيـين عـلى وضـع سياسـات خاصـة عـلى المسـتوى الوطنـي، والتخطيـط والتنسـيق والمراقبة، باعتباره من المشروعات المسـتقبلية المهمة[2].

ومـن هنـا انتبهـت الأنظمـة الحاكمـة في كثـير مـن البلـدان، إلى أهميـة أن تدعـم قطـاع إدارة النفايـات الصلبـة، التي تنتج مـن تلك المشروعـات، التزاماً

1- عبد الخالق ياسين ـ صفحات من تاريخ العلم الحديث ـ ص 83.

2- محمد منير مجاهد ـ استخراج الطاقة من النفايات ـ مجلة الثقافة العلمية ـ مصدر سابق ـ ص 64.

منها بحماية البيئة، وصحة وسلامة المواطنين، مع تقديم خدمات عامة ذات كفاءة عالية، وأهمية تدعيم مشروعات أخرى، تتكامل مع مشروعات وصناعات التدوير المستدامة، في قطاعات متعددة، مثل البرنامج الوطني لإدارة المخلفات الصلبة، وكذلك مشروع تحسين إدارة المخلفات الخطرة للرعاية الصحية، وهو يمثل تنمية حضارية، مثل التنمية في قطاعات المياه والصرف الصحي، كما تصب أهمية هذه المشروعات الحديثة في خلق فرص عمل، واجتذاب استثمارات جديدة، وتصبح البلدان العاملة في هذا المجال مركزاً إقليمياً وعالمياً لتلك الصناعات الحديثة.

وتريد سعاد الصباح، وهي تعبر عن رؤية خاصة مختلفة، وتسعى إلى الغوص في بحور الوطن الراكدة، أن تحدث بها التغيير المطلوب، ومن هنا ندرك أن الذات المبدعة لم تعد تنطلق في زمن الحداثة، وما بعد الحداثة، من أفكار مسبقة، ولم تعد تصدر عن معانٍ جاهزة، وإنما أصبح الشاعر يسأل ويبحث، محاولاً أن يخلق معنى جديداً لعالمه[1]، وهكذا لم تعد القصيدة الحديثة تقدم للقارئ أفكاراً ومعاني، شأن القصيدة القديمة، وإنما أصبحت تقدم له حالة، أو فضاء من الأخيلة، والصور ومن الانفعالات وتداعياتها، ولم يعد ينطلق من موقف عقلي أو فكري واضح وجاهز، وإنما أخذ ينطلق من مناخ انفعالي، نسميه تجربة أو رؤيا، وحول هذا المعنى تقول سعاد الصباح: «الشعر محاولة لتغيير العالم، وجعل الإنسان يستحق إنسانيته»[2].

1- أدونيس ـ زمن الشعر ـ دار العودة ـ بيروت ـ ط3ـ 1983م ـ ص 278.

2- قدري أن أكتب ـ ص219.

وتقول: «القصيدة تخرج من تشققات الفكر وتشققات الإنسان، في اصطدامه اليومي، مع رموز التخلف والجاهلية»[1]، وتقول: «الشعر في الأساس، هو سلاح تحريضي، من أجل الثورة والعدل والحرية والمساواة»[2]، وتقول: «الشعر هو مرآة الزمن الذي نعيشه، والشاعر هو الضمير لما يحدث في بلاده»[3]، وتقول: «الشعر هو البساط السحري الذي طرت به إلى متعة المجهول»[4]، وتقول: «الشعر ملك، لا أحد يستطيع أن يعزله، أو يدبر انقلاباً عليه»[5]، وتقول: «الشعر بوليصة التأمين ضد شيخوخة الأشياء، وضد جفاف الشجر وجفاف البشر»[6]، وتقول: «الشعر شمس هذه الدنيا وقلبها، ولن تسقط دولة الشعر أمام دولة المخابرات، أو دولة التكنولوجيا»[7].

المصالحة العربية

وفي هذه القضية، كانت عينا سعاد الصباح خرزتين تبرقان، يترقرق الماء بين ضفتيهما، كانت كصبية مختبئة خوفاً من ظلام الغرفة، والضوء هنالك فوق سطح الماء مسترسل في البكاء، كانت سعاد الصباح منثورة كحبات الريحان فوق الماء، تخفي غربتها، وما أكثر كلماتها التي عبرت بها عن الغربة داخل الوطن، وحسب وصف د.طه حسين فإن الغربة أقوى دليل،

1- نفسه ص215.
2- نفسه ص 212.
3- نفسه ص211.
4- نفسه ص 208.
5- نفسه ص207.
6- نفسه ص196.
7- نفسه ص188.

عـلى حيويـة الـذات وقوة نبضهـا[1]، إنه اغتراب مشـحون بالنفور، مـن الزمان الـذي فقـد ملامحـه[2]، سياسـياً واجتماعياً وثقافيـاً، وتقول سـعاد الصباح:

يا زماناً

ما له لون ولا طعم

ولا رائحة

رحل الأعراب عنه

وأتى المستعربون

واستقال السيف من أحلامه

واستقال الفاتحون[3]

ذلـك هـو الواقع المر، الذي خلا مـن كل شيء جميل، حتى الأحباء قد رحلوا، مـروا خفافـاً خفافـاً، أخف مـن ظلالهم تحت النجـوم، وما كنا لنسـمعهم لولا قلوبنـا التـي تحـنّ إليهـم، ولـولا أن أثـراً مـن عطرهـم يهـبّ علينـا، ونسـأل مثلـما نتلـو آيـة مـن القـرآن، تـرى مـا الـذي يغمـره نـدى الليـل حـين رحلوا، وجـع أم حلـم تحملـه الظـلال؟ وتقول سـعاد الصبـاح: «في هذا الزمـن العربي النموذجـي في بشـاعته، أصبحـت الخريطـة العربيـة كلهـا معروضـة في المـزاد العلني»[4].

وتلـك الصورة التي تجسـدها كلمات سـعاد الصباح، صـورة الوطن المعروض في المـزاد العلنـي لمـن يشـتري بأعلى سـعر، تمثل الـرداء الواقعي الذي يكسـب

1- د.طه حسين ـ خصام ونقد ـ مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ 2013م ـ ص44.

2- الذات الشاعرة وثقافة النص ـ مصدر سابق ـ ص 20.

3- وللعصافير أظافر تكتب الشعر ـ ص 16.

4- نفسه ص 240.

المشـهد المأسـاوي لونـاً قريبـاً مـن الأذهان والوجـدان، بحيث تقـدم لنا جزئية واقعيـة تعمـق المعنـى الرمـزي لجوهـر المأسـاة، والشـعور الواقعي بالمأسـاة، يمثـل بـدوره العاطفـة أو الانفعـال الـذي بـات مضمونـاً للبنـاء الفكـري لتلك الصـورة، ويمثـل الشـعر بظلالـه هنا وصـوره وأنغامه، إطار هـذه العاطفة، فلا نسـتغرب أن يكـون اللـص نبياً في الشـخصية الواحـدة، إذ كل شيء يدعو للألم، تقـول سـعاد الصبـاح: «لابـد مـن الوحـدة وإن طـال الألم»[1]، إنـه التجسـيم الفنـي لمجموعـة مـن العواطـف والمشـاعر والانفعـالات، بـل يـكاد يكـون الفكـر هـو الشـكل، والانفعـال هـو المضمـون، ويصبح العنـصران شـيئاً واحداً متفاعـلاً، مليئـاً بالـصراع، والنبـض الحـي، فالتصالـح الـذي يفـضي إلى الوحـدة هـو الفكـرة التـي تمثـل الحقيقة المطلقة، وهـو في الوقت نفسـه، وجهة النظر التـي تصـوب إليها سـعاد الصبـاح عدسـتها، وتبني عليهـا منطقهـا في التفكير، وتعيـد بهـا صنـع العـالم أو خلقه.

وفي وجهـة نظرهـا فإن هـذا العذاب والألم من ضمن العـلاج، كما أن الاتكاء إلى هـذه المعـاني التـي تـم نسـيانها تمامـاً، في الوقـت الـذي يتجـه فيـه العـالم بـأسره إلى التكتـل والوحـدة، تجسـد ذلـك الطريق المـليء بالأشـواك والأهوال، فالوحـدة والتصالـح أصبـح منطقـاً عالميـاً، وليـس منطـق المنطقـة العربيـة وحدهـا، وهنـا يصبـح المعنـى المقصـود كموقـف فني، هـو العنـصر الانفعالي الشـعوري العاطفـي، الـذي يتفاعـل مـع العنـصر الفكـري، في جدليـة عميقة، تتيـح لرؤيـا المسـتقبل أن تنجـلي وتتضح، تقول سـعاد الصباح: «لمـاذا لا تكون المصالحـة العربيـة بوضوحهـا ونبلهـا ممكنـة؟ لا نريـد مصالحـات عبـارة عـن

1- نفسه ص 241.

لقاءات تليفزيونية، تبدأ بالأحضان وتنتهي بالطعنات»[1].

وتتجاوز سعاد الصباح شعور غربتها داخل مجتمعها، إلى الشعور بغربة المجتمع داخل ذاته، غربة المجتمع بأكمله، ذلك المجتمع الذي تراه معروضاً للبيع بأبخس الأثمان في المزاد العلني، وذلك المجتمع الذي أصابته حمى التشرذم والتناحر والخلاف، وذلك المجتمع الذي تقوده المغريات إلى طريق الهلاك، ويقوده التغريب إلى فقد هويته، وذلك المجتمع الذي لم يعد وريث الحضارات، بعد أن فقد ذاكرته القومية، وبات يتسول الموقف الحضاري الراهن، إذ لم يعد العلم وحده قادراً على تفسير عالمنا، ولم تعد الحتمية هي الكلمة الأخيرة في هذا العلم، فإلى جانب هذا كله هناك الحدس والاحتمال، هناك لكل شيء ألف احتمال، في هذا العالم الواسع الرحيب الذي يدفع إلى منطق الانطلاق اللانهائي، حيث يقف فيه الإنسان وحيداً غريباً في ديمومة لا تنتهي، بعد أن انقطعت به السبل، تقول سعاد الصباح: «لأن الذاكرة القومية صفر، أشبه بغربال واسع، مر جميع أبطالنا التاريخيين منذ صلاح الدين من ثقوب الغربال، وظل الحصى والقش على وجه الغربال»[2].

وغربة الفرد والمجتمع والوطن التي تصفها سعاد الصباح لنا، تذكرنا بغربة ألبير كامي التي تنحدر به إلى هاوية لا قرار لها من اليأس، إذ لا تعد بشيء سوى الأمل في الخلاص، فلا قنطرة إلى الفردوس الأعلى، ولا هي غربة مؤقتة أو تشبه المرحلة، والمعنى أنها غربة لا تتوقف نهائياً عن

1- نفسه ص 241.

2- نفسه ص 245.

الوعـد، ولا تعـد بالخـلاص، بـشرط أن يتسـلح إنسـان هذا الوطـن الغريب، في مواجهة محنة المجتمع ومأسـاة الوجود، بالنضال الثوري والتسـاؤل المسـتمر، وهـما عنـصرا الثـورة المخلصـة مـن كل اغـتراب[1]، ولـن يتحقـق الخـلاص إلا باتخـاذ القـدوة، وليـس هناك قدوة في تحقيـق هذه المصالحـة العربية وإتمام الوحـدة، أفضـل مـن الزعيـم الراحـل جـمال عبـد النـاصر، الذي تصفه سـعاد الصبـاح بقولهـا: «كان عبـد الناصر كبيراً كالمسـافات، مضيئاً كالمنـارات، جديداً كالنبـوءات، عميـق الصـوت كالكهـان، وكان في عينيـه بـرق دائـم يشـبه مـا تقولـه النيران للنـيران»[2].

وبنـور الهـلال الراعـش بـين أهدابهـا، تؤمـن سـعاد الصبـاح بـأن المخلصـين المنتمـين هـم وحدهـم، من يعيشـون يحملون ظـمأ الحزن على حـال الوطن، تحـت سـماء لا يرونهـا، والحـزن حالـة نفسـية تصيـب الإنسـان لفـترة زمنيـة تطـول وتقـصر، وقـد لاحظ البعض انتشـار ظاهـرة الحزن لدى أعـلام الحداثة وإبداعاتهـم، حتـى أحالـوا ذلـك إلى حساسـية المبـدع، والتـي تجسـد الفـارق بـين الشـاعر وغـيره، ويتجلى الحـزن في التكويـن النفسي للشـاعر، وهو تكوين متميـز يجعـل المبـدع في حالة قلـق وتوتر مسـتمر[3]، تصويراً للـذات البشرية التـي تنشـد الفرحـة ولا تدركهـا، ولا هـي تعـرف لهـا طعـماً[4]، وتقـول سـعاد

1- د.غـالي شـكري ـ المنتمـي ـ دراسـة في أدب نجيـب محفـوظ ـ كتابـات نقديـة رقـم 252 ـ هيئـة قصـور الثقافـة ـ القاهـرة ـ 2017م ـ ص350.

2- نفسه ص 257.

3- د.أحمـد سـيف الديـن ـ ظاهـرة الحـزن في الشـعر العـربي الحديـث ـ ص 28 ـ ويمكـن النظـر إلى أهـم مظاهـر الرومنطيقيـة في الأدب العـربي الحديـث وأهـم المـؤشرات الأجنبيـة فيهـا ـ فؤاد الفرفـوري ـ ص 126.

4- عبد العزيز المقالح ـ الشعر بين الرؤيا والتشكيل ـ ص 26.

الصباح:

إنني بنت الكويت

كلما مر ببالي عرب اليوم

بكيت

كلما فكرت في حال قريش

بعد أن مات رسول الله

خانتني دموعي

فبكيت[1]

وذاتها الحزينة لا تركن إلى اليأس، بل تصنع من ذلك الحزن رؤية إيجابية، فتنظر إلى الأمور من زوايا نصف الكوب الممتلئ، وليس النصف الفارغ، دون أن تتحول إلى باحثة عن جنة خلف السراب، وتنتظر الورد يطلع من تحت الخراب، وهي لا تردد قول جبران خليل جبران، «اسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك، اسكت فالأثير المثقل بالنواح والعويل، لن يحمل أغانيك وأناشيدك، اسكت فأشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك، ومواكب الظلام لا تقف أمام أحلامك[2].

ولا نجد سوى أن نقدم احترامنا لتلك الصورة التي صورت مأساة عالمنا العربي، صورة حملها إلينا كف الفن الحقيقي، والفن الحقيقي هو الجوهر العظيم الخالق، الذي لا يزيف وعي الإنسان أو المجتمع أو الوجود،

1- وللعصافير أظافر تكتب الشعر ـ ص 83.

2- شريف رزق ـ شعر النثر العربي في القرن العشرين ـ أشكاله وتحولاته الشعرية ـ هيئة قصور الثقافة ـ القاهرة ـ كتابات نقدية 247 ـ 2017م ـ ص 82.

والصدق الفني هو المعيار الوحيد للفن الخالد[1]، وقد أتقنت وأجادت سعاد الصباح -عبر منجزها الإبداعي- لعبة التفكيك لمختلف الظواهر التي جعلت وطننا العربي وناسه، في غيبوبة مستمرة، وغفلة منقطعة النظير، وأتقنت وأجادت بالمثل صياغتها على نحو جديد.

وبين التفكيك وإعادة الصياغة، تجلت أوجه الاختلال والتوازن والاهتزاز في الرؤية، وأوجه الانهيار والتحلل والانسجام والتماسك، وبينت لنا وجهات نظرها ورؤاها تجاه تلك الظواهر، وفتحت لنا نافذة لنكتشف من خلالها، أن تلك الرؤى لم تكن وليدة طفرة تفكير وتأمل، والتفكير كما نعرف هو الاستغراق في الأمر لمعرفة أسبابه ونتائجه، والتأمل هو الاستغراق في الأمر لتحصيل العبرة[2]، وإنما سبقها تاريخ طويل من الحزن والانكسار، والشعور بالغصة في الحلق، والطعنة في الصدر، والذبحة في القلب، وتاريخ طويل من التفكير والتأمل في حال الوطن، لترسي في النهاية دعائم التغيير.

وستظل سعاد الصباح متمسكة بطاقتها الإيجابية، بتجلياتها الواسعة، حتى وإن بدا التاريخ العربي عاراً والحلم العربي غباراً، وستظل تفتح الآفاق من خلال تشكيلاتها الإبداعية -شعراً ونثراً- المفتوحة على عالم الدلالات، حتى وإن باتت العروبة مغلوبة على أمرها، وستظل قادرة على لمّ شمل الثقافة وتناقضاتها، وستظل قادرة على صنع قوامها المدهش، حتى وإن ظلت الانهيارات تحاصرنا في كل جانب، انهيار قومي وانهيار سياسي وانهيار

1- نسيب نشاوي ـ مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر ـ 1984م.

2- غاستون باشلار ـ فلسفة الرفض ـ ترجمة: د.خليل أحمد خليل ـ دار الحداثة ـ بيروت ـ ط1 ـ 1985م.

اقتصادي وانهيار ثقافي، وستظل قادرة على التأثير فيمن يحيطون بها من مبدعين وقراء، مهما استمرت الجراحات المتوالية في المسلسل المحكم من الانكسارات، وستظل تتعامل بالمنطق العقلاني التاريخي القائل: «إذا شوهت المرآة وجهك، فأصلح وجهك، ولا تكسر المرآة»[1].

وطوبى لمن يؤمنون بأن الكتابة الإبداعية تمثل الإشعاع الحضاري الحقيقي، وبؤرة الضوء التي يسترشد بها الضالون، ولن يتمكن أحد من حبس الشمس، أو إيقاف أمواج البحر، ولن يفلح من يقيمون هذا الجدار الخرافي، بين الحقول وبين الشجر، وبين الغيوم وبين المطر[2]، وحي على الحرية، حي على الحرية.

***

وردة البحر[3]

ويسعدني أن يكون تراب بلادي
مزار البنفسج والشهداء
وسقفاً لمن تركتهم حروب العروبة دون غطاء
ويسعدني أن تظل بلادي جزيرة حرية رائعة
بها الفجر يطلع حين يشاء
بها البحر يهدر حين يشاء

1- مذهب الشاعر الشيرازي.

2- وللعصافير أظافر تكتب الشعر ـ ص45.

3- من ديوان فتافيت امرأة (Fragments of Woman) من قصيدة ـ ترجمة إلى الإنجليزية: د.نهاد صليحة

بها الموج يغضب حين يشاء

ويسعدني أن تظل بلادي فضاء رحيباً

ونافذة نتنشق منها الهواء

فعصر المباحث صادر منا السماء

وصادر منا الحقائب.. صادر منا السفر

وأدخل للسجن ضوء القمر

I'll be happy if the soil of my country

،Becomes the violets' and the martyrs' holy shrine

made homeless by Arab wars ،Gives a roof to all the victims

I'll be happy if my country

Remains the glorious isle of wishes

.And the sea roars as he wills

،I'll be happy if my country remains an open free space

.And a window that lets in the fresh clean air

the secret service ،For in this age of police states

،confiscated our luggage ،Has shut away the sky

،Our passports

.And sent the moonlight to jail

الخاتمة

كما تظل الريشة هي النبع الذي يصنع من اللوحة قارب سفر، وكما يظل السهم هو العلامة الهادية للعودة عند كل نهاية، ظلت سعاد الصباح صديقة الكلمة واللون والفكرة والحلم الجميل، تصنع من الفكرة طوق نجاة، ومن الحبر بحراً وشمساً وأغنية، وتصنع من اللوحة التي رسمتها بريشة الوجع، على مدى أكثر من نصف قرن، سجلاً تاريخياً لإنسان هذه الأرض الطيبة، تتحدث عن حلمه وألمه وشغفه وتميزه، ولتبقى الكويت رمز كل تقدم وإبداع وتميز.

ظلت سعاد الصباح مبحرة في عالم الكلمة المبدعة، واللون الجذاب، والجمال الآخاذ، راعية للإبداع، قريبة منه، وجزءاً من تفاصيله، تلقي السلام على القاصي والداني، وتضع علامات على الطرق التي تقود إلى النور، ومن كلماتها وجدت الطيور المحلقة ملاذاً آمناً لأعشاشها، ووجدت السفن المبحرة أمواجاً تحملها، ووجدت المهزومات المحزونات من بنات جنسها السلوى، مؤمنة بأن الفن والإبداع مثل الحب، يبحث دوماً عن مكان آمن لكي يعيش فيه، وينمو وينطلق ويطلق شموسه وأقماره وأجراسه، كي تضيء العالم، وتنبه السائرين، وتؤنس المستوحشين، وتهدي الحائرين[1].

1- جريدة الرأي ـ العدد 14167ـ ثقافة ـ الصفحة 10 ـ الأحد 15 أبريل 2018م ـ كلمات شاركت بها الشاعرة في ختام فعاليات مهرجان رواد فن الرسم الذي أقامته الجمعية الكويتية للفنون التشكيلية في سياق احتفالها بمرور نصف قرن على تأسيسها، وافتتحته الشيخة شيماء عبد الله المبارك نيابة عن الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح.

حاولت سعاد الصباح وسط هذا الضجيج السياسي والاجتماعي والإلكتروني، والركض العالمي نحو كل شيء، أن لا يغور الماء في التراب، وأن لا تتسلل الليالي المظلمة إلى قلوبنا أكثر مما تسللت، أو تباغتنا الهزائم أكثر مما باغتتنا، أو تصيبنا شظايا الانكسار والتشرذم والاختلاف أكثر مما أصابتنا، وظلت تبحث عن شرفة هادئة، تطل منها على شاطئ النجاة النقي، غير المزدحم بالأيدي التي تكسر كل حلم، وتلوث كل جمال، وتطعم الأرض الطيبة بالبوار.

المهزومون هم وحدهم الذين لا يعترفون بهزائمهم، وهم وحدهم الذين تترسب في أعماقهم الأحقاد، وهم وحدهم الذين لا يطؤون الأرض بأقدام خفيفة كالأجنحة، وهم وحدهم الذين لا يرون ما بإمكانهم أن يفعلوه لأوطانهم، وقد قاومت سعاد الصباح الشعور -كأنثى- بالهزيمة، والشعور -كوطن- بالانكسار، وسط عالم تنبح فيه الكلاب كثيراً، وتعوي فيه الذئاب كثيراً، وتتساقط فيه دماء النجوم، ظلت هي الطير الأخضر في القصص والحكايات، وظلت هي البلسم الذي يداوي الجروح، ويطبب القلوب، لمن يلطمون الخدود.

صنعت سعاد الصباح من دمها حبراً من أجل الوطن، وصنعت من شمسها صدراً دافئاً من أجل المتعبين والمعذبين، في كل مكان، وصنعت من كلماتها روحاً للعالم، الذي تشققت شفتاه من حر الصراع والمشاحنة، وما كان لها أن تتخلى عن قضيتها، التي هي قضية بنات جنسها، والتي هي قضية الوطن.

كان الوطن لديها أوسع من بقعة جغرافية، كان عمقاً للتاريخ، وعمقاً

للفكـر، وعمقـاً للحضـارة، وكان أمـلاً في غـد يتسـابق فيـه النجاح مـع النجاح، ويخفـت فيـه الفشـل مع الفشـل، حتـى يتلاشى، ومـا كان الوطـن لديها مجرد وعـاء للفصـول الأربعـة، أو مجـرد عريشـة مطـرزة بالحريـر لـكل عـروس، سرعـان مـا يكتشـفون -بعـد زفافهـا- أنهـا لا تتقـن فـن الطبـخ، كان الوطـن لديهـا هـو الحيـاة، هو المـاضي والحاضر والمسـتقبل، هـو الانتماء والـولاء، هو الحـب الكبير.

وقـد أفاضت سـعاد الصباح بالحـب وبالخير، على كل ذرة مـن تراب وطنها، ولم تبخـل بوقـت أو جهـد أو مـال، كـما أفاضـت في الدفـاع عن غـزلان الوطن مـن مطـاردات الوحـوش، في السـهول والوديـان والجبال، وفي دفاعها تمسـكت بحلمهـا الكبـير، كانـت تحلم بكنز في بسـتان الخوخ، لتوزعه عـلى أحبابها، من الأطفـال والرجـال والنسـاء، أطفـال الوطن ورجاله ونسـائه، ولا تبقي لنفسـها سـوى القليـل، كانـت تحلم بكنـز من المسـاواة والكبرياء.

وهـا أنـا مازلت أسـمع ترنيمتها وهي تنشـد في أذن الوطن: يـا أيها القديس الـذي علمنـي أبجديـة الحـب، مـن الألـف إلى اليـاء، ورسـمني كقـوس قـزح بـين الأرض والسـماء، وعلمنـي لغـة الشـجر، ولغة المطـر، ولغة البحـر الزرقاء، أحبـك[1]، ولا تـزال ملحمـة حـب الوطـن داخلهـا تتجمـل كل يـوم، بـل كل لحظة .

ولـن ينتهـي الـكلام عـن سـعاد الصبـاح، كـما لـن يسـكت صوتهـا بالحـق، ولـن يصمـت وجدانهـا بالحنـين، سـيظل كفاها خضراويـن من عشـب الربيع، وسـيظل كفاهـا بيضاويـن مـن رغـوة الحليـب، وسـيظل كفاهـا لوحتـين مـن

1- ديوان قصائد حب ـ ص142.

قـوس قـزح، تنـثر ألوانهـا ليفـرح الجميـع، وتنـثر عطرهـا كي تظـل الشـمس سـاطعة دافئـة، والعيـد يتـلألأ في الحكايـات، بنـور القلـوب، وصـدق النوايـا، وألـق الذكريـات.

سـتظل سـعاد الصباح تعشـق تراب الوطن، مهما كان سـاخناً موجعاً يلسـع الأقـدام، وسـتظل تعشـق تـراب الوطـن، مهـما كان هبـاء تـذروه الريـاح في العيـون، وسـتظل قويـة يهـاب حضورهـا الكاذبـون والمنافقـون والمداهنـون، وأصحـاب النفـوس المشـوهة، وأصحـاب القلـوب التـي ولـدت ميتة، وسـتظل لؤلـؤة تشـع نورهـا في الليـل والنهـار، لا تهـاب في الحـق لومة لائـم، ولا تهاب أن ترفـع صوتهـا في وجـه الظلـم، أو تغـرز في قلبـه خنجـراً، ليمـوت.

وكما أحبت سعاد الصباح وطنها
وكما أحبت كويتها
وكما أحبت بنات جنسها
وكما أحبت الطفولة والأمومة والزمن الجميل
أحبها الجميع
وأحببتها

***

القمر على قائمة المطلوبين[1]

حتى الشمس في هذا العصر الظلامي

أخذوها من بيتها

وحكموا عليها بالسجن خمسة عشر عاماً

بتهمة توزيع رسائلها الضوئية

على نوافذ المواطنين

حتى ضوء القمر

ألصقوا صوره على كل جدران المدينة

وطلبوا إلقاء القبض عليه

حياً.. أو ميتاً

The Moon on the Wanted List

Even the sun in this age of darkness

Was taken from her home

،And sentenced to fifteen years imprisonment

Charging her with distributing her light

1- من ديوان (في البدء كانت الأنثى) In The beginning Was the famele ـ ترجمة إلى الإنجليزية الدكتور عبد الواحد لؤلؤة

.To the windows of citizens

،Even the moonlight

،They had his pictures posted on all city walls

،And demanded his arrest

.Alive or dead

المصادر والمراجع

المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين.
3. مجموع فتاوى ابن باز -261 16.
4. رسائل الجاحظ - كتاب كتمان السر وحفظ اللسان - منشورات دار ومكتبة الهلال - بيروت - 2002م.
5. السيرة الذاتية للشاعرة الدكتورة سعاد الصباح.
6. دواوين الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح (ديوان أمنية - ديوان إلى ولدي - ديوان امرأة بلا سواحل - ديوان خذني إلى حدود الشمس - ديوان في البدء كانت الأنثى - ديوان إليك يا ولدي - ديوان قراءة في كف الوطن - ديوان فتافيت امرأة - ديوان قصائد حب - ديوان وللعصافير أظافر تكتب الشعر).

المصادر:

مصادر مترجمة:

1. بول ريكور - النص والتأويل في كتابه (Du texte a l action) ترجمة: منصف عبد الحق - مجلة العرب والفكر العالمي - العدد 3 - مركز الإنماء القومي - بيروت - صيف 1988م.
2. جون سي ماكسويل - أساسيات التوجه الذهني وما يحتاج كل قائد

إلى معرفته - العنوان في اللغة الأصلية (Attitude 101what every leader needs to know) - ترجمة ونشر مكتبة جرير ومكتبة مؤمن قريش - السعودية - 2009م.
3. غاستون باشلار - فلسفة الرفض - ترجمة: د.خليل أحمد خليل - دار الحداثة - بيروت - ط1 - 1985م.
4. فيكتور فركس - الإنسان التقني - ترجمة: إميل خليل بيدس - دار الآفاق الجديدة - بيروت.
5. كريستوفر نوريس - نظرية لا نقدية ما بعد الحداثة - المثقفون وحرب الخليج - ترجمة د.عابد عباس - دار الكنوز الأدبية - الطبعة الأولى.
6. كريستوفر وانت - أندرجي كليموفسكي - أقدم لك كانط - ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - 2002م.
7. ليوتار - الظاهراتية - ترجمة: د.خليل البحر - سلسلة ماذا أعرف؟ - المنشورات العربية - بيروت - وترجمة: أحمد حسان - دار شرقيات - القاهرة - 1994م.
8. ليوتار والوضع ما بعد الحداثة - نخبة من الباحثين - إشراف وتحرير د.أحمد عبد الحليم عطية - هيئة قصور الثقافة - القاهرة - سلسلة الفلسفة - عدد 27 - 2017م.
9. موريس هالبواكس - الذاكرة الجماعية - 1997م.

مصادر عربية:

1. د.أشرف أحمد حافظ - توظيف الظواهر الأسلوبية - من رثاء الزوجات إلى قصيدة آخر السيوف - يوم الأديب الكويتي - تكريم الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح تحت شعار الإبداع في مواكب الثقافة العربية

- جامعة الكويت - كلية الآداب – من دون تاريخ.
2. د.أحمد درويش - متعة تذوق الشعر - دار غريب - القاهرة - ط1 - 1997م.
3. أحلام مستغانمي - ذاكرة الجسد - منشورات أحلام مستغانمي - ط22 - 2007م.
4. أدونيس - زمن الشعر - دار العودة - بيروت - ط3- 1983م.
5. د.أحمد سيف الدين - ظاهرة الحزن في الشعر العربي الحديث - مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث - فؤاد الفرفوري.
6. إسماعيل إسماعيل مروة - سعاد الصباح شاعرة شتائية في الحب والغضب - منشورات النور - بيروت - الطبعة الأولى - 2000م.
7. إبراهيم فرغلي - لا مستقبل من دون خيال وعلم - الخيال العلمي الصارم أصبح ضرورة وليس ترفاً - مجلة العلم والحياة - أكتوبر 2017م.
8. الأنثى في شعر سعاد الصباح - الغلاف الأخير - هيئة الكتاب - القاهرة - 2004م.
9. حسن حنفي - التراث والتجديد - موقفنا من التراث القديم - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - لبنان، ط5 - 2002م.
10. خناثة بنونة - الغد والغضب - منشورات وزارة الثقافة - 2006م.
11. خديجة صبار - المرأة بين الميثولوجيا والحداثة - أفريقيا الشرق - المغرب 1999م - ط1.
12. رشيدة بن مسعود - المرأة والكتابة - سؤال الخصوصية بلاغة الاختلاف - إفريقيا الشرق - المغرب - ط 2 - 2002م.
13. سالم عباس خدادة - التيار التجديدي في الشعر الكويتي - المركز العربي للإعلام - الكويت - ط1 - 1989م.

14. د.سلطان الحريري - الذات الشاعرة وثقافة النص في أدب سعاد الصباح - مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين - الكويت - مارس 2018م.
15. شريف رزق - شعر النثر العربي في القرن العشرين - أشكاله وتحولاته الشعرية - هيئة قصور الثقافة - القاهرة - كتابات نقدية 247 - 2017م.
16. صلاح صالح - سرد الآخر - الأنا والآخر عبر اللغة السردية - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - المغرب - ط 1- 2003م.
17. صورة المرأة في شعر سعاد الصباح - الغلاف الأخير - هيئة الكتاب - القاهرة - 2004م.
18. د.طه حسين - خصام ونقد - مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر - القاهرة - 2013م.
19. علي المسعودي - سعاد الصباح حمامة السلام - حوارات معها - المختلف للطباعة والنشر - الكويت - 2000م.
وعلي المسعودي – أسئلة الشمس – دراسات أدبية في شعر سعاد الصباح.
20. د.عمر الدقاق - ملامح الشعر القومي الحديث - جامعة حلب - ط 1990م.
21. د.علي جعفر العلاق - الشعر والتلقي في حداثة النص الشعري - دار الشؤون الثقافية - بغداد - ط1 - 1990م.
22. د.عبد الله محمد الغذامي - حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية - المركز الثقافي العربي - بيروت - ط3 - 2005م.
23. عبد الله الحسني - المعارك الفكرية عنف واستشراس - 2018م.
24. علي افرفار - صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني - دار الطليعة - بيروت - 1999م.

25. عبـد الدائـم السـلامي - كنائس النقد - الهيئة المصريـة للكتاب - القاهرة - 2017م.
26. د.عبـده الراجحـي - التعايـش المشـترك نحـو مسـتقبل أفضـل - الهيئـة المصريـة للكتـاب - القاهـرة - 2012م.
27. عبد الخالق ياسين - صفحات من تاريخ العلم الحديث.
28. عبد العزيز المقالح - الشعر بين الرؤيا والتشكيل.
29. د.غـالي شـكري - المنتمـي - دراسـة في أدب نجيـب محفـوظ - كتابـات نقديـة رقـم 252- هيئـة قصـور الثقافـة - القاهـرة - 2017م.
30. فاطمـة الجامعـي الحبابي - إلى سـعاد الصباح المرأة بـين فواصل الكلمات - منشـورات دار النور - بيروت - ط1 2005م.
31. د.فـوزي عيـسى - القصيـدة أنثـى والأنثى قصيدة - قراءة في شـعر سـعاد الصبـاح - دار الجمـل للنـشر والتوزيع والإعـلام - القاهرة - 2003م.
32. د.فـوزي عيـسى - مواجهـة مـع تقدمـي مـن العصـور الوسـطى في شـعر سـعاد الصبـاح - صـورة المـرأة في شـعر سـعاد الصبـاح - الهيئـة المصريـة للكتـاب - القاهـرة - 2004م.
33. فريـدة النقـاش - حدائـق النسـاء في نقـد الأصوليـة - مركـز القاهـرة لدراسـات حقـوق الإنسـان - 2002م.
34. د.فاضـل خلـف - الممارسـة الإبداعيـة في تجربة سـعاد الصباح الشـعرية - الهيئـة المصريـة الكتـاب - القاهـرة - 2004م.
35. مفيـد فـوزي - سـعاد الصبـاح مفاتيـح قلـب شـاعرة - الهيئـة المصريـة للكتـاب - القاهـرة - 2000م.
36. د.محمـد التونجـي - قـراءة مسـافر في شـعر سـعاد الصبـاح - منشـورات شركـة النـور - ط2 - الكويـت - 1987م.

37. د.مختار محمود - بين الأمنية والحلم - قراءة في ديوان أمنية - يوم الأديب الكويتي.
38. د.محمد فتوح أحمد - الرمز والرمزية.
39. د.مها خيربك ناصر - الأنثى واقعاً ورؤيا - الأنثى في شعر سعاد الصباح - الهيئة المصرية الكتاب - القاهرة - 2004م.
40. د.مختار أبو غالي - سعاد الصباح والدفاع عن حقوق المرأة - صورة المرأة في شعر سعاد الصباح - الهيئة المصرية الكتاب - القاهرة - 2004م.
41. محمد الغزالي - قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة - دار الانتفاضة للنشر والتوزيع - الجزائر - 1996م.
42. مي زيادة - كلمات وإشارات - دار العلم للملايين.
43. د.محمد الزوادي - في الدلالات الميتافيزيقية للرموز للثقافية - مجلة عالم الفكر - الكويت - المجلد 25 - العدد 3 - مارس 1997م.
44. محمد أحمد علي - الطاقة المتجددة هدف عالمي (العلم والحياة) - الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة - العدد الرابع - الإصدار الثالث - أكتوبر 2017م.
45. محمد منير مجاهد - استخراج الطاقة من النفايات.
46. نجمة عبد الله - المرأة الشاعرة - قراءة في الواقع الثقافي - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - العدد 2 المجلد 34 أكتوبر/ديسمبر 2005م.
47. د.نبيل راغب - عزف على أوتار مشدودة - دراسة في شعر سعاد الصباح.
48. نسيب نشاوي - مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي

المعاصر - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1984م.
49. نازك الأعرجي - صوت الأنثى - دراسات في الكتابة النسوية العربية - دار الأهالي - دمشق - 1997م.
50. د.ليلى بلخير - المرأة المبدعة في المنظور الثقافي العربي - جامعة العربي التبسي تبسة - مجلة الآداب واللغات - العدد 3 - 2006م.
51. د.ليلى بلخير - قضايا المرأة في زمن العولمة - دار الهدى - الجزائر - 2006م.
52. هاني عياد - ثقافة التعايش المشترك الحاضر والمستقبل - الهيئة المصرية للكتاب - سلسلة إنسانيات - القاهرة - 2002م.
53. **د.يحيى الجبوري - الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان) - دار مجد لاوي - عمان - الأردن - ط1 - 2008م.**

صحف ومجلات:

1. مجلة الكويت.
2. جريدة الرأي.
3. جريدة القبس.
4. جريدة الأنباء.
5. مجلة الثقافة العلمية.
6. مجلة عالم الفكر.
7. مجلة الآداب واللغات.

***

الفهرس

الإهداء.....7

المقدمة 9

الفصل الأول: سعاد الصباح.. ثلاثة أوجه لعملة واحدة 13

قيمة وقامة 13

الوجه الأول.. الإنسانة 18

سعاد الطفلة 22

سعاد الزوجة.....27

سعاد الأم 33

سعاد الحماة.....40

سعاد الجدة 45

الوجه الثاني.. الشاعرة.....47

رحلة نشر القصائد.....50

المحور الوطني 56

المحور الاجتماعي.....58

المحور الوجداني 60

واقعية الأفكار 67

موهبة الرسم 69

الحب والحرية.....70

الرموز الدلالية.....72

بساطة اللغة.....75

مأثورات من أقوالها: 77

الوجه الثالث.. المثقفة.....81
المضامين الفكرية 88
المضامين الاقتصادية 89
المضامين السياسية 90
الظواهر المستبعدة.....93
اعترافات امرأة شتائية 95
Confessions of a Wintry Woman.....95

الفصل الثاني: سعاد الصباح.. الأمومة وطن 97
أولاً- الثورة على العقلية الذكورية 102
ثانياً- ثورة المرأة على ذاتها 109
ثالثاً- الثورة من أجل الطفل 110
موضة الخطاب النسوي.....112
الهدم البناء 122
مبالغة الخطاب النسوي.....126
جوهر ثقافة المقاومة 128
حرائق على الثلج 133
Fire on the Snow.....134

الفصل الثالث: سعاد الصباح.. فدائية باحثة عن الحقيقة 135
الرجل.. المعركة الأولى.....138
استقصاء الفكر الاجتماعي.....146
المرأة.. المعركة الثانية 156
صور الشخصية السلبية.....160

صور الشخصية الإيجابية 163
الطفولة.. المعركة الثالثة 167
الطفل العربي..... 176
الإنسان والمجتمع والحياة.. المعركة الرابعة 182
القراءة والكتابة.. المعركة الخامسة 192
الحب.. المعركة السادسة 206
ظواهر أساسية لافتة 212
قصيدة حب 217
عاشقانة ي 217
الفصل الرابع: سعاد الصباح.. ثروتنا الحضارية ومستقبل أمة..... 219
مائدة التنوع الديمقراطي..... 220
شخصية النص الإبداعي..... 222
سلاح الشك الإيجابي..... 224
واقعية قراءة الوطن..... 226
التوجه الذهني والوجداني 230
نمط التفكير الإيجابي..... 236
عنصرية اللغة..... 245
صنع اللغة..... 249
قضايا ما بعد الحداثة..... 251
الخيال والعلم والمعرفة..... 252
تكنولوجيا المستقبل 256
مدارس المتفوقين..... 258

مرحلة ما بعد النفط.....262
صناعات المجتمع الرقمي.....266
الصناعات المستحدثة 267
المصالحة العربية.....270
الخاتمة 279
القمر على قائمة المطلوبين 283
The Moon on the Wanted List.....283
المصادر والمراجع.....285

إصدارات المؤلفة:

1. (وجوه في الزحام) رواية 1971 - ط1 – سنة 2005 -ط2.
2. (عبد الله السالم.. رجل عاش ولم يمت) دراسة سنة 1973.
3. (وجهها لوطن) مجموعة قصصية سنة 1995.
4. (تاء مربوطة) مجموعة قصصية سنة 1998.
5. (دماء على وجه القمر) مجموعة قصصية سنة 2003.
6. (لسميرة وأخواتها) مجموعة قصصية سنة 2005.
7. (بقايا) أقاصيص سنة 2013.
8. (ثرثرة بلا ضفاف) رواية سنة 2015.
9. (الحراك الاجتماعي في القصة القصيرة في الكويت - دراسة فنية سسيولوجية) سنة 2013.
10. (النص المؤنث وحالات الساردة - دراسة تحليلية لخطاب المرأة في الرواية العربية) سنة 2012.
11. (غرفة متهاوية) رواية سنة 2017.
12. في الألفية الثالثة – الكويت إبداعاً وفكراً (القصة والرواية) سنة 2019.

المؤلفة

- د.فاطمة يوسف العلي كويتية، روائية وقاصة وباحثة.
- دكتوراه في النقد الأدبي الحديث.
- رائدة الرواية النسوية بالكويت سنة 1971 - رواية (وجوه في الزحام).
- عضو لجنة المناهج التعليمية في وزارة التربية بالكويت لسنوات.
- نالت العديد من الجوائز المتميزة في كتابة قضايا المرأة من منظمة عالمية بالتعاون مع جامعة الدول العربية.
- تم تناول منجزها في بعض المقررات الدراسية المختلفة والجامعية.
- حاضرت في العديد من الجامعات منها: سدني – بلتيمور – الهند – طهران - الكويت - المغرب – تونس، وغيرها.
- أقامت العديد من الورش في تعليم فن كتابة القصة القصيرة.
- نشرت ومازالت بالعربي - الأهرام القاهرية - الآداب اللبنانية - حواء - أخبار الأدب - وجريدة الرأي العام والقبس ومجلة النهضة ودبي وباينيبال الإنجليزية - وأدب ونقد.
- صدرت العديد من الكتب في إبداعاتها النقدية والروائية والقصصية، وكذلك في رسائل الماجستير والدكتوراه من جامعات أجنبية وعربية وخليجية.
- حاورت قامات ثقافية أثناء دراستها بجامعة القاهرة منهم: يوسف السباعي، يوسف إدريس، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، بنت الشاطئ، إحسان عبد القدوس، نزار قباني، وغيرهم.
- لها العديد من الإصدارات في الرواية والقصة والدراسات، وترجم منها للغات عدة.
- شاركت في العشرات من المؤتمرات والندوات بأوراق عمل وأبحاث وشهادات.
- زوجة وأم ومتفرغة حالياً للكتابة.

دار سعاد الصباح
للنشر والتوزيع